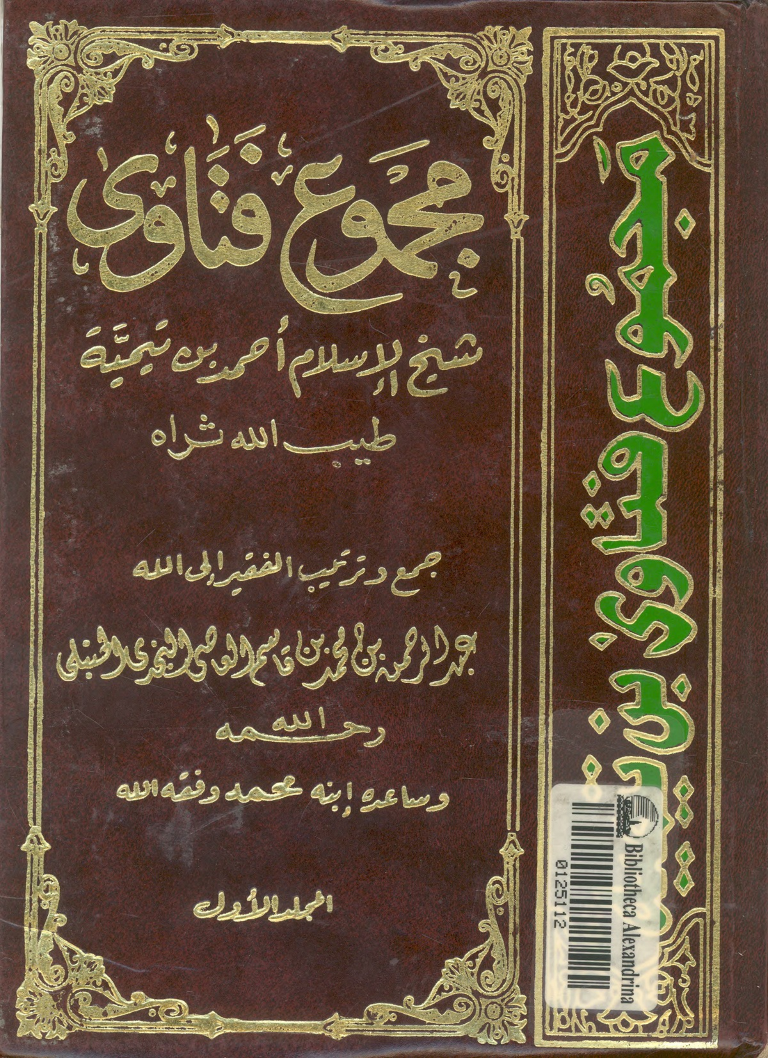

مجموع فتاوى
شيخ الإسلام أحمد بن تيمية
طيب الله ثراه
جمع وترتيب الفقير إلى الله
عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي الحنبلي
رحمه الله
وساعده ابنه محمد وفقه الله
المجلد الأول
Bibliotheca Alexandrina
0125112

مجموع فتاوى
شيخ الإسلام أحمد بن تيمية

قدس الله روحه

جمع وترتيب الفقير إلى الله

عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي الحنبلي

وساعده ابنه محمد وفقهما الله

المجلد الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي جعل فى كل زمان فترة بقايا من أهل العلم ـ ينفون عن الكتاب ، والسنة تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين، وبدع المبتدعين ، ويبينون الحق بالبراهين .

وأشهد أن لا إله إلا الله الأحد ، الصمد ، الملك ، الحق ، المبين .

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، الصادق ، الأمين .

صلى الله عليه ، وعلى آله وأصحابه ، والتابعين ، وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين .

أما بعد : فان «شيخ الاسلام» تقي الدين ، أحمد بن عبد الحليم ، بن عبد السلام بن أبى القاسم ، بن الخضر ، بن تيمية ، النمري ، الحرانى ، العالم الربانى ، سيد الحفاظ، بحر العلوم ، مفتى الأمة ، فريعة الدهر ، أعجوبة الزمان ، حجة الله على عباده الجامع بين العلوم النقلية والعقلية بأنواعها . ومذاهب أهل الملل والنحل ، وآراء المذاهب ، ومقالات الفرق : ما لا يعلم مثله عن أحد من علماء الأرض لا قبله ولا بعده . مع بيان حقيقة الشريعة المطهرة على الوجه الصحيح ، وقوة الحكم

فى إحقاق الحق بالحجج والبراهين،ونصر مذهب السلف على من خالفه من سائر المضلين . وقوة الحكم فى إبطال الباطل : فبحثه واستدلاله يزلزل زخرف المبطلين لم يظهر من علم أحد ما ظهر من علمه ، ولم يؤت أحد مثل ما أتى من الحفظ ، والفهم ، والذكاء ، وعلو الكعب ، حتى قال أحد علماء عصره : —

إن هذا الشيخ المعظم الجليل ، الامام المكرم النبيل ، أوحد الدهر ، وفريد العصر : لو أقسم مقسم — بالله العظيم ، القدير — أن هذا الامام الكبير ، ليس فى عصره مماثل له ولا نظير .لكانت يمينه برة غنية عن التكفير ، وقد خلت عن وجود مثله السبع الأقاليم ؛ يوافق على ذلك كل منصف جبل على الطبع السليم ، ولست بالثناء عليه أطريه ، ولو أطنب مطنب فى مدحه ، والثناء عليه : لما أتى على بعض الفضائل التى هي فيه » إلى أن قال : « انقطعت عن وجود مثله الأطماع ؛ أعلم بالمذاهب والملل والطرق من أهلها ؛ يغترف من بحر وغيره من السواقى ، ومزاياه ، وسعة اطلاعه ، وصواب جوابه : أمر إلهي » .

وقد أطلق فى حقه علماء عصره فمن بعدهم عبارات ضخمة هو جدير بها . وكتبه ، وفتاويه ، ومناظراته ، شاهدة له بذلك .

وكتب له تراجم جمة قد لا يحاط بها .

وحكي البرزالي « أن شيوخه أكثر من مائة شيخ » .

وذكروا له من المصنفات أكثر من ستة آلاف مجلد .

وقال بعض أصحابه : لو أراد الشيخ، أو غيره أن يعدوا مؤلفاته لما قدروا.

وقال الذهبي : « لعل فتاويه فى الفنون تبلغ ثلاثمائة مجلد؛ بل أكثر. وقال كان يقضي منه العجب : إذا سئل كأن السنة بين عينيه، وعلى طرف لسانه » .

وقال الطوفى : «كأن العلوم بين عينيه يأخذ ما يشاء ويذر ما يشاء ، وعرضت عليه أبيات فتى رجليه وأجاب عنها بمائة وتسعة أبيات،ويجيب فى القعدة الواحدة بعدة كراريس » .

وقال جمال الدين فى أماليه : ومن عجائب ما وقع فى الحفظ « ابن تيمية » يمر بالكتاب يطالعه فينتقش فى ذهنه، وينقله فى مصنفاته بلفظه أو معناه .

وقال أحد تلامذته : « كان من غريب اصطناع الله سبحانه لعبده هذا ـ أن جعل مقامه ، ومحنته ، وانتصاره بالديار المصرية سبباً عظيماً لانتشار علمه ببلاد المغرب ؛ لأن مصر لأجل الحج وجه تلك البلاد الفسيحة ، كما أن الشام لأجل الحج وجه البلاد المشرقية. والله تعالى أراد علو كلمة هذا الامام، المحقق، الناقد، البارع، وانتشار صيته، وعلمه فى مشارق الأرض ، ومغاربها : فأقام سبحانه لذلك أسباباً ، وفتح له أبواباً ، والمؤلفات التى انتقلت من ديار مصر إلى بلاد المغرب على أيدي طلبة العلم والدين لا يحضرنى عددها لكثرتها ، رأيت واحداً من أعيانهم وقد استصحب أربعة عشر مصنفاً ، وآخر أكبر منه استصحب أكثر من ذلك وأجل، فنشره ببلادهم ثم عاد ليأخذ قطعة أخرى، وأما ما نقل متفرقا فانه كثير جداً ، ولله تعالى فى خلقه أمر هو بالغه، لا إله إلا هو » .

ولعظيم النفع بفتاويه، والثقة منها، واعتماد مبتغى الصواب عليها: فتشت عن مختصراتها فى بعض مكتبات نجد، والحجاز، والشام، وغيرها: فجمعت منها أكثر من ثلاثين مجلداً، ورتبتها[1] وهو بدأ؛ وإلا فعسى الله سبحانه أن يقيض لفتاويه من يجمعها من مشارق الأرض، ومغاربها، ومن المكتبات التى لم نطلع عليها. ويلحقه بما جمعته منها؛ فهو سبحانه المستعان[2]

وبدأت بكتاب (توحيد الألوهية) ثم بكتاب (توحيد الربوبية) ثم بكتاب (مجمل اعتقاد السلف) ثم بكتاب (مفصل الاعتقاد) ثم بكتاب (الأسماء والصفات) ثم بكتاب (الايمان) ثم بكتاب (القدر) ثم بكتاب (المنطق) ثم بكتاب (علم السلوك) ثم بكتاب (التصوف) ثم بكتاب (القرآن كلام الله حقيقة) ثم بكتاب (مقدمة التفسير) ثم بكتاب (ما فسر من أول القرآن إلى الزمر) ثم بكتاب (ما فسر من الزمر إلى الاخلاص) ثم بكتاب (تفسير سورة الاخلاص والمعوذتين) ثم بكتاب (الحديث) ثم (بأصول الفقه) ثم بكتاب (الاتباع)

---

(١) وأشار علي (شيخنا) حفظه الله – لما رتبت فتاوى علماء هذه الدعوة – وكان لدى من فتاوى شيخ الاسلام جملة كثيرة – أن ارتبها أسهل للمراجعة، ففعلت، وأراجعه فيما يشكل، ثم جمعت من نجد، والحجاز مجلدات، ورتبتها ٠

ولما سافرت للمعالجة جمعت ما تيسر وساعدنى (الابن محمد) – وفقه الله – وضممت ما تحصل على ما رتبته، وما توفيقى الا بالله ٠

(٢) وأعيذ بالله من قد يتولاه أن يحشى عليه، فهو ذهب مصفى، حققه من قد علمت نزرا من مزايا فضله، فهو غنى عن زعم تحقيق بعض العصريين الذين لم يبلغوا شأواه وغنى عن عنونتهم وغيرها اثناء كلامه، وعن تعليقاتهم: فلبعضهم من الاعتراضات، والسقطات ما يعرفه الناقد البصير ٠

فكتاب (التمذهب) ثم بكتاب (الطهارة) ثم بكتاب (الصلاة) ثم بكتاب (سجود السهو إلى صلاة أهل الأعذار) ثم بكتاب (صلاة أهل الأعذار إلى الزكاة) ثم بكتاب (الزكاة فالصوم) ثم بكتاب (الحج) ثم بكتاب (الجهاد) ثم بكتاب (البيع الى الصلح) ثم بكتاب (الصلح إلى الوقف) ثم بكتاب (الوقف إلى كتاب النكاح) ثم بكتاب (النكاح) ثم بكتاب (الطلاق) ثم بكتاب (الظهار إلى قتال أهل البغي) ثم بكتاب (قتال أهل البغي إلى الاقرار) ثم (بترجمة شيخ الاسلام وذكر ما بلغنا من كتبه) . (وفهرس جميع ما جمعته من فتاويه) مرتبة على ترتيب تلك الكتب ، فالأبواب .

وبحيث أن كثيراً من المسائل تشتمل على فنون : قصداً كان أو تأصيلا أو تمثيلا ، أو استطراداً ، أو غير ذلك ، ولا يحسن فصل ما يلتحق بكل كتاب ووضعه فيه ، فبفهرس كل مسألة من تلك المسائل ، وجعله مع ما فى معناه من فهارس تلك الكتب ،تحصل مراجعة كل مسألة من فتاويه فى فنها ، ويسهل الاطلاع على تلك الفتاوي جميعها من هذا الفهرس الشامل لكل كتاب ، ولما يلتحق به من الأبحاث فى غيره من تلك الكتب ، والله الموفق لا إله غيره ، ولا رب سواه .

عبد الرحمن بن قاسم



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى خلقنا للعبادة ، وجعل الايمان به وإخلاص العمل له قطب السعادة ، وأقام البراهين على تفرده بابداع العالم وتصريفه بكمال العلم والقدرة والارادة ، وأخبر أن لهذا الكون نشأة أخرى ـ بعد الفناء ـ واعادة .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له فى أسمائه الحسنى والصفات ، وجميع التشريعات .

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله : الذي أكمل الله به الدين ، وبعثه بأكمل المناهج والطرق للناس أجمعين . صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه : الذين فتحوا مغلق الكتاب والسنة . وأحكموا المعتقد والفرض والسنة ، وبرّزوا فى فقه الشريعة وحازوا من الفضائل والمعالى الغاية والقمة . وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين .

وبعـد : فأرى من واجبي ــ وأنا أشارك فى تقديم هذه « المجموعة القيمة » والثروة العلمية الواسعة الكبرى : للامام المعظم ، والحبر المفهم ، محيي سنن المرسلين ، وقامع حزب الطغام والمبتدعين ، تقي الدنيا والدين : « شيخ الاسلام أحمد بن تيمية الحراني » قدس الله روحه . أرى من واجبي ــ أن أقدم

إلى القراء والبـــاحثين « كلمة موجزة » فى بيان ما تتألف منه هذه « المجموعة العمومية » وقصة « جمعها » و « ترتيبهـا » و « الجهود » التى قام بها فضيلة والدي ــ الموفق ــ فى ذلك ، وذكر « المـكاتب » التى احتفظت بالمخطوطات ، ونسخت ؛ أو صورت منها ، و « أرقام تلك المخطوطات » و طريقة «التصحيح» و « الفهرس » و « معظم المطبوعات » التى أدخلت فيها ، و « الأيدي البيض » التى كان لهـا أثر بارز فى إخراج هذا التراث الاســلامي العظيم الخـالد إلى الوجود فأقول :ــ

(ما تتألف منه المجموعة الجديدة)

تتألف هذه المجموعة القيمة ــ أو هذا المجموع ــ من « فتاوى » ــ وهي الأكثر ــ ومن « كتب » و « رسائل » و « نقول » بلغ عدد مجـلداتها « أربع وثلاثون مجلداً » « قسم » منها مطبوع : عدد صفحاته (٧٠٠٠) تقريباً و « قسم » لم يسبق له طبع ؛ بل كان مخبوءاً فى زوايا المـكاتب العامة ، أو الخاصة فالمخطوطات ــ التى لم يسبق لها طبع ــ أكثر من الثلث فى هذا المجموع.

(الشروع فى الجمع ــ من نجـــد)

بدأ فضيلة الوالد ــ بارك الله فى أوقاته ، ونفع الاسلام والمسلمين بمجاميعه ومؤلفاته ، بدأ ــ فى جمعها فى الوقت الذي ندرت فيه « حركة الجمع ، والتأليف فى نجد » أي : بعد سنة (١٣٤٠ هـ) أثناء تفتيشه عن « فتاوى علماء نجد » فوجد عند الشيخ « محمد بن عبد اللطيف » رحمه الله : نحو ثلاثة مجلدات ــ وهو أكثر

من وجد عنده الفتاوى ؛ وكان رحمه الله تعالى معتنياً بمؤلفات شيخ الاسلام وأئمة الدعوة ، ومكتبته موجودة الآن ــ وبحث الوالد ، وفتش : فى « المخطوطات » الموجودة عند المشائخ ، وطلاب العلم ؛ كما سافر وراسل من قدر له الاتصال به فى نجد . وكانت نجد ، ولا زالت ــ بحمد الله ــ اسعد الأقاليم بالانتفاع بمؤلفات شيخ الاسلام ، وتداولها ، وتدريسها .

﴿ فى الحجــاز ﴾

ولما باشر تصحيح « فتاوي أئمة الدعوة النجديين » ــ فى مكة المكرمة ــ فتش فى المخطوطات الموجودة « بمكتبة الحرم المكي » فاستخرج منها عدداً من المسائل ؛ كما تحصل على مسائل من بعض العلماء الأفاضل .

﴿ الشروع فى الترتيب ﴾

بعد أن جمع ما تيسر له من المخطوطات أشار عليه حضرة صاحب السماحة المفتى الأكبر للمملكة السعودية « الشيخ محمد بن ابراهيم » بأن يضم الموجود من المخطوطات الى المطبوعات ، ويرتب الجميع على حسب الفنون ، وعلى ترتيب أبواب الكتب المتداولة بين العلماء والطلاب : لتسهل المراجعة ، ولا سيما على من قل إلمامهم بمؤلفات هذا الامام .

سارع الى قبول هذا الارشاد ، وشرع فى الترتيب وجعل «قسما فى الفقه » مرتباً على ترتيب « كتب المتأخرين » من فقهاء المذهب الحنبلى : كزاد المستقنع وشرحه « وقسماً فى أصول الدين » يشمل العقائد وما يتصل بها و « قسما

فى تفسير القرآن » و « قسما فى المنطق » و « قسما فى الحديث » وما وجد من المسائل مشتملا على بحثين فى فنين فأ كثر ، أو فى بابين من فن واحد ـ ينفصل أحدهما عن الآخر بدون إخلال بالمعنى ـ فصل أحدهما عن الثانى ونسخه فى صحائف أو صحيفة مستقلة ، وألحقه بموضعه المناسب له . فنسخ بيده مسائل كثيرة ، واستنسخ بعضاً ؛ فأصبح مجموع المخطوطات والمطبوعات بعد الترتيب نحواً من عشرين مجلداً ؛ ثم كلما طبع شيء من الفتاوي ألحقه بها . واستفاد من هذا الجمع أن اطلع على ترجيحات « شيخ الاسلام » واستدلاله ، وحكايته الاجماع ، والخلاف ، وغير ذلك ؛ فأضاف الوالد ذلك الى مؤلفاته ، فأ كتسبت ميزة ، وصبغة تحقيق : بسبب عمله المبارك فى هذا المجموع .

وسمع فضيلته ـ من بعض رواد المكاتب ـ بوجود مسائل لشيخ الاسلام فى « دار الكتب المصرية » فلذلك أجل طبعها ؛ فتجمدت ـ ما شاء الله لها أن تتجمد ـ ثم عزم على السفر الى مصر سنة (١٣٦٥) فلم يتيسر له .

﴿ الرحلة الأولى لجمع الفتاوى ﴾

فى سنة (١٣٧٢) سافر الوالد الى « بيروت » للعلاج ؛ ولما استكمل الفحوص الطبية ، وأجرى بعض العمليات ـ التى لم تنجح ـ توجه الى « مكتبة بيروت العمومية » ـ وكان حازما ـ فقد استصحب ما جمعه سابقاً من الفتاوى ، وفهرساً خاصاً بها ـ وكنت معه فى سفره ، ففتشنا فيها فلم نجد مسائل

لشيخ الاسلام ، ويذكر أن ما كان فيها من « المخطوطات » قد نقل لاحدى الدول منذ زمن طويل ؛ ثم فتش فى « مكتبة الجامعة الأمريكية » فلم يجد فيها شيئاً .

﴿ قصة جمع الفتاوى والكتب من الشام ﴾

كان حضرة الوالد مستصحباً ورقة تحمل أرقاماً لثلاث مسائل فى « المكتبة الظاهرية » ذكرها له بعض من زار المكتبة من العلماء الفضلاء ؛ فأمرنى بالسفر إلى « دمشق » لنسخها — مع ما كان يقاسي من شدة المرض ومواصلة العلاج — وصلت الى دمشق ، وشرعت فى النسخ ، وفى وقت اشتغالى بالنقل من « كتاب الكواكب الدراري » كنت أتصفح المجلد فأجد فيه مسائل ، ونقولا عن « شيخ الاسلام » استغربها ، واستعذبها : ولا أعلم وجودها فيما جمع ؛ فأخذت أتابع المطالعة والتصفح لجميع الموجود فيها من « الكواكب الدراري » — وهو بضع وأربعون مجلداً — فاذا أنا أفاجأ بالمسائل الكثيرة النفيسة معاً ، ففرحت فرحاً عظيماً بالتوفيق للعثور على هذه الكنوز العلمية ، وشجعنى ذلك على الاستمرار فى التصفح والتفتيش ؛ وربما شككت فى فقد بعض المسائل فأراجع فهرس المسائل التى جمع الوالد ، وأضيف ما تجدد الى ما يشا كله من الفتاوى فى الفهرس ، واحتفظ بأرقام ما كان موجوداً :رجاء أن تتيسر — يوماً ما — مقابلة الموجود على هذه المخطوطات القديمة .

ثم تصفحت « المجاميع » وهي تزيد على (١٥٠) مجموعة ، وقد اشتملت

على مسائل ونبذ لا توجد فى غيرها ، وهي بخطوط قديمة ؛ وفيها من خط شيخ الاسلام بيده ما يزيد على (٨٥٠) صحيفة .

ومن تلك المجاميع «مجموعة[1] مسودة» كلها بخطه ، لا يوجد شيء منها فى المكاتب ، ولا غيرها . عدد صفحاتها : (٦٦٤) . تشتمل أقل صفحة منها على (٢٠) سطراً ، ومتوسطها على (٢٧) . وفيها ما يشتمل على (٧٥) . فى كل سطر من خمس عشرة كلمة ـ غالباً ـ إلى عشرين . وكثير من صفحاتها محشي عليه بخط المؤلف أيضاً من بعض الجوانب ، أو الجوانب الأربع . يتألف منها لو طبعت مفردة «أربعة مجلدات أو خمسة» فيها بياضات : بعضها مخل بالمعنى ، وبعضها غير مخل . وقد جنى عليها المجلد بقصه ما زاد من الأراق عن معظم صفحات الكتاب ، فأسقط بذلك كثيراً من الحواشي ، وأواخر الأسطر ، واعلى الصفحات ، واسفلها . وقد حرص الناسخ على ان يذكرها كما هي .

تمتاز هذه « المجموعة » بغزارة المعانى ، وندور بعض الأبحاث : عما فى مؤلفاته الأخر : وتشتمل على كثير من فنون العلم ، وهي احسن خطه ـ رحمه الله ـ .

وفى بعض «المجاميع الأخر» صفحات من خطه بعضها متصل وبعضها دشت .

---

(١) فى المجلد الاول منها (الخطبة) و (اهدنا الصراط المستقيم) (فصل فى أن لا يسأل العبد الا الله) (سمى الله الهتهم) (الشفاعة ا فية) (قد ذكرت فيماتقدم) « وفى المجلد الثانى منها ـ وهو كتاب توحيد الربوبية والرد على اهل وحدة الوجود ـ من صفحة (١) الى (١٠٤) .

وبعد إكمال المجاميع تصفحت كل كتاب لم يذكر مؤلفه ، اوله حاشية ؛ فوجدت فى ذلك عدداً غير قليل من المسائل . ثم فتشت «الدثوت» التى فى المكتبة فتحصلت على مسائل ونواقص فى بعض المسائل . كانت مدة التصفح والتفتيش ستة اشهر لما يقارب (٩٠٠) مجلد من (١٢٠٠٠) مجلد مخطوط .

مجموع ما فيها إجمالا (٥٨٠) صفحة من خط شيخ الاسلام بيده — كما تقدم — واكثر من (٣٥٣) ما بين فتوى ونبذة ونقل — وكل هذا لم يطبع فيما قد طبع سابقاً من فتاويه ومؤلفاته — ؛ وآلاف الصفحات التى يستعان بها فى التصحيح .

﴿ ارقام المخطوطات فى المكتبة الظاهرية ﴾

(ارقام الكواكب)

١٥١/٥٨٠ ١٥١/٥٧٠ ١٥١/٣٧٦ ١٥١/٥٧٥ ١٥١/٥٣٤ ١٥١/٥٧٢ ١٥١/٥٦٨

١٥١/٥٦٩ ١٥١/٥٥٢ ١٥١/٥٦٣ ١٥١/٥٣٧ ١٥١/٥٣٩ ١٥١/١٨١ ١٥١/٥٥٣

١٥١/٥٧١ ١٥١/٥٤٨ ١٥١/٥٦٠ ١٥١/٥٦٢ ١٥١/٥٥٩ ١٥١/٥٥٤ ١٥١/٥٦٥

١٥١/٥٦٤ ١٥١/٥٨٧

(ارقام المجاميع ، وغيرها)

٦٣ ٩١ ١٣١ ١٠٩ ٩٩ ٣ ٥ ١٨ ٣٣ ٣٤ ٤٧ ٦١ ٧٢
١٣٨ ١٣٩ ٦٩ ٤٠

فقه حنبلى ١٠ ٣ ٤ ٦٨ ٦٩ ٦٧

ارقام العام ٤٤٢٤ ٥٩٣٣ ٥٩٤٣ ٦٣٢٧ فقه شافعي ٣٧٤

(ما نقل من المكاتب الأهلية بدمشق)

لم أزل أتابع البحث والسؤال عن المكاتب الخاصة والتفتيش فيها فوجدت عند « الشيخ حسن الشطي » كتابين فى الوقف ــ ضمن مجاميع لشيخ الاسلام وغيره ــ وعند «محمد حمدي السفرجلانى» مسائل فى التراويح والامامة وغيرهما ــ وهي قديمة الخط جداً ــ وعند « أحمد عبيد وإخوانه» مسائل . تم تصويرها ؛ وهناك مكاتب أخر ؛ لكن لا يوجد فيها ما له صلة بغرضنا .

(فى حلب وحماة)

فى مكتبة الأوقاف بحلب مسائل صورتها ، وكثير من مخطوطاتها لم يكن مفهرسا فى حين زيارتى لها . وليس فى حماة شيء من ذلك .

(فى بغداد)

بعد أن تأكدت من الحصول على ما فى الشام ــ وطن شيخ الاسلام ،

ومؤلفاته ــ أحببت السفر إلى العراق لجمع الفتاوي من هذا القطر. فتحصلت بعد التفتيش على مسائل فى « مكتبة الأوقاف » فى بغداد اجتمع منها مجلد [1] وفيها « الرسالة التدمرية » كاملة بخط نعمان الآلوسي وقد ألحقنا ما فيها من الزيادات بالمطبوعة، وفى مكتبة « الألوسيين » كتب، ورسائل « لشيخ الاسلام » من جملتها « المجلد الربع من الدرر المضية » وهو مختصر الفتاوي المصرية، عدد صفحاته (٤٠١) لا يوجد هذا المخطوط فى الأقطار التى فتشنا فيها ــ مع أن ناسخه نجدي ــ ويشتمل على (٤٧٣) مسألة فى «الفقه» من كتاب الحج إلى الاقرار. وفتشت فى « مكتبة المتحف العراقى » أياما، وعند جماعات من فضلاء بغداد.

(أرقام المجاميع الموجودة فى مكتبة الأوقاف)

٦٤٥٤	٦٦٨٥	٤٧١٥	٧٠٧٣	٤٨٦٢	٣٥٤٤	٨٤٨٣
٦٩٠٢	٧١٤٣	٧٠٠٢	٦٨٩٨	٤٧٦٧.		

وكنت قد أزمعت السفر إلى البصرة، ثم الكويت، ثم تركيا، لكن صحة الوالد كانت متأخرة جداً وقد أقام ثمانية أشهر فى بيروت فاضطررت إلى الرجوع إليه ثم رجعنا إلى الوطن.

(الرحلة الثانية إلى القاهرة وباريس)

كان مما أدخره الله لشيخ الاسـلام: من إبراز مكنون علمه فى خزائن

(١) منه رسالة فى المجاز والحقيقة (١١٢) صحيفة، ورسائل فى القدر، وأفعال العباد، وغير ذلك.

الكتب الخارجية ، ومما خص الله به والدنا : من إكمال جمع الفتاوي على يديه ، ومن ثواب الصبر : أن جعل بقاء المرض سبباً للسفر المفيد ؛ فسافر إلى باريس عن طريق القاهرة، وصلنا القاهرة وقمنا بزيارة «دار الكتب المصرية» ثم تصفحنا ما فيها من المجاميع ، وما فيها من » الكواكب الدراری » فتحصل من الجميع مجلد متوسط : لم يكن موجوداً عندنا .

(أرقام الكواكب وأرقام المجاميع)

٦٤٥	٤٤٥	٥٥٣	٤٤٣	٤٩٦	٤٤٤	٣٦١	١٨٢	٢٠٤

(فی باريس)

بعد أن أجريت له عملية وتماثل للشفاء بحمدالله ــ عمدنا كعادتنا ــ إلى « مكتبة باريس الوطنية » فتتبعنا ما فيها من الفهارس ــ المطبوعة باللغة العربية ــ للمخطوطات الموجودة فی « باريس » و « لندن » و « برلين » و « فينا » وبعض فهارس مخطوطات «تركيا» وغيرها . تتضمن تلك الفهارس (١٣) مسألة فصورت فی تلك الرحلة وهي مما لم نعثر عليه فی الأقطار العربية .

أرقام المسائل المخطوطة فی برلين وفينا

٦٥٧٠	٢٣٠٩	٣٥٧٤	٣٥٧٥	٦٥٧١	٦٥٧٢	٤٠٤٧
٦٥٧٣	٣٥٧٧	٩٦٦٤	٣٥٧٠	٢ ٧١	٣٥٧٣	

وفی عودتنا من باريس ، إلى القاهرة ، فدمشق : أكملنا مطالعة فهرس «دار

الكتب المصرية » وشرع الناسخ فى نسخ المسائل. وصَوَّرْت ما فى « الظاهرية » — مما خطه شيخ الاسلام بيده — إلا أن بعض الصور غامضة ، والكتاب قديم ؛ لا يستطيع قراءته فى زمان المؤلف إلا أخص تلاميذه ، ولم يكن عندنا وقت للنسخ ؛ ولا للمقابلة ؛ إلا لبعض مسائل .

(الرحلة الثالثــة)

وفى سنة (١٣٨٠) أمر « جلالة الملك المعظم » حفظه الله وأثابه بطبع هذه الفتاوى . وأمر أيضاً أن يدفع من المبالغ ما تحتاج إليه هذه المجموعة لتجهيزها للطبع ، وما يحتاج إليه التصحيح . فابتعثت إلى « بغداد » لشراء « المجلد الرابع من الدرر المضية » واستنساخ المسائل الموجودة فى « مكتبة الأوقاف » وإلى « دمشق » للاتفاق مع نساخ مختصين — فى نسخ المخطوطات القديمة — ليقوموا بنسخ المصورات من خطه — رحمة الله عليه — وتصوير جميع المخطوطات الموجودة فى « المكتبة الظاهرية » لمقابلة المطبوعات. والمخطوطات عليها، وتصوير ما لم ينسخ سابقاً فصور ذلك كله وبلغ عدد « الأفلام » التى صورت فيها المخطوطات أكثر من (١٠) أفلام . كل فلم يتسع لألف ومئتى صفحة . كما وفقنا لتصوير كتابى الوقف الموجودين عند « الشطي » ؛ ولم تنسخ مصورات خط شيخ الاسلام فى الشام . فقمت بمساعدة الناسخ على ما استصعب عليه ؛ وأرجو أن لا يتعذر علينا شيء من خطه .

(طريقتنا فى التصحيح والفهرس)

كانت الأصول المخطوطة فى الظاهرية هي معظم الأصول التى حصلنا عليها

للمقابلة ، وأقدمها ، وأصحها ، ويوجد ضمن ما جمعه الوالد من نجد والحجاز «نسخ خطية» ، و«مطبوعات» قد طبعت على نسخ متعددة . فحصلت المقابلة على الأصول المذكورة ، وهذه الأصول ــ من حيث الجملة ــ تبين كثيراً من التصحيف الواقع فى بعض المطبوعات ، وبعض المخطوطات : الناشيء عن كثرة الاستنساخ او جهالة بعض النساخ لبعض المعاني ، أو لبعض الخطوط القديمة . كما تبين سقطا قليلا فى مواضع ، وكثيرا فى مواضع اخر : مابين كلمات ، أوأحرف ، أو أسطر ، وأحيانا صفحات ، كما قد تبين زيادات من المؤلف على ما قد كتبه سابقاً .

وكنت أقوم بالتصحيح على هذه الأصول ، ويتولى الوالد الاشراف عليه ؛ كما أن بعض المسائل قد قابله الوالد فيما سبق .

وإنى لواثق ــ إن شاء الله تعالى ــ بأن هذه «الطبعة» ستكون أصح الطبعات ــ بالنسبة إلى ما قد طبع سابقاً ــ وأن « المخطوطات » ــ التى نقدمها اليوم للطبع ــ ستكون أصح المخطوطات : وذلك من أجل توفر الأصول للمقابلة ، ومراجعة بعض مؤلفاته الأخرى فى بعض ما يشكل ، وقد أعانى على ذلك أيضاً سبق مطالعات متكررة فى « مصنفات شيخ الاسلام » ودراستى على شيخ الجميع « العلامة الشيخ محمد بن ابراهيم » ــ المشرف العام على طبع هذا المجموع وصاحب الرأي الأصيل والعلم النافع الكثير ــ ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وإنا لنعتذر إلى القراء ــ لضيق ظروفنا ــ عن عدم التنبيه على بعض ما قد

يستشكله القراء ، وترك تخريج بعض الأحاديث ، وذكر التراجم ، وأرقام الفتاوى المخطوطة والمطبوعة فى مجاميعها وكتبها على صفحات هذه الطبعة .

وقد ذكرت فى فهرس كل مجلد : عنوان الفتوى ، أو الكتاب . أو المسألة ، أو النقل ؛ ومن أين يبتدىء وينتهى ـ بالأرقام ـ ثم ما فى ذلك من الأبحاث ـ بعبارة تقرب البحث للقارىء ـ ليطلع متصفح الفهرس على ما فى المجلد من الأبحاث الأساسية ـ بالنسبة إلى ذلك المجلد ـ والاستطرادية أيضاً ، وسيوضع فهرس عام بعد إكمال طبع المجلدات : تذكر فيه مسائل كل مجلد ، ويوضع مع كل «مسألة» أرقام صفحات الأبحاث التى جاءت استطرادية فى المجلدات الأخرى ـ وهي مجانسة لتلك المسألة ـ ليحصل القارىء بسهولة على البحث المجموع : والبحث المتفرق ـ فى هذه الفتاوى ـ فى موضع واحد من الفهرس العام الأخير .

(أسماء الكتب والمجاميع والفتاوي المطبوعة سابقاً)
(التى احتوى عليها هذا المجموع)

« التوسل والوسيلة » « التدمرية » « الواسطية » « الحموية » « المدنية » « مجموعة الرسائل والمسائل المنيرية » « مجموعة الرسائل والمسائل » « رأس الحسين » « السياسة الشرعية » « الجواب الباهر » « تفسير سورة سبح » « القواعد النورانية » « نظرية العقد » « مجموع ابن رميح » « نقض المنطق » « مختصر نصيحة الاخوان عن منطق اليونان » « الماردينيات » « كتاب الايمان » « شرح حديث أبى ذر » « شرح حديث النزول » « بيان الهدى من الضلال فى أمر الهلال » « الفتاوى

المصرية » « مناسك الحج » « أربعون حديثاً » « بعض شذرات البلاتين » « الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان » « مجموعة الرسائل والمسائل وفتاوى شيخ الاسلام » « تفسير سورة الاخلاص » « جواب أهل العلم والايمان » « من فتاوى شيخ الاسلام» «التحفة العراقية» «مقدمة التفسير» « الصوفية والفقراء » «تفسير سورة النور» «تفضيل مذهب أهل المدينة » « القبرصية» «قصيدة القدر» « نقد مراتب الاجماع » « الأفعال الاختيارية » . وهناك فتاوي ، ونبذ اخر مطبوعة لم تشتهر باسماء ـ ضمت إلى هذا المجموع سيجدها القارىء إن شاء الله تعالى .

وللعلامة « ابن القيم » (رسالة) مطبوعة فى بيان مؤلفات شيخ الاسلام رحمة الله عليهما جميعاً .

(الأيدي البيض لجلالة الملك)

المفروض والواقع أن مشروعا أو موسوعة كهذه « المجموعة العلمية الضخمة » لا تتم إلا بجهود عظيمة ، ولا يستطيع القيام بطبعها ، إلا ثروة وافرة ، أو دولة .

كان « جلالة الملك سعود المعظم » حفظه الله يعلم ذلك ، ويعلم قيمة « مصنفات شيخ الاسلام وفتاويه » ويقدرها ، ويسارع فى طبع مؤلفات المحققين من العلماء . لذلك أصدر أمره الكريم فى سنة (١٣٧٤) بطبع هذا المجموع ـ لما ذكر الوالد لجلالته ما يحتوى عليه من مخطوطات نفسية وترتيب مفيد ـ فاعتذر الوالد عن تقديمه للطبع بأن فى مصر مسائل لم يتيسر الحصول عليها ـ كما تقدم ـ

وبعد ان تيسر جمع ما فى مصر ، واروبا — وعلم جلالته بالعزم على الطبع — اصدر امره الكريم ثانياً بالأمر بطبعها ؛ وقدرت تكاليف طبع «خمسة الآف نسخة» من كل مجلد، وتجهيز الكتاب للمطبعة بمبلغ يزيد على «مليون ريال» فأمر بدفع ذلك فنرجو الله جل شأنه ان يثيبه على هذه اليد البيضاء والعمل الجليل فى نشر علوم الاسلام .

ونسأل الله ان يوفقنا وجميع المسلمين للعمل بما علمنا وان يهب لنا من لدنه رحمة انه هو الوهاب .

والحمد لله ، وصلى الله على خيرته من خلقه محمد وآله وصحبه وسلم .

محمد بن عبد الرحمن بن قاسم
استاذ في « معهد امام الدعوة » بالرياض



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا للاسلام ، وأنار بصائر من كتبت لهم السعادة فاهتدوا بهدى القرآن واتبعوا سنة خير الأنام ، والصلاة والسلام على خير من حمل منار الهداية للعالمين ، وجاءنا بهذا النور المبين . فأظهر الحجة ، وأبان المحجة . فكان لنا شريعة كاملة تامة ، بيضاء ناصعة ، ليلها كنهارها : لا يخرج عليها إلا كل ضال ممن أعمى الله بصيرته ، وأبعده عن طريق الحق والصراط المستقيم .

أما بعد فهذا « كتاب جامع » من آثار العالم العامل ، والحبر الكامل (شيخ الاسلام تقي الدين بن تيمية) ، جمعه العالم الفاضل الباحث « الشيخ عبد الرحمن بن قاسم » وأعانه عليه ابنه « محمد بن عبد الرحمن بن قاسم » من مؤلفات ابن تيمية . ومعلوم من تاريخ « شيخ الاسلام بن تيمية » عليه رحمة الله ــ أنه عاش فى عصر امتلأ بالأحداث : حيث تكاثرت عوامل لطمس معالم الاسلام بظهور أهل الضلال والبدع ، وانتصار بعض القوى لهذه الضلالات ، فقيض الله لهذه الأمة هذا الرجل الفذ : الذي فقه الاسلام وعرفه : فقه حقيقة التوحيد ، كما فقه ماجل ودق من كل شيء جاء به الاسلام ، كما آتاه الله من العلم بكل ما كان عليه أهل البدعة والضلال . فقام مقاماً محموداً فى بيان حقيقة « الدين الاسلامي » و « الشريعة المحمدية » . وقارع أهل الباطل بالحجج العقلية والنقلية حتى أدال دولة الباطل ، وأعلى الله بفضله دولة الحق وأهله .

وكل من علم شيئاً من تاريخ « هذا الامام الجليل » يعلم ما لاقاه من مصائب ومحن فى سبيل بيان عقيدته : من حسد الحاسدين ، وكيد الكائدين ، فتفرق ما كتبه فى الأمصار ، ولما أراد الله نشر فضائل هذا العالم العظيم ـ ظهر فى قلب هذه الجزيرة العربية شيخ الاسلام « محمد بن عبد الوهاب » يدعو الناس دعوة الحق إلى عبادة الله وحده ، وقام بنصر هذه الدعوة المحمدية آل سعود حيث جاهدوا فى سبيلها .

ولما كان « شيخ الاسلام بن تيمية » من السابقين الذين دعوا تلك الدعوة المباركة فقد تنبه الناس إلى ما كتبه قدس الله روحه ، فأقبلوا يبحثون عن كنوز هذا البحر الزاخر من العلم ، فطبع من تلك المؤلفات جملة غير يسيرة ، وبقي الكثير مخبوءاً فى مدافنه ، فقيض الله ـ كما ذكرنا ـ لجمع ذلك التراث « الشيخ عبد الرحمن بن قاسم » وابنه « محمد بن عبد الرحمن » فرحلا لسائر « مكتبات العالم » تقريباً حتى اجتمع لديهم ما لم يجتمع لغيرهم من تلك المؤلفات ، وما أن وصل علم ذلك إلى حضرة صاحب الجلالة « الملك المعظم سعود » ـ حفظه الله وأبقاه ، وأعانه على طاعته ـ حتى بادر وأمر بطبع ما اجتمع من هذه الآثار على نفقته الخاصة ، ورصد لذلك مبلغ « مليون ريال » حتى إذا ما نفدت أمر باكمال نفقة الطبع ليخرج للناس هذه « المجموعة النفيسة القيمة » تفقه الناس فيما يصلح لأمر دينهم ودنياهم .

وسأترك المجال فى هذا الموقف للشيخ « عبد الرحمن بن قاسم » الذي

جمع لديه هذه المجموعة القيمة ليعرف الناس بحقيقتها . ولكن أحب أن أنتهز هذه الفرصة فأبدى شيئاً موجز التعريف من لم يعرف«شيخ الاسلام بن تيمية» ومنزلته من العلم .

وأني لمعترف أنه ليس بمقدوري من العلم والعرفان أن أحيط علماً كاملاً بحقيقة هذا « العالم الجليل » كما أن الوقت والمقام لا يتسع لهذا ؛ ولكن من مكنته الفرصة من دراسة هذا « السفر الجليل » سيعرف من هو « شيخ الاسلام بن تيمية » ؟!!

لقد آتى الله « ابن تيمية » من قوة الحفظ والوعي لما يحفظ : أكثر مما أعطاه لأي شخص عرفناه أو سمعنا عنه ، ولقد ذكر أستاذنا السيد « محمد رشيد رضا» عليه رحمة الله : فى أعقاب رسالة من الرسائل الكثيرة التى طبعها لشيخ الاسلام على نفقة جلالة الملك عبد العزيز ـ طيب الله ثراه ما نصه ـ « وأما قيمة هذا المجموع الدينية والعلمية فهي لا تقدر ، والتكرار فيه مفيد ؛ فان هذه التحقيقات الواسعة قلما يعيها أحد إلا إذا تكررت على ذهنه مراراً كثيرة .

« ومن الغريب أن هذه المسائل كان يكتبها « شيخ الاسلام » قدس الله روحه أو يمليها من غير مراجعة كتاب من الكتب ، وهي من الآيات البينات والبراهين الواضحات ، على أن هذا الرجل من أكبر آيات الله فى خلقه أيد بها كتابه الذي قال فيه (يهدى للتى هي أقوم) وسنة «رسوله» صلى اللهعليه وسلم ، وما كان عليه السلف الصالح من فهمها ، والاعتصام بها » .

« ويعلم من كل فتوى منها ــ بله جملتها ومجموعها ــ أنه رحمه الله تعالى ــ قد جمع من العلوم النقلية ، والعقلية ، والشرعية ، والتاريخية ، والفلسفية ، ومن الاحاطة بمذاهب الملل والنحل ، وآراء المذاهب ، ومقالات الفرق : حفظاً وفهماً ما لا نعلم مثله عن أحد من علماء الأرض ، قبله ولا بعده ، وأغرب من حفظه استحضاره إياها عند التكلم والاملاء أو الكتابة ، وأعظم من ذلك ما آتاه الله من قوة الحكم فى ابطال الباطل واحقاق الحق فى كل منهما بالبراهين النقلية ، والعقلية ، ونصر مذهب السلف فى فهم الكتاب والسنة على كل ما خالفه من مذاهب المتكلمين والفلاسفة وغيرهم (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » .

وقال أستاذنا السيد « رشيد رضا » عليه رحمة الله فى مكان آخر بعد طبع رسالة عرش الرحمن « لشيخ الاسلام » قال ما نصه :

رحم الله « شيخ الاسلام » وجزاه عن الاسلام والمسلمين خير الجزاء ، فوالله أنه ما وصل إلينا من علم أحد منهم ما وصل إلينا من علمه : فى بيان حقيقة هذا الدين ، وحقيقة عقائده ، وموافقة العقل السليم وعلومه للنقل الصحيح : من كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ بل لا نعرف أحداً منهم أوتي مثل ما أوتي من الجمع بين علوم النقل ، وعلوم العقل بأنواعها ؛ مع الاستدلال والتحقيق ، دون محاكاة وتقليد . اه .

وأمامي الآن وأنا أكتب هذه المقدمة الوجيزة « كتاب الرد على المنطقيين »

لابن تيمية : يقع فى خمسمائة وخمسة وأربعين صفحة ؛ والعِلْمَ مقدار ماوهب الله هذا الرجل من العلم : أنقل ماجاء فى وصف « ابن تيمية» نفسه لهذا المؤلف حيث قال : « أما بعد فاني كنت دائماً أعلم أن (المنطق اليوناني) لا يحتاج اليه الذكي ولا ينتفع به البليد ؛ ولكن كنت أحسب أن قضاياه صادقة لما رأيت من صدق كثير منها ؛ ثم تبين لى فيما بعد خطأ طائفة من قضاياه . وكتبت فى ذلك شيئاً ، ثم لما كنت فى الاسكندرية (وذلك سنة ٧٠٩ حيث حبس الشيخ ــ رحمه الله ــ فى سجن الاسكندرية) اجتمع إلى من رأيته يعظم المتفلسفة بالتأييد والتهويل ، فذكرت له بعض ما يستحقونه من التجهيل والتضليل ، واقتضى ذلك أنني كتبت فى قعدة بين الظهر والعصر من الكلام على « المنطق » ما علقته تلك الساعة ؛ ثم تعقبته بعد ذلك فى مجالس إلى أن تم ، ولم يكن ذلك من همتى : إنما همتى فيما كتبته عليهم فى « الالهيات » وتبين لى أن كثيراً مما ذكروه فى اصولهم فى « الالهيات » وفى « المنطق » هو من أصول فساد قولهم فى « الالهيات » مثلما ذكروه من تركيب الماهيات : من الصفات التى سموها ذاتيات . وما ذكروه من « الحدود ، والأقيسة البرهانيات » بل وفيما ذكروه من الحدود التى بها تعرف « التصورات ؛ بل ما ذكروه من صور القياس ومواده اليقينيات .

فأراد بعض الناس أن يكتب ماعلقته إذ ذاك من الكلام عليهم فى «المنطق» فأذنت فى ذلك لأنه يفتح باب معرفة الحق ؛ وإن كان ما فتح من باب الرد عليهم يحتمل أضعاف ما علقته تلك الساعة » . انتهى ما ذكره فى مقدمة كتابه عليه رحمة الله . ومن اطلع على ذلك الكتاب وقرأه بامعان وتفهم فانه يرى نفسه انه

لا يحتاج لقعدة بين الظهر والعصر لفهم تلك الصفحات التى أملاها ــ رحمه الله ــ فى ذلك الكتاب ؛ بل يحتاج لقعدات لفهم بعض تلك الصحف : ولكنه ــ كما قال الله تعالى ــ (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء) .

فلقد كان ــ رحمه الله تعالى ــ يغرف من بحــر من العلم فى تلك اللجة العويصة من دقيق المعاني ، حيث ذكر اقوال اهل «المنطق» من اليونان بنقل امين، ونقده نقد الخبير ، وعقب على ذلك بما زاده فى ذلك العلم أرباب الفكر من أمثال « الرازي » و « ابو حامد الغزالى » و « ابن سينا » وغيرهم ، فأقرهم على ما اصابوا ، ونقدهم فيما أخطؤا : ببيان يقر له العقل ، ويتفق مع النقل .

لم يكن شيخ الاسلام « ابن تيمية » مقتصراً على فن من الفنون العلمية ، بل كان بحراً فى سائر ما كان معروفا فى عصره فبعد علمه بما جاء فى الكتاب والسنة فقد كان عالماً بالفلك والرياضيات ، والجغرافيا ، والطب ، وغيرها من العلوم المنتشرة فى عصره . وكان يناقش كل أهل فن من تلك الفنون بعلم غزير . وكان أعلم بمذاهب أهل الباطل : من أهل الباطل أنفسهم ، وبهذا تمكن من الدخول إلى صميم دعاويهم حتى أبطلها بالعقل والنقل .

ولقد قال عنه « الحافظ المزي » : ما رأيت مثله وما رآى هو مثل نفسه ، ولا رأيت أحداً أعلم بكتاب الله وسنة رسوله ولا أتبع لهما منه .

وقال « القاضي أبو الفتح بن دقيق العيد » : لما اجتمعت بابن تيمية رأيت

رجلا كل العلوم بين عينيه يأخذ ما يريد ويدع ما يريد وقلت له ما كنت أظن أن الله بقي يخلق مثلك .

وقال الشيخ «ابراهيم الدقى» : إن«تقي الدين» يؤخذعنه ويقلد فى العلم . فان طال عمره ملأ الأرض علما . وهو على الحق . ولا بد أن يعاديه الناس لأنه وارث علم النبوة .

أقول . . وقد حصل للشيخ من الأذى ما توقعه له الشيخ الدقى فضرب ابن تيمية « المثل الأعلى » فى الصبر وتحمل الأذى فى سبيل الحق ، فكان سجنه مدرسة لجميع أهل الجرائم الذين وجدوا فى السجن فخرج أكثرهم وقد أبعدهم الله عن إجرامهم تائبين إلى الله داعين إليه .

وقال « رئيس القضاة بن الحريري » إن لم يكن ابن تيمية شيخ الاسلام فمن هو ؟! وقال فيه شيخ النحاة «أبو حيان» لما اجتمع به « ما رأت عيناي مثله »

وقال الحافظ « الزملكانى » : لقد اعطى ابن تيمية اليد الطولى فى حسن التصنيف . وجودة العبارة والترتيب . والتقسيم ، والتبيين ، وقد ألان الله له العلوم . كما ألان لداود الحديد ، كان إذا سئل عن فن من العلوم ظن الرائى والسامع انه لا يعرف غير ذلك الفن .

ومما وجد فى كتاب كتبه قاضي القضاة ابو الحسن « السبكي » إلى الحافظ « الذهبي » فى الشيخ « تقي الدين » ما صورته : واما قول سيدي فى الشيخ :

فللملوك متحقق كبر قدره، وزخارة بحره، وتوسعه فى العلوم الشرعية والعقلية، وفرط ذكائه واجتهاده، وبلوغـه فى كل ذلك المبلغ الذي يتجاوز الوصف، والمملوك يقول ذلك دائمـاً، وقدره فى نفسي اكبر من ذلك واجل، مع ماجمع الله له من الورع، والزهادة، والديانة، ونصرة الحق، والقيام فيه، لا لغرض سواه، وغرابة مثله فى الزمان بل ازمان.

اقول ... هذه نبذة وجيزة من اقوال بعض هؤلاء العلماء الأعلام فى هذه الشخصية الفذة والحجة البالغة ذكرتها ليعرف من لا يعرف عن هذا الامام شيئاً ما : ولأنبه على امر هام خليق بنا : بل واجب من واجباتنـا التنبه له فى هذه الأيام التي غزتنا فيه فى عقر دارنا مبادي، وآراء : لتخرجنا عن ملة « إبراهيم » « وموسى » « وعيسى »، ونبينا « محمد » صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين : ذلك ان قومنا وشبابنا حجبت عنهم حقيقة ما جاء به « الاسلام » من عقائد، ومبادىء، ونظم، واحكام ؛ وخفيت عليهم حكمها واسبابها ومسبباتها . وجاءهم اهل الباطل بمبادىء اخترعوها وزينوها وزيفوها : ولم يكن عند شبابنـا فى العالم الاسلامي من العلم بحقيقة ما جاء به الاسلام، وفقدوا فقه تلك البراهين الناصعة . وغاب فى بعض انحاء العالم فئة من رعاع القوم لا يملـكون قيطا ولا قطميرا : فلـكي يستحلوا ما بأيدى الناس اغروا سفاءهم فى اهل الحلم منهم ثم اخذوا يزينون تلك الأعمال ويصفونها بأنهامبادىء لمساواةالبشر وانصاف الفقيرمن الغني (كبرت كلمة تخرج من افواههم ان يقولون الا كذبا) وماراج باطلهم على بعض الشبيبةفى الأمصار : إلا لبعد الناس عن فهم حقيقة ما جاءت به الشريعة الاسلامية المطهرة من « قواعد،

واسس » هي اعلى ما وصل اليه التفكير البشرى فى الحق والعدل ، ورفعة شأن البشرية ــ ففي تلك المبادىء والأسس علو النفس البشرية ، ورفعها من الحضيض إلى اعلى عيين ، وهنالك العدالة الاجتماعية ، والعدل المطلق: الذى لا محاباة فيه ، ولا عدوان ، ولا غرابة فى ذلك فانها الشريعة المنزلة من رب السموات والأرض لسعادة عباده فى دنياهم وآخرتهم .

تلك الصورة الحقيقية للشريعة الاسلامية ، طمس الله بصائر عدد غير قليل عنها ، فانتهز شياطين الانس هذه الغفلة فغزوا وطننا الاسلامي بهذه المبادىء والمخترعات باسم « مصلحة الفرد والجماعة » ومن زار تلك البقاع التى قسرت على ذلك النوع من المبــاديء الجديدة يجد فيها من انين الناس المكبوت داخل صــدورهم لا يستطيعون له نقداً ، ولا يملكون لأنفسهم منه نجاة ولا ملاذاً . يقاسون الضيق والآلام ، وهم يرون اموالهم مسلوبة وحقوقهم مهضومة ، والسنتهم مغلقة ؛ ولــكن ابواق الباطل تطبل وتزمر ، والمــأجورين من الرعاع يصفقون ويهللون ، وبجانب ذلك السيوف المسلولة على رقاب من يعارض ؛ بل على اعناق من لم يظهر الرضى بمــا صنعوا ، وليت الذين يسمعون تلك الأبواق والطبول يرحلون إلى ديار (من بدلوا نعمة الله كفراً واحلوا قومهم دار البوار) ليروا كيف يعيشون ، وكيف يذوقون العذاب الأليم فيعتبروا بما حل بهم ، ويسألوا الله النجاة من الوقوع فى مثل ذلك الجحيم .

اقول . . ما تمكن اعداء الاســلام من العمل على طمس قلوب بعضهم

إلا لبعد المسلمين عن حقيقة فهم « الاسلام » واحكامه ، وشرائعه ، ومبادئه ، وما احوجنا لمثل « شيخ الاسلام بن تيمية » فى عصرنا هذا ليقارع تلك الأباطيل ويبين للناس حقيقة ما جاءهم من ربهم ، وليوضح لهم النعمة الكاملة التى وصفها الله تعالى فى كتابه (اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام ديناً) .

جهل كثير من شبابنا وعدد غير قليل ممن ادعوا العلم فينا ، جهل هؤلاء حقيقة ما انزل الله وسنه رسوله من مبادئ وآراء فاجتذبتهم زخارف اقوال الملاحدة والمارقين . وعكف الكثير على كتب اهل الضلال لأنهم صرفوا عن النور الوهاج بالبرق الخالب فتاهوا وضلوا .

لم يدرس الاسلام ومبادئه الصحيحة فى عصرنا هذا درساً حقيقياً واضحاً ، ولم ينشر بين الناس حكمة التشريع الاسلامي ، والقواعد التى بنى عليها كل حكم فيه ليعرف الناس الفرق بين ذلك النور الوهاج وبين البرق الخلب فى حالكات الظلم . فكل أمر من الأمور التى يحتاجها البشر فى امر دينهم ودنياهم جاء بها الاسلام بما يكفل للجميع السعادة والهناء ، وليس وراء السعادة التى ينشدها الاسلام للبشر سعادة فى دنيا وآخرة ، يقول هذا من فقه حقيقة « العقائد الاسلامية ، وشرائع الاسلام » وينكر هذا من جهل الاسلام ومبادئه « ومن جهل شيئاً عاداه » .

وماعرفنا فى تاريخ العلم الاسلامي رجلا آتاه الله من فهم مبادىء الاسلام

وحقائقه ما آتي الله « ابن تيمية » فقد فقه كل شيء جاء به الاسلام كما فقه علوم عصره ، ولذلك تجد بين مؤلفاته الكثيرة الجمة من العلم والبيان والحقائق ما لا تجده فى كتب غيره من العلماء .

وواجبنا اليوم هو دراسة ما كتبه هذا « الرجل العظيم » فى كل شأن من من الشئون ، ووضعه بالشكل الذي يلفت إليه الأنظار ، ويقربه من الأفهام ، ليعكف شبابنا على فهم تلك المبادىء لتكون حرزاً لهم يتحصنون به ضد « الغزوات الأجنبية » التى لا تحمل معها إليهم إلا السم الزعاف ، والشقاء فى فى الدنيا ؛ وعذاب الله بعدها أشد وأبقى .

لقد قيض الله فى هذه البلاد المقدسة جلالة الملك « سعود بن عبد العزيز » ملك المملكة العربية السعودية » وحبب إليه السعي لخدمة الاسلام ونشر الدعوة الاسلامية ، وأمر حفظه الله بانشاء « جامعة اسلامية » فى « المدينة المنورة » تعلم الناس دين الاسلام لنشره فى الأمصار ، وكان من افضال الله على جلالته وعلى المسلمين أن تهيأ السبيل لجمع مؤلفات « ابن تيمية » قدس الله روحه فى هذه المجموعة القيمة ، فكان واجباً علينا أن نستفيد من هذه الفرص المواتية فنكلف إدارة « الجامعة الاسلامية » أن تخصص لجنة خاصة فى الجامعة تعكف على دراسة كل فن من الفنون التى كتبها « ابن تيمية » وتقرد لها باباً معيناً ، وتلقى فيها محاضرات فى مجالس متتالية ، وتعمل على نشر ذلك حتى يعلم الناس حقيقة المبادىء التى جاء بها الاسلام ، فان الذي كتبه هذا العالم العظيم فيه من العلم والفوائد ما لا يمكن حصره.

وخذ لك مثلا على ذلك.. فهذا كتابه الذي سماه « اقتضاء الصراط المستقيم، فى مخالفة أهل الجحيم » جعل للمسلم صفات تجعله المثل الأعلى فى كل ما يتطلب لكمال البشرية، وقد جعل من المسلم ـ بما كلفه الاسلام به، وما اعطاه له من حقوق ـ فى الذروة العليا التى لايضاهيه فيها إلا من سار فى طريقه وإذا قرأت ذلك الكتاب بتفهم وتمعن رأيت ان ما اراده « هتلر » للفرد الألماني فى كتاب « كفاحي » ليس بشيء بجانب الشخصية التى أرادها الاسلام للمسلم واوضحها ابن تيمية فى كتابه « اقتضاء الصراط المستقيم » وهناك فرق كبير بين الشخصية التى تتميز عن الأفراد بأسماء ومبادي عنصرية، وكأنها آلة صماء، وبين الشخصية المتميزة بكمال الأخلاق، وعلو النفس بما يسوقها إلى اعلى عليين.

تلك العقيدة من الاسلام والايمان واخلاص العبادة لله وحده، وتلك المباديء والشرائع، والتى اوضح «ابن تيمية» كل اصل من اصولها، وبين كل فرع من فروعها، هي التى يجب علينا ان ندرسها ونفهمها وهي التى يجب ان نلقنها بنينا، وينبغي ان نتحصن بها، ونجعلها درعا ندخل المعارك لنقاتل الغزاة الذين دخلوا عقر دارنا فقاتلونا فى الشوارع والأزقة، ودخلوا علينا عرصات بيوتنا، فاذا لم نقم قومة رجل واحد لتحصيل هذا العلم الصحيح. ونقرع الحجة بالحجة ـ وهي حاضرة بين ايدينا ـ سقطنا سقوطاً لا قيامة لنا بعده.

من اجل ذلك كله اناشد كل مسلم، ورجال الدين والعقل فى هذه الأمة ان نفزع إلى هذا « التراث » الذي جاءنا من عند الله وبلغنا إياه رسوله، لنفهمه

حق الفهم وتتخلق به ، لعلنا نصون ما بقي لنا ونرد الضالين منا ليرتووا من بحر هذه الشريعة المطهرة ، وتلك المبادىء التى ستظل ابد الدهر النبراس الصحيح للسعادة البشرية .

قال جل ثناؤه : (افمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا اهواءهم) وقال تقدست اسماؤه (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله اضل اعمالهم . والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم واصلح بالهم) .

(ربنا آمنا بما انزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين) .

يوسف ياسين



كتاب

تَوْحِيدُ الأُلُوهِيَّةِ



بسم الله الرحمن الرحيم

قال شيخ الإسلام أحمد بن تيمية
قدس الله روحه

بسم الله الرحمن الرحيم

(الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) العالم بما كان وما هو كائن وما سيكون الذى : (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، الذى يخلق ما يشاء ويختار ماكان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون ، وهو الله لا إله إلا هو له الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون) ، الذى دل على وحدانيته فى الهيته أجناس الآيات ، وأبان عله لخليقته ما فيها من إحكام المخلوقات ، وأظهر قدرته على بريته ما أبدعه من أصناف المحدثات ، وأرشد إلى فعله بسنته تنوع الأحوال المختلفات ، وأهدى برحمته لعباده نعمه التى لا يحصيها إلا رب السموات ، وأعلم بحكمته البالغة دلائل حمده وثنائه الذى يستحقه من جميع الحالات ، لا يحصى العباد ثناء عليه بل هو كما أثنى على نفسه لما له من الأسماء والصفات ، وهو : المنعوت بنعوت الكمال وصفات الجلال التى لا يماثله فيها شىء من الموجودات ، وهو : القدوس السلام المتنزه أن يماثله شىء فى نعوت الكمال ، أو يلحقه شىء من الآفات ، فسبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً . (الذى خلق

السموات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك وخلق كل شيء فقدره تقديرا .

أرسل الرسل مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيما ، مبشرين لمن أطاعهم بغاية المراد من كل ما تحبه النفوس وتراه نعيما ؛ ومنذرين لمن عصاهم باللعن والإبعاد وأن يعذبوا عذاباً أليما ، وأمرهم بدعاء الخلق إلى عبادته وحده لاشريك له مخلصين له الدين ولو كره المشركون . كما قال تعالى : (ياأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إنى بما تعملون عليم ، وان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون) : وجعل لكل منهم شرعة ومنهاجاً ليستقيموا إليه ولا يبغوا عنه اعوجاجاً .

وختمهم بمحمد صلى الله عليه وسلم أفضل الأولين والآخرين ، وصفوة رب العالمين ، الشاهد البشير النذير الهادى السراج المنير الذى أخرج به الناس من الظلمات إلى النور ، وهداهم إلى صراط العزيز الحميد . (الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض وويل للكافرين من عذاب شديد) . بعثه بأفضل المناهج والشرع ، وأحبط به أصناف الكفر والبدع ، وأنزل عليه أفضل الكتب والأنباء ، وجعله مهيمناً على مابين يديه من كتب السماء .

وجعل أمته خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله ، يوفون سبعين أمة هم خيرها وأكرمها على الله . هو شهيد عليهم وهم شهداء على الناس فى الدنيا والآخرة بما أسبغه عليهم من النعم الباطنة والظاهرة ، وعصمهم أن يجتمعوا على ضلالة إذ لم يبق بعده نبي يبين مابدل من الرسالة وأكمل لهم دينهم وأتم عليهم نعمه ورضى لهم الاسلام ديناً ، وأظهره على

الدين كله إظهاراً بالنصرة والتمكين وإظهاراً بالحجة والتبيين ، وجعل فيهم علماءهم ورثة الأنبياء يقومون مقامهم فى تبليغ ما أنزل من الكتاب ، وطائفة منصورة لا يزالون ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم إلى حين الحساب.

وحفظ لهم الذكر الذى أنزله من الكتاب المكنون كما قال تعالى : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) . فلا يقع فى كتابهم من التحريف والتبديل كما وقع من أصحاب التوراة والإنجيل .

وخصهم بالرواية والإسناد الذى يميز به بين الصدق والكذب الجهابذة النقاد ، وجعل هذا الميراث يحمله من كل خلف عدو له أهل العلم والدين ؛ ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين لتدوم بهم النعمة على الأمة ، ويظهر بهم النور من الظلمة ، ويحيي بهم دين الله الذى بعث به رسوله ، ويبين الله بهم للناس سبيله ، فأفضل الخلق أتبعهم لهذا النبي الكريم المنعوت فى قوله تعالى : (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم) .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له : رب العالمين ، وإله المرسلين ، وملك يوم الدين .

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله إلى الناس أجمعين : أرسله والناس من الكفر والجهل والضلال ، فى أقبح خيبة وأسوإ حال . فلم يزل صلى الله عليه وسلم يجتهد فى تبليغ الدين وهدى العالمين وجهاد الكفار والمنافقين ، حتى طلعت شمس الإيمان ، وأدبر ليل البهتان ، وعز جند الرحمن ، وذل حزب الشيطان ، وظهر نور الفرقان ، واشتهرت تلاوة القرآن ، وأعلن بدعوة الأذان ،

واستنار بنور الله أهل البوادى والبلدان ، وقامت حجة الله على الانس والجان ، لما قام المستجيب من معد بن عدنان صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان، صلاة يرضى بها الملك الديان وسلم تسليما مقرونا بالرضوان .

أما بعد : فإنه لاسعادة للعباد ، ولا نجاة فى المعاد إلا باتباع رسوله . ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم . ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين . فطاعة الله ورسوله قطب السعادة التى عليه تدور ، ومستقر النجاة الذى عنه لا تحور .

فإن الله خلق الخلق لعبادته كما قال تعالى : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) . وإنما تعبدهم بطاعته وطاعة رسوله ، فلا عبادة إلا ما هو واجب أو مستحب فى دين الله ، وما سوى ذلك فضلال عن سبيله . ولهذا قال صلى الله عليه وسلم : « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد » أخرجاه فى الصحيحين ، وقال : صلى الله عليه وسلم فى حديث العرباض بن ساريه الذى رواه أهل السنن وصححه الترمذى « انه من يعش منكم بعدى فسيرى اختلافا كثيراً فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة» . وفى الحديث الصحيح الذى رواه مسلم وغيره انه كان يقول فى خطبته « خير الكلام كلام الله وخير الهدى هدى محمد وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة » .

وقد ذكر الله طاعة الرسول واتباعه فى نحو من أربعين موضعاً من القرآن ، كقوله تعالى : (من يطع الرسول فقد أطاع الله) ، وقوله تعالى :

(وما أرسلنا من رسول الا ليطاع بإذن الله . ولو انهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما ، فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما) . وقوله تعالى : (وأطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين) . وقال تعالى : (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم) . فجعل محبة العبد لربه موجبة لاتباع الرسول ، وجعل متابعة الرسول سبباً لمحبة الله عبده . وقد قال تعالى : (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ؟ ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا) . فما أوحاه الله إليه يهدى الله به من يشاء من عباده ، كما أنه صلى الله عليه وسلم بذلك هداه الله تعالى كما قال تعالى : (قل إن ضللت فإنما أضل على نفسى وإن اهتديت فبما يوحى إلى ربى) . وقال تعالى : (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم) .

فبمحمد صلى الله عليه وسلم تبين الكفر من الإيمان ، والربح من الخسران والهدى من الضلال ، والنجاة من الوبال ، والغى من الرشاد ، والزيغ من السداد ، وأهل الجنة من أهل النار ، والمتقون من الفجار وايثار سبيل من أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، من سبيل المغضوب عليهم والضالين.

فالنفوس أحوج الى معرفة ما جاء به واتباعه منها الى الطعام والشراب ، فان هذا إذا فات حصل الموت فى الدنيا . وذاك إذا فات حصل العذاب .

فحق على كل أحد بذل جهده واستطاعته فى معرفة ما جاء به وطاعته ، إذ

هذا طريق النجاة من العذاب الأليم والسعادة فى دار النعيم . والطريق الى ذلك الرواية والنقل . إذ لا يكفى من ذلك مجرد العقل . بل كما أن نور العين لا يرى إلا مع ظهور نور قدامه ، فكذلك نور العقل لا يهتدى إلا إذا طلعت عليه شمس الرسالة . فلهذا كان تبليغ الدين من أعظم فرائض الإسلام . وكان معرفة ما أمر الله به رسوله واجبا على جميع الأنام .

والله سبحانه بعث محمدا بالكتاب والسنة ، وبهما أتم على أمته المنة . قال تعالى : (ولأتم نعمتى عليكم ولعلكم تهتدون . كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون ، فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون) . وقال تعالى : (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة) . وقال تعالى : (واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به) . وقال تعالى : (هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة) . وقال تعالى عن الخليل : (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم) . وقال تعالى : (واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة) . وقد قال غير واحد من العلماء : منهم يحيى بن أبى كثير وقتادة والشافعى وغيرهم (الحكمة) : هى السنة لأن الله أمر أزواج نبيه أن يذكرن ما يتلى فى بيوتهن من الكتاب والحكمة ، والكتاب : القرآن وما سوى ذلك مما كان الرسول يتلوه هو السنة .

وقد جاء عن النبى صلى الله عليه وسلم من عدة أوجه من حديث أبى رافع

وأبى ثعلبة وغيرهما أنه قال : « لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكته يأتيه الأمر من أمرى مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول بيننا وبينكم القرآن فما وجدنا فيه من حلال استحللناه وما وجدنا فيه من حرام حرمناه ، ألا وانى أوتيت الكتاب ومثله معه » . وفى رواية « ألا وانه مثل الكتاب » .

ولما كان القرآن متميزاً بنفسه ـ لما خصه الله به من الاعجاز الذى باين به كلام الناس كما قال تعالى : (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) وكان منقولا بالتواتر ـ لم يطمع أحد فى تغيير شىء من ألفاظه وحروفه ، ولكن طمع الشيطان أن يدخل التحريف والتبديل فى معانيه بالتغيير والتأويل ، وطمع أن يدخل فى الاحاديث من النقص والازدياد مايضل به بعض العباد .

فأقام الله تعالى الجهابذة النقاد ، أهل الهدى والسداد ، فدحروا حزب الشيطان ، وفرقوا بين الحق من البهتان ، وانتدبوا لحفظ السنة ومعانى القرآن من الزيادة فى ذلك والنقصان .

وقام كل من علماء الدين بما أنعم به عليه وعلى المسلمين — مقام أهل الفقه الذين فقهوا معانى القرآن والحديث — بدفع ما وقع فى ذلك من الخطأ فى القديم والحديث ، وكان من ذلك الظاهر الجلى : الذى لا يسوغ عنه العدول ؛ ومنه الخفى : الذى يسوغ فيه الاجتهاد للعلماء العدول .

وقام علماء النقل والنقاد : بعلم الرواية والاسناد ، فسافروا فى ذلك إلى البلاد ، وهجروا فيه لذيذ الرقاد ، وفارقوا الأموال والأولاد ، وأنفقوا فيه الطارف والتلاد ، وصبروا فيه على النوائب ، وقنعوا من الدنيا بزاد الراكب ،

ولهم فى ذلك من الحكايات المشهورة ، والقصص المأثورة ، ما هو عند أهله معلوم ، ولمن طلب معرفته معروف مرسوم ، بتوسد أحدهم التراب وتركهم لذيذ الطعام والشراب وترك معاشرة الأهل والأصحاب والتصبر على مرارة الاغتراب ، ومقاساة الأهوال الصعاب ، أمر حببه الله إليهم وحلاه ليحفظ بذلك دين الله . كما جعل البيت مثابة للناس وأمنا يقصدونه من كل فج عميق ، ويتحملون فيه أموراً مؤلمة تحصل فى الطريق ، وكما حبب إلى أهل القتال : الجهاد بالنفس والمال حكمة من الله يحفظ بها الدين ليهدى المهتدين ، ويظهر به الهدى ودين الحق ، الذى بعث به رسوله ولو كره المشركون .

فمن كان مخلصاً فى أعمال الدين يعملها لله : كان من أولياء الله المتقين ، أهل النعيم المقيم . كما قال تعالى : (الا أن أولياء الله لا خوف عليهم ولاهم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون ، لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، لا تبديل لكلمات الله ذلك الفوز العظيم) .

وقد فسر النبى صلى الله عليه وسلم البشرى فى الدنيا بنوعين :

أحدهما ثناء المثنين عليه .

الثانى الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح ، أو ترى له . فقيل يارسول الله الرجل يعمل العمل لنفسه فيحمده الناس عليه ؟ قال : تلك عاجل بشرى المؤمن . وقال البراء بن عازب : سئل النبى صلى الله عليه وسلم عن قوله لهم البشرى فى الحياة الدنيا فقال : « هى الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح ، أو ترى له » .

والقائمون بحفظ العلم الموروث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الربان ، الحافظون له من الزيادة والنقصان ، هم من أعظم أولياء الله المتقين وحزبه

المفلحين . بل لهم مزية على غيرهم من أهل الايمان والأعمال الصالحات . كما قال تعالى : (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) . قال ابن عباس: يرفع الله[1] .....

وعلم الاسناد والرواية مما خص الله به أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وجعله سلماً إلى الدراية . فأهل الكتاب لا إسناد لهم يأثرون به المنقولات ، وهكذا المبتدعون من هذه الامة أهل الضلالات ، وإنما الاسناد لمن أعظم الله عليه المنة ، أهل الاسلام والسنة ، يفرقون به بين الصحيح والسقيم . والمعوج والقويم .

وغيرهم من أهل البدع والكفار : انما عندهم منقولات يأثرونها بغير إسناد ، وعليها مس دينهم الإعتماد ، وهم لا يعرفون فيها الحق من الباطل ، ولا الحالى من العاطل .

وأما هذه الأمة المرحومة ، وأصحاب هذه الأمة المعصومة : فان أهل العلم منهم والدين هم من أمرهم على يقين ، فظهر لهم الصدق من المين ، كما يظهر الصبح لذى عينين . عصمهم الله أن يجمعوا على خطأ فى دين الله معقول أو منقول ، وأمرهم إذا تنازعوا فى شيء أن يردوه إلى الله والرسول كما قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فان تنازعتم فى شيء فردوه إلى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا) .

فاذا اجتمع أهل الفقه على القول بحكم لم يكن إلا حقاً ، وإذا اجتمع أهل

(١) بياض بالاصل .

الحديث على تصحيح حديث لم يكن إلا صدقاً ، ولـكل من الطائفتين من الإستدلال ، على مطلوبهم بالجلى والخفى ما يعرف به من هو بهذا الأمر حق ، والله تعالى يلهمهم الصواب فى هذه القضية ، كما دلت على ذلك الدلائل الشرعية ، وكما عرف ذلك بالتجربة الوجودية ؛ فان الله كتب فى قلوبهم الإيمان ، وأيدهم بروح منه ، لمـا صدقوا فى موالاة الله ورسوله ؛ ومعاداة من عدل عنه . قال تعالى : (لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه) .

وأهل العلم المأثور عن الرسول : أعظم الناس قياماً بهذه الأصول لا تأخذ أحدهم فى الله لومة لائم ، ولا يصدهم عن سبيل الله العظائم ؛ بل يتـكلم أحدهم بالحق الذى عليه ، ويتكلم فى أحب الناس اليه ، عملا بقوله تعالى : (يا أيهـا الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو عـلى أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فان الله كان بمـا تعملون خبيرا) وقوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنئان قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون) .

ولهم من التعديل والتجريح ، والتضعيف والتصحيح ، من السعى المشكور، والعمل المبرور : ما كان من أسباب حفظ الدين ، وصيانته عن إحداث المفترين، وهم فى ذلك على درجات : منهم المقتصر على مجرد النقل والرواية ، ومنهم أهل المعرفة بالحديث والدراية ، ومنهم أهل الفقه فيه ، والمعرفة بمعانيه .

وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم الأمة أن يبلغ عنه من شهد لمن غاب ، ودعا للمبلغين بالدعاء المستجاب ، فقال فى الحديث الصحيح : « بلغوا عنى ولو آية ، وحدثوا عن بنى اسرائيل ولا حرج ، ومن كذب على متعمداً فليبوأ مقعده من النار » . وقال أيضاً فى خطبته فى حجة الوداع : « الا ليبلغ الشاهد الغائب ، فرب مبلغ أوعى من سامع » .

وقال أيضاً : « نضر الله امرءاً سمع منا حديثاً فبلغه الى من لم يسمعه ، فرب حامل فقه غير فقيه ، ورب حامل فقه الى من هو أفقه منه ، ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم : اخلاص العمل لله ، ومناصحة ولاة الأمر ، ولزوم جماعة المسلمين ، فان دعوتهم تحيط من ورائهم » . وفى هذا دعاء منه لمن بلغ حديثه وان لم يكن فقيهاً ، ودعاء لمن بلغه وان كان المستمع أفقه من المبلغ ، لما أعطى المبلغون من النضرة ، ولهذا قال سفيان بن عيينة : لا تجد أحداً من أهل الحديث إلا وفى وجهه نضرة ، لدعوة النبي صلى الله عليه وسلم يقال : نضر ، ونضر ، والفتح أفصح .

ولم يزل أهل العلم فى القديم والحديث يعظمون نقلة الحديث حتى قال الشافعى رضى الله عنه : إذا رأيت رجلا من أهل الحديث فكأنى رأيت رجلا من أصحاب النبي صلى الله عليهم وسلم ، وانما قال الشافعى هذا : لأنهم فى مقام الصحابة من تبليغ حديث النبي صلى الله عليه وسلم . وقال الشافعى أيضاً أهل الحديث حفظوا فلهم علينا الفضل لأنهم حفظوا لنا ا هـ .

وقال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى :

قاعدة في الجماعة والفرقة وسبب ذلك ونتيجته

قال الله تعالى : (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) .

أخبر سبحانه أنه شرع لنا ما وصى به نوحا ، والذى أوحاه الى محمد ، وما وصى به الثلاثة المذكورين . وهؤلاء هم أولوا العزم المأخوذ عليهم الميثاق فى قوله : (وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى بن مريم) . وقوله : (ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به) . فجاء فى حق محمد باسم الذى وبلفظ الايحاء ، وفى سائر الرسل بلفظ [الوصيه] .

ثم قال : (أن أقيموا الدين) . وهذا تفسير الوصية ، و (أن) : المفسرة التى تأتى بعد فعل من معنى القول لا من لفظه . كما فى قوله : (ثم أوحيا اليك أن اتبع) . (ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله) والمعنى قلنا لهم : اتقوا الله . فكذلك قوله : (أن أقيموا الدين) فى معنى قال : لكم من الدين ما وصى به رسلا قلنا أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، فالمشروع لنا هو الموصى به ، والموحى ، وهو : (أقيموا الدين) . فأقيموا الدين مفسر

للمشروع لنا ، الموصى به الرسل ، والموحى الى محمد ، فقد يقال : الضمير فى أقيموا عائد الينا . ويقال هو عائد إلى المرسل . ويقال هو عائد الى الجميع . وهذا أحسن . ونظيره : أمرتك بما أمرت به زيدا . أن أطع الله . ووصيتكم بما وصيت بنى فلان : أن افعلوا . فعلى الأول : يكون بدلا من (ما) أى شرع لكم (أن أقيموا) . وعلى الثانى : شرع (ما) خاطبهم . (أقيموا) فهو بدل أيضاً ، وذكر ماقيل للأولين . وعلى الثالث : شرع الموصى به (أقيموا) .

فلما خاطب بهذه الجماعة بعد الإخبار بأنها مقولة لنا ، ومقولة لهم : علم أن الضمير عائد إلى الطائفتين جميعاً . وهذا أصح إن شاء الله . والمعنى على التقديرين الأولين يرجع إلى هذا ، فإن الذى شرع لنا : هو الذى وصى به الرسل ، وهو الآمر باقامة الدين والنهى عن التفرق فيه ؛ ولكن التردد فى أن الضمير تناولهم لفظه ؛ وقد علم أنه قيل لنا مثله ؛ أو بالعكس ؛ أو تناولنا جميعاً .

وإذا كان الله قد أمر الأولين ، والآخرين ؛ بأن يقيموا الدين ، ولا يتفرقوا فيه ، وقد أخبر أنه شرع لنا ماوصا به نوحاً ، والذى أوحاه إلى محمد . فيحتمل شيئين :

أحدهما : أن يكون ما أوحاه إلى محمد يدخل فيه شريعته التى تختص بنا ؛ فإن جميع ما بعث به محمد صلى الله عليه وسلم قد أوحاه إليه ، من الأصول والفروع ؛ بخلاف نوح وغيره من الرسل ؛ فإنما شرع لنا من الدين ماوصوا به ؛ من إقامة الدين ، وترك التفرق فيه . والدين الذى اتفقوا عليه : هو الأصول . فتضمن الكلام أشياء :—

أحدها : أنه شرع لنا الدين المشترك ، وهو الاسلام والايمان العام ، والدين المختص بنا ، وهو الإسلام ، والإيمان الخاص .

الثانى : أنه أمرنا بإقامة هذا الدين كله المشترك ، والمختص ، ونهانا عن التفرق فيه .

الثالث : أنه أمر المرسلين بإقامة الدين المشترك ، ونهاهم عن التفرق فيه .

الرابع : أنه لما فصل بقوله : (والذى أوحينا إليك) بين قوله : (ماوصينا به نوحا) وقوله : (وما وصينا به إبراهيم ، وموسى ، وعيسى) أفاد ذلك .

ثم قال بعد ذلك : (وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم) ، فأخبر أن تفرقهم إنما كان بعد مجيء العلم ، الذى بين لهم مايتقون ، فان الله ماكان ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون. وأخبر أنهم ماتفرقوا إلا بغياً ، والبغى مجاوزة الحد ، كما قال ابن عمر[1] : الكبر والحسد ، وهذا بخلاف التفرق عن اجتهاد ليس فيه علم ، ولا قصد به البغى ، كتنازع العلماء السائغ ، والبغى إما تضييع للحق ، وإما تعد للحد ، فهو إما ترك واجب ، وإما فعل محرم ، فعلم أن موجب التفرق هو ذلك .

وهذا كما قال عن أهل الكتاب : (ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به . فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة) فأخبر أن نسيانهم حظاً مما ذكروا به — وهو ترك العمل ببعض ما أمروا به — كان سبباً لإغراء العداوة والبغضاء بينهم ، وهكذا هو الواقع فى أهل ملتنا مثلما نجده بين الطوائف المتنازعة فى أصول دينها ، وكثير من فروعه ، من أهل

---

(١) بياض بالأصل

الأصول والفروع ، ومثلما نجده بين العلماء ، وبين العباد ، ممن يغلب عليه الموسوية ، أو العيسوية ، حتى يبقى فيهم شبه من الأمتين اللتين قالت كل واحدة: ليست الأخرى على شيء . كما نجد المتفقه المتمسك من الدين بالأعمال الظاهرة ، والمتصوف المتمسك منه بأعمال باطنة ، كل منهما ينفي طريقة الآخر ، ويدعي أنه ليس من أهل الدين ، أو يعرض عنه إعراض من لا يعده من الدين ، فتقع بينهما العداوة والبغضاء .

وذلك : أن الله أمر بطهارة القلب ، وأمر بطهارة البدن ، وكلا الطهارتين من الدين الذى أمر الله به وأوجبه . قال تعالى : (ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج . ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم) وقال : (فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين) وقال : (إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين) وقال : (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) وقال : (أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم) وقال : (إنما المشركون نجس) وقال : (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) .

فنجد كثيراً من المتفقهة ، والمتعبدة ، إنما همته طهارة البدن فقط ، ويزيد فيها على المشروع ، اهتماماً ، وعملا . ويترك من طهارة القلب ما أمر به ، إيجاباً ، أو استحباباً ، ولا يفهم من الطهارة الا ذلك . ونجد كثيراً من المتصوفة ، والمتفقرة ، إنما همته طهارة القلب فقط ، حتى يزيد فيها على المشروع اهتماماً ، وعملا ، ويترك من طهارة البدن ما أمر به إيجاباً ، أو استحبابا .

فالأولون يخرجون إلى الوسوسة المذمومة فى كثرة صب الماء ، وتنجيس ماليس بنجس ، واجتناب ما لا يشرع اجتنابه مع اشتمال قلوبهم على أنواع من

الحسد والكبر ، والغل لإخوانهم ، وفى ذلك مشابهة بينة لليهود.

والآخرون يخرجون الى الغفلة المذمومة ، فيبالغون فى سلامة الباطن حتى يجعلون الجهل بما تجب معرفته ، من الشر — الذى يجب اتقاءه — من سلامة الباطن ، ولا يفرقون بين سلامة الباطن من إرادة الشر المنهى عنه، وبين سلامة القلب من معرفة الشر المعرفة المأمور بها ، ثم مع هذا الجهل والغفلة قد لا يجتنبون النجاسات ، ويقيمون الطهارة الواجبة مضاهات للنصارى .

وتقع العداوة بين الطائفتين بسبب ترك حظ مما ذكروا به والبغى الذى هو مجاوزة الحد : إما تفريطا وتضييعا للحق ، وإما عدوانا وفعلا للظلم . والبغى تارة يكون من بعضهم على بعض ، وتارة يكون فى حقوق الله ، وهما متلازمان ولهذا قال : (بغيا بينهم) ، فإن كل طائفة بغت على الأخرى ، فلم تعرف حقها الذى بأيديها ، ولم تكف عن العدوان عليها .

وقال تعالى :(وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة) وقال تعالى : (كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما إختلفوا فيه . وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ماجاءتهم البينات بغيا بينهم) . وقال تعالى : (ولقد آتينا بنى إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة) الآية وقال تعالى فى موسى بن عمران مثل ذلك وقال : (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات) وقال : (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء) وقال : (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون . منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من

المشركين من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون) لأن المشركين كل منهم يعبد إلها يهواه. كما قال فى الآية الأولى: (كبر على المشركين ما تدعوهم إليه) وقال: (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إنى بما تعملون عليم وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون. فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون).

فظهر أن سبب الاجتماع والألفة جمع الدين، والعمل به كله، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، كما أمر به باطنا، وظاهرا.

وسبب الفرقة: ترك حظ مما أمر العبد به، والبغى بينهم.

ونتيجة الجماعة: رحمة الله، ورضوانه، وصلواته، وسعادة الدنيا والآخرة، وبياض الوجوه.

ونتيجة الفرقة: عذاب الله، ولعنته، وسواد الوجوه، وبراءة الرسول منهم.

وهذا أحد الأدلة على أن الاجماع حجة قاطعة، فإنهم إذا إجتمعوا كانوا مطيعين لله بذلك مرحومين، فلا تكون طاعة لله ورحمته: بفعل لم يأمر الله به، من اعتقاد، أو قول، أو عمل، فلو كان القول، أو العمل، الذى اجتمعوا عليه لم يأمر الله به، لم يكن ذلك طاعة لله، ولا سببا لرحمته، وقد احتج بذلك أبو بكر عبد العزيز فى أول «التنبيه» نبه على هذه النكتة.

وقال :ـ

فصـــــل

قال صلى الله عليه وسلم فى الحديث المشهور فى السنن من رواية فقيهى الصحابة، عبد الله بن مسعود، وزيد بن ثابت «ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم اخلاص العمل لله، ومناصحة ولات الأمر ولزوم جماعة المسلمين ؛ فإن دعوتهم تحيط من ورائهم وفى حديث أبى هريرة المحفوظ : « ان الله يرضى لكم ثلاثا: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، وان تناصحوا من ولاه الله أمركم » .

فقد جمع فى هذه الأحاديث بين الخصال الثلاث ؛ اخلاص العمل لله ومناصحة أولى الأمر ولزوم جماعة المسلمين ؛ وهذه الثلاث تجمع أصول الدين وقواعده وتجمع الحقوق التى لله ولعباده، وتنتظم مصالح الدنيا والآخرة .

وبيان ذلك أن الحقوق قسمان : حق لله وحق لعباده ، فحق الله أن نعبده ولا نشرك به شيئاً ، كما جاء لفظه فى أحد الحديثين ؛ وهذا معنى اخلاص العمل لله ، كما جاء فى الحديث الآخر . وحقوق العباد قسمان : خاص وعام ؛ أما الخاص فمثل بر كل انسان والديه ، وحق زوجته ، وجاره ؛ فهذه من فروع الدين ؛ لأن المكلف قد يخلو عن وجوبها عليه ؛ ولأن مصلحتها خاصة فردية .

وأما الحقوق العامة فالناس نوعان : رعاة ورعية ؛ فحقوق الرعاة مناصحتهم ؛ وحقوق الرعية لزوم جماعتهم ؛ فإن مصلحتهم لا تتم الا باجتماعهم ، وهم لا يجتمعون

على ضلالة ؛ بل مصلحة دينهم ودنياهم فى اجتماعهم واعتصامهم بحبل الله جميعا ؛ فهذه الخصال تجمع أصول الدين .

وقد جاءت مفسرة فى الحديث الذى رواه مسلم عن تميم الدارى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الدين النصيحة الدين النصيحة الدين النصيحة » قالوا : لمن يارسول الله ؟ قال : « لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » .

فالنصيحة لله ولكتابه ولرسوله تدخل فى حق الله وعبادته وحده لاشريك له ، والنصيحة لأئمة المسلمين وعامتهم هى مناصحة ولاة الأمر ولزوم جماعتهم ، فإن لزوم جماعتهم هى نصيحتهم العامة ، وأما النصيحة الخاصة لكل واحد واحد منهم بعينه ، فهذه يمكن بعضها ويتعذر استيعابها على سبيل التعيين .

وقال شيخ الإسلام قدس الله روحه :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم تسليما .

وبعد : فهذه قاعدة جليلة فى توحيد الله ، واخلاص الوجه والعمل له ، عبادة واستعانة [1] قال الله تعالى : (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء) الآية . وقال تعالى : (وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فاليه تجأرون) . وقال تعالى : (وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وان يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير) . وقال تعالى فى الآية الأخرى : وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وان يردك بخير فلا راد لفضله) . وقال تعالى : (اياك نعبد واياك نستعين) . وقال تعالى : (فاعبده وتوكل عليه) . وقال تعالى : (عليه توكلت وإليه أنيب) . وقال تعالى : (يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير) . وقال تعالى : (فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات) . وقال تعالى : (قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته) . الآية .

---

(١) تسمى قاعدة في توحيد الالهية .

وقال تعالى : (قل ادعـوا الذين زعمتم من دون الله لا يملـكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الارض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير ، ولا تشفع الشفاعة عنده إلا لمن اذن له) وقال تعالى : (قل ادعو الذين زعمتم من دونه فلا يملـكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا ، أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة اليهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه أن عذاب ربك كان محذورا) وقال تعالى : (ولا تدع مع الله إلها آخر لا إله إلا هو ، كل شيء هالك إلا وجهه ، له الحـكم واليه ترجعون) . وقال تعالى : (وتوكل على الحى الذى لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيرا ، الذى خلق السموات والارض وما بينهما) الآية . وقال تعالى : (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة) الآية . ونظائر هذا فى القرآن كثير ، وكذلك فى الاحاديث ، وكذلك فى اجماع الامة لا سيما أهل العلم والايمان منهم ، فان هذا عندهم قطب رحى الدين كما هو الواقع .

ونبين هذا بوجوه نقدم قبلها مقدمة .

وذلك أن العبد بل كل حى بل وكل مخلوق سوى الله هو فقير محتاج الى جلب ما ينفعه ، ودفع مايضره ، والمنفعة للحى هى من جنس النعيم واللذة ؛ والمضرة هى من جنس الالم والعذاب ؛ فلا بد له من أمرين : —

احدهما : هو المطلوب المقصود المحبوب الذى ينتفع ويلتذ به .

والثانى : هو المعين الموصـل المحصل لذلك المقصود والمـانع من دفع المـكروه . وهذان هما الشيئان المنفصلان الفاعل والغاية فهنا أربعة أشياء : —

أحدها : أمر هو محبوب مطلوب الوجود .

والثانى : أمر مكروه مبغض مطلوب العدم .

والثالث : الوسيلة إلى حصول المطلوب المحبوب .

والرابع : الوسيلة إلى دفع المكروه ، فهذه الأربعة الأمور ضرورية للعبد بل ولكل حى لا يقوم وجوده وصلاحه إلا بها ، واما ماليس بحى فالكلام فيه على وجه آخر .

إذا تبين ذلك فبيان ماذكرته من وجوه : —

أحدها : أن الله تعالى هو الذى يحب أن يكون هو المقصود المدعو المطلوب ، وهو المعين على المطلوب وما سواه هو المكروه ، وهو المعين على دفع المكروه ، فهو سبحانه الجامع للأمور الأربعه دون ما سواه ، وهذا معنى قوله : (إياك نعبد وإياك نستعين) فإن العبودية تتضمن المقصود المطلوب ، لكن على أكمل الوجوه ، والمستعان هو الذى يستعان به على المطلوب ، فالأول من معنى الألوهية .

والثانى من معنى الربوبية ، إذ الاله : هو الذى يؤله فيعبد محبة وإنابة واجلالا وإكراماً والرب : هو الذى يربى عبده فيعطيه خلقه ثم يهديه إلى جميع أحواله من العبادة وغيرها ، وكذلك قوله تعالى : (عليه توكلت وإليه أنيب) . وقوله : (فاعبده وتوكل عليه) . وقوله : (عليك توكلنا وإليك أنبنا واليك المصير) . وقوله تعالى : (وتوكل على الحى الذى لا يموت ، وسبح بحمده) . وقوله تعالى : (عليه توكلت وإليه متاب) ، وقوله : (وتبتل اليه تبتيلا . رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا) فهذه سبعة مواضع تنتظم هذين الأصلين الجامعين .

الوجه الثانى : ان الله خلق الخلق لعبادته الجامعة لمعرفته والانابة إليه، ومحبته والاخلاص له فبذكره تطمئن قلوبهم ؛ وبرؤيته فى الآخرة تقر عيونهم ولا شىء يعطيهم فى الآخرة أحب إليهم من النظر إليه ؛ ولا شىء يعطيهم فى الدنيا أعظم من الإيمان به.

وحاجتهم إليه فى عبادتهم إياه وتألههم كحاجتهم وأعظم فى خلقه لهم وربوبيته إياهم ؛ فإن ذلك هو الغاية المقصودة لهم ، وبذلك يصيرون عاملين متحركين، ولا صلاح لهم ولا فلاح ، ولا نعيم ولا لذة ، بدون ذلك بحال . بل من أعرض عن ذكر ربه فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى .

ولهذا كان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ، ولهذا كانت لا إله إلا الله أحسن الحسنات ، وكان التوحيد بقول : لا إله إلا الله ؛ رأس الأمر .

فأما توحيد الربوبية الذى أقر به الخلق ، وقرره أهل الكلام ؛ فلا يكفى وحده ، بل هو من الحجة عليهم ، وهذا معنى مايروى : « يا ابن آدم ، خلقت كل شىء لك ، وخلقتك لى ، فبحق عليك أن لا تشتغل بما خلقته لك ، عما خلقتك له .

واعلم أن هذا حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، كما فى الحديث الصحيح ، الذى رواه معاذ عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أتدرى ماحق الله على عباده ؟ قال قلت : الله ورسوله أعلم . قال : حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً أتدرى ماحق العباد على الله اذا فعلوا ذلك ؟ . قال قلت : الله ورسوله أعلم . قال : حقهم أن لا يعذبهم » .

وهو يحب ذلك ، ويرضى به ؛ ويرضى عن أهله ، ويفرح بتوبة من عاد اليه ؛ كما أن فى ذلك لذة العبد وسعادته ونعيمه ؛ وقد بينت بعض معنى محبة الله لذلك وفرحه به فى غير هذا الموضع .

فليس فى الكائنات ما يسكن العبد اليه ويطمئن به ، ويتنعم بالتوجه اليه ؛ الا الله سبحانه ؛ ومن عبد غير الله وان أحبه وحصل له به مودة فى الحياة الدنيا ونوع من اللذة فهو مفسدة لصاحبه أعظم من مفسدة التذاذ أكل الطعام المسموم (فلو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون) فإن قوامهما بان تأله الاله الحق فلو كان فيهما آلهة غير الله لم يكن الهاً حقاً ؛ اذ الله لا سمى له ولا مثل له ؛ فكانت تفسد لانتفاء ما به صلاحها هذا من جهة الالهية.

وأما من جهة الربوبية فشىء آخر ؛ كما نقرره فى موضعه .

واعلم ان فقر العبد الى الله ان يعبد الله لا يشرك به شيئاً ، ليس له نظير فيقاس به ؛ لكن يشبه من بعض الوجوه حاجة الجسد الى الطعام والشراب ؛ وبينهما فروق كثيرة .

فان حقيقة العبد قلبه وروحه ، وهى لا صلاح لها إلا بالهها الله الذى لا إله إلا هو : فلا تطمئن فى الدنيا إلا بذكره : وهى كادحة اليه كدحا فملاقيته ولا بد لها من لقائه ، ولاصلاح لها إلا بلقائه .

ولو حصل للعبد لذات أو سرور بغير الله فلا يدوم ذلك ، بل ينتقل من نوع الى نوع ، ومن شخص الى شخص ، ويتنعم بهذا فى وقت وفى بعض الاحوال ، وتارة أخرى يكون ذلك الذى يتنعم به والتذ غير منعم له ولا ملتذ له ، بل قد

يؤذيه اتصاله به ووجوده عنده ، ويضره ذلك .

وأما الهه فلا بد له منه فى كل حال وكل وقت ، وإينما كان فهو معه ؛ ولهذا قال امامنا (ابراهيم) الخليل صلى الله عليه وسلم (لا أحب الآفلين) . وكان أعظم آية فى القرآن الكريم : (الله لا إله إلا هو الحى القيوم) . وقد بسطت الكلام فى معنى القيوم فى موضع آخر ، وبينا أنه الدائم الباقى الذى لا يزول ولا يعدم ، ولا يفنى بوجه من الوجوه.

واعلم ان هذا الوجه مبنى على أصلين :

أحدهما : على ان نفس الايمان بالله وعبادته ومحبته وأجلاله هو غذاء الانسان وقوته وصلاحه وقوامه كما عليه أهل الايمان ، وكما دل عليه القرآن ؛ لا كما يقول من يعتقد من أهل الكلام ونحوهم : ان عبادته تكليف ومشقة ! . وخلاف مقصود القلب لمجرد الامتحان والاختبار ؛ أولا جل التعويض بالاجرة كما يقوله المعتزلة وغيرهم ؛ فانه وان كان فى الأعمال الصالحة ما هو على خلاف هوى النفس ـ والله سبحانه يأجر العبد على الاعمال المأمور بها مع المشقة ، كما قال تعالى : (ذلك بانهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب) الآية ، وقال صلى الله عليه وسلم لعايشة : أجرك على قدر نصبك ـ فليس ذلك هو المقصود الاول بالامر الشرعى ، وانما وقع ضمنا وتبعا لاسباب ليس هذا موضعها ، وهذا يفسر فى موضعه .

ولهذا لم يجى فى الكتاب والسنة وكلام السلف إطلاق القول على الايمان والعمل الصالح : أنه تكليف كما يطلق ذلك كثير من المتكلمة والمتفقه ، وانما جاء ذكر التكليف فى موضع النفى ، كقوله : (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) .

(لا تكلف إلا نفسك) (لا يكلف الله نفساً الا ما أتاها) أى وان وقع فى الأمر تكليف ، فلا يكلف إلا قدر الوسع ، لا أنه يسمى جميع الشريعة تكليفاً ، مع ان غالبها قرة العيون وسرور القلوب ، ولذات الارواح وكمال النعيم ، وذلك لإرادة وجه الله والانابة اليه ، وذكره وتوجه الوجه اليه ، فهو الإله الحق الذى تطمئن اليه القلوب ، ولا يقوم غيره مقامه فى ذلك ابداً . قال الله تعالى : (فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا ؟) فهذا أصل . -

(الأصل الثانى) : النعيم فى الدار الآخرة أيضاً مثل النظر اليه لا كما يزعم طائفة من أهل الكلام ونحوهم ، انه لا نعيم ولا لذة إلا بالمخلوق : من المأكول والمشروب والمنكوح ونحو ذلك ، بل اللذة والنعيم التام فى حظهم من الخالق سبحانه وتعالى ، كما فى الدعاء المأثور : (اللهم انى اسألك لذة النظر الى وجهك ، والشوق الى لقائك فى غير ضراء مضرة ، ولا فتنة مضلة . رواه النسائى ، وغيره وفى صحيح « مسلم » وغيره ، عن « صهيب » عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : اذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد يا أهل الجنة ، ان لكم عند الله موعداً يريد ان ينجزكموه . فيقولون : ما هو ؟ ! ألم يبيض وجوهنا ، ويدخلنا الجنة ، ويجرنا من النار ؟ ! قال : فيكشف الحجاب ، فينظرون اليه ـ سبحانه . فما أعطاهم شيئاً أحب اليهم من النظر اليه ، وهو الزيادة .

فبين النبى صلى الله عليه وسلم : أنهم مع كمال تنعمهم بما اعطاهم الله فى الجنة لم يعطهم شيئاً أحب اليهم من النظر اليه ، وانما يكون أحب اليهم لأن تنعمهم وتلذذهم به أعظم من التنعم والتلذذ بغيره . فإن اللذة تتبع الشعور بالمحبوب ، فكلما كان الشىء أحب الى الانسان كان حصوله ألذ له ، وتنعمه به أعظم .

وروى ان يوم الجمعة يوم المزيد ، وهو يوم الجمعة من أيام الآخرة ، وفى الأحاديث والآثار ما يصدق هذا ، قال الله تعالى فى حق الكفار : (كلا أنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ثم انهم لصالوا الجحيم) . فعذاب الحجاب أعظم أنواع العذاب . ولذة النظر الى وجهه أعلى اللذات ، ولا تقوم حظوظهم من سائر المخلوقات مقام حظهم منه تعالى .

وهذان الاصلان ثابتان فى الكتاب والسنة ، وعليهما أهل العلم والايمان ويتكلم فيهما مشايخ الصوفية العارفون ، وعليهما أهل السنة والجماعة ، وعوام الامة ، وذلك من فطرة الله التى فطر الناس عليها .

وقد يحتجون على من ينكرها بالنصوص والآثار تارة ، وبالذوق والوجد اخرى - إذا أنكر اللذة - فإن ذوقها ووجدها ينفى انكارها . وقد يحتجون بالقياس فى الأمثال تارة ، وهى الاقيسة العقلية .

الوجه الثالث : ان المخلوق ليس عنده للعبد نفع ولا ضرر ، ولا عطاء ولا منع ، ولا هدى ولا اضلال ، ولا نصر ولا خذلان ، ولا خفض ولا رفع ، ولا عز ولا ذل ، بل ربه هو الذى خلقه ورزقه ، وبصره وهداه وأسبغ عليه نعمه ، فاذا مسه الله بضر فلا يكشفه عنه غيره ، وإذا أصابه بنعمة لم يرفعها عنه سواه ، وأما العبد فلا ينفعه ولا يضره إلا باذن الله ، وهذا الوجه أظهر للعامة من الأول ، ولهذا خوطبوا به فى القرآن أكثر من الأول ، لكن إذا تدبر اللبيب طريقة القرآن ، وجد أن الله يدعو عباده بهذا الوجه الى الأول .

فهذا الوجه يقتضى ، التوكل على الله ، والاستعانة به . ودعاه . ومسألته ، دون ما سواه . ويقتضى أيضاً : محبة الله وعبادته لاحسانه الى عبده ، واسباغ

نعمه عليه ، وحاجة العبد اليه فى هذه النعم ، ولكن اذا عبـــدوه وأحبوه ، وتوكلوا عليه من هـذا الوجه ، دخلوا فى الوجه الأول ، ونظيره فى الدنيا من نزل به بلاء عظيم أو فاقة شديدة أو خوف مقلق ، فجعل يدعو الله ويتضرع اليه حتى فتح له من لذة مناجاته ما كان أحب اليه من تلك الحاجة التى قصدها أولا ، ولكنه لم يكن يعرف ذلك أولا حتى يطلبه ويشتاق اليه .

والقرآن مملوء من ذكر حاجة العبـاد الى الله دون ما سواه ، ومن ذكر نعمائه عليهم ، ومن ذكر ما وعدهم فى الآخرة من صنوف النعيم واللذات وليس عند المخلوق شيء من هذا ، فهذا الوجه يحقق التوكل على الله والشكر له ومحبته على احسانه .

الوجه الرابع : أن تعلق العبد بما سوى الله مضرة عليه ، اذا أخذ منه القدر الزائد على حاجته فى عبادة الله ، فانه ان نال من الطعام والشراب فوق حاجته ، ضره وأهلكه ، وكذلك من النكاح واللباس ، وان أحب شيئاً حباً تاماً بحيث يخالله فلا بد أن يسأمه ، أو يفارقه . وفى الأثر المأثور : أحبب ماشئت فانك مفارقه . واعمل ماشئت فانك ملاقيه . وكن كما شئت فكما تدين تدان .

واعلم أن كل من أحب شـيئاً لغير الله فلا بد أن يضره محبوبه ، ويكون ذلك ســـبباً لعذابه ، ولهذا كان الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله ، يمثل لأحدهم كنزه يوم القيامة شجاع أقرع يأخذ بلهزمته . يقول : أنا كنزك . أنا مالك .

وكذلك نظائر هذا فى الحديث : يقول الله يوم القيـامة : (يا ابن آدم ، أليس عدلا منى أن أولى كل رجل منكم ما كان يتولاه فى الدنيا ؟) : وأصل التولى

الحب ؛ فكل من أحب شيئاً دون الله ولاه الله يوم القيامة ماتولاه ؛ وأصلاه جهنم وساءت مصيراً ؛ فمن أحب شيئا لغير الله فالضرر حاصل له ان وجد ؛ أو فقد ، فإن فقد عذب بالفراق وتألم ، وان وجد فإنه يحصل له من الألم أكثر مما يحصل له من اللذة ، وهذا أمر معلوم بالاعتبار والاستقراء ، وكل من أحب شيئاً دون الله لغير الله فإن مضرته أكثر من منفعته ، فصارت المخلوقات وبالا عليه الا : ما كان لله وفى الله ، فإنه كمال وجمال للعبد ، وهذا معنى مايروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الدنيا ملعونة ملعون مافيها ، الا ذكر الله وما والاه » . رواه الترمذى ، وغيره .

الوجه الخامس : ان اعتماده على المخلوق وتوكله عليه يوجب الضرر من جهته ، فإنه يخذل من تلك الجهة ، وهو أيضاً معلوم بالاعتبار والاستقراء ؛ ما علق العبد رجاءه وتوكله بغير الله الا خاب من تلك الجهة ، ولا استنصر بغير الله الا خذل . وقد قال الله تعالى : (واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً . كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا) .

وهذان الوجهان فى المخلوقات نظير العبادة والاستعانة فى المخلوق ، فلما قال : « إياك نعبد وإياك نستعين » كان صلاح العبد فى عبادة الله واستعانته . وكان فى عبادة ماسواه ، والاستعانة بما سواه ، مضرته وهلاكه وفساده .

الوجه السادس : ان الله سبحانه غنى . حميد . كريم . واجد . رحيم ، فهو سبحانه محسن الى عبده مع غناه عنه ، يريد به الخير ويكشف عنه الضر ، لا لجلب منفعة اليه من العبد ، ولا لدفع مضرة ، بل رحمة واحسانا ، والعباد لايتصور أن يعملوا الا لحظوظهم ، فأكثر ماعندهم للعبد أن يحبوه ويعظموه ، ويجلبوا

له منفعة ويدفعوا عنه مضرة ما . وان كان ذلك أيضاً من تيسير الله تعالى فإنهم لا يفعلون ذلك الا لحظوظهم من العبد اذا لم يكن العمل لله . فإنهم اذا أحبوه طلبوا أن ينالوا غرضهم من محبته سواء أحبوه لجماله الباطن أو الظاهر فإذا أحبوا الأنبياء والأولياء طلبوا لقاءهم فهم يحبون التمتع برؤيتهم ؛ وسماع كلامهم ؛ ونحو ذلك .

وكذلك من أحب انسانا لشجاعته أو رياسته ، أو جماله أو كرمه ، فهو يحب أن ينال حظه من تلك المحبة ، ولولا التلذاذه بها لما أحبه ، وان جلبوا له منفعة كخدمة أو مال ، أو دفعوا عنه مضرة كمرض وعدو — ولو بالدعاء أو الثناء — فهم يطلبون العوض إذا لم يكن العمل لله ، فاجناد الملوك ، وعبيد المالك ، واجراء الصانع ، وأعوان الرئيس ، كلهم انما يسعون فى نيل أغراضهم به ، لا يعرج أكثرهم على قصد منفعة المخدوم ، إلا أن يكون قد علم وأدب من جهة أخرى ، فيدخل ذلك فى الجهة الدينية ، أو يكون فيها طبع عدل ، واحسان من باب المكافأة والرحمة ، .. والا فالمقصود بالقصد الاول هو منفعة نفسه ، وهذا من حكمة الله التى أقام بها مصالح خلقه ، وقسم بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ، ورفع بعضهم فوق بعض درجات ، : ليتخذ بعضهم بعضا سخريا .

إذا تبين هذا ظهر ان المخلوق لا يقصد منفعتك بالقصد الاول ، بل انما يقصد منفعته بك وان كان ذلك قد يكون عليك فيه ضرر اذا لم يراع العدل ، فإذا دعوته ، فقد دعوت من ضره أقرب من نفعه .

والرب سبحانه يريدك لك ، ولمنفعتك بك ، لا لينتفع بك . وذلك منفعة عليك بلا مضرة . فتدبر هذا ، فملاحظة هذا الوجه يمنعك أن ترجو المخلوق أو

تطلب منه منفعة لك ، فانه لا يريد ذلك بالقصد الاول ، كما أنه لا يقدر عليه . ولا يحملنك هذا على جفوة الناس ، وترك الاحسان اليهم ، واحتمال الأذى منهم ؛ بل أحسن اليهم لله لا لرجائهم ، وكما لا تخفهم فلا ترجهم ، وخف الله فى الناس ولا تخف الناس فى الله ، وارج الله فى الناس ولا ترج الناس فى الله ، وكن ممن قال الله فيه : (وسيجنبها الأتقى ، الذى يؤتى ماله يتزكى ، وما لأحد عنده من نعمة تجزى ، إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى) . وقال فيه : (إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءاً ولا شكورا) .

الوجه السابع : أن غالب الخلق يطلبون إدراك حاجاتهم بك وإن كان ذلك ضرراً عليك ، فان صاحب الحاجة أعمى لا يعرف الا قضاءها .

الوجه الثامن : انه اذا أصابك مضرة كالخوف والجوع والمرض ، فان الخلق لا يقدرون على دفعها الا باذن الله ، ولا يقصدون دفعها الا لغرض لهم فى ذلك .

الوجه التاسع : ان الخلق لو اجتهدوا أن ينفعوك لم ينفعوك الا بأمر قد كتبه الله لك ، ولو اجتهدوا أن يضروك لم يضروك الا بأمر قد كتبه الله عليك ؛ فهم لا ينفعونك الا باذن الله ، ولا يضرونك الا باذن الله ، فلا تعلق بهم رجاءك .

قال الله تعالى : (أمن هذا الذى هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن ؟ ان الكافرون الا فى غرور . أمن هذا الذى يرزقكم ان أمسك رزقه ؟ بل لجوا فى عتو ونفور) . والنصر يتضمن دفع الضرر ، والرزق يتضمن حصول المنفعة

قال الله تعالى : (فليعبدوا رب هذا البيت ، الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) . وقال تعـــالى : (أولم نمكن لهم حرماً آمناً يجبى اليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا ؟) . وقال الخليل عليه السلام : (رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات) الآية . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « هل ترزقون وتنصرون الا بضعفائكم » : بدعائهم وصلاتهم واخلاصهم ؟ .

فصـــــل

جماع هذا انك أنت اذا كنت غير عالم بمصلحتك ، ولا قادر عليها ، ولا مريد لها كما ينبغي ، فغيرك من الناس أولى أن لايكون عالماً بمصلحتك ، ولا قادر عليها ، ولا مريد لها ، والله — سبحانه — هو الذى يعلم ولا تعلم ، ويقدر ولا تقدر ، ويعطيك من فضله العظيم ، كما فى حديث الاستخارة : « اللهم انى أستخيرك بعلمك ، واستقدرك بقدرتك ، وأسـألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم ، وأنت علام الغيوب » .

فصـــــل

وهو مثل المقدمة لهذا الذى أمامه ، وهو أن كل انسان فهو همام حارث حساس متحرك بالإرادة ، بل كل حى فهو كذلك له عـــلم وعمل بإرادته . والإرادة هى المشيئة والاختيار ، ولا بد فى العمل الارادى الاختيارى من مراد وهو المطلوب ، ولا يحصل المراد الا بأسباب ، ووسائل تحصله ، فإن حصل بفعل العبد فلا بد من قدرة وقوة ؛ وان كان من خارج فلا بد من فاعل غيره ؛ وان كان منه ومن الخارج فلا بد من الأسباب ، كالآلات ونحو ذلك ، فلا بد لكل حى من ارادة ، ولا بد لكل مريد من عون يحصل به مراده .

فصار العبد مجبولا على أن يقصد شيئاً ويريده ؛ ويستعين بشىء ويعتمد عليه فى تحصيل مراده هـذا أمر حتم لازم ضرورى فى حق كل انسان يجده فى نفسه . لـكن المراد والمستعان على قسمين :

منه ما يراد لغيره ، ومنه مايراد لنفسه . والمستعان : منه ماهو المستعان لنفسه ، ومنه ماهو تبع للمستعان وآلة له ، فمن المراد ما يكون هو الغاية المطلوب ، فهو الذى يذل له الطالب ويحبـه ، وهو الإله المقصود ، ومنه مايراد لغيره ، وهو بحيث يكون المراد هو ذلك الغير ، فهذا مراد بالعرض . ومن المستعان ما يكون هو الغاية التى يعتمد عليه العبد ؛ ويتوكل عليه ؛ ويعتضد به ؛ ليس عنده فوقه غاية فى الاستعانة ومنه ما يكون تبعاً لغيره ، بمنزلة الأعضاء مع القلب ؛ والمـال مع المـالك ؛ والآلات مع الصانع .

فإذا تدبر الإنسان حال نفسه وحال جميع الناس ؛ وجدهم لاينفكون عن هذين الأمرين : لابد للنفس من شيء تطمئن اليه وتنتهى اليه محبتها ؛ وهو الهها . ولا بد لها من شيء تثق به وتعتمد عليه فى نيل مطلوبها هو مستعانها ؛ سـواء كان ذلك هو الله أو غيره واذاً فقد يكون عاماً وهو الكفر ، كمن عبد غير الله مطلقاً ، وسأل غير الله مطلقاً . مثل : عباد الشمس والقمر وغير ذلك الذين يطلبون منهم الحاجات ، ويفزعون اليهم فى النوائب .

وقد يكون خاصاً فى المسلمين ، مثل : من غلب عليه حب المال، أو حب شخص ، أو حب الرياسة ، حتى صار عبد ذلك ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « تعس عبد الدرهم ! تعس عبد الدينار ! تعس عبد الخميصة ! تعس عبد الخميلة ! : ان أعطى رضى ، وان منع سخط ! تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش » وكذلك من غلب عليه الثقة بجاهه وماله ، بحيث يكون عنده مخدومه من الرؤساء ونحوهم ، أو خادمه من الأعوان والأجناد ونحوهم ، أو أصدقائه أو أمواله ، هى التى تجلب المنفعة الفلانية وتدفع المضرة الفلانية ، فهو معتمد عليها ومستعين بها والمستعان هو مدعو ومسؤل .

وما أكثر ما تستلزم العبادة الاستعانة ، فمن اعتمد عليه القلب فى رزقه ونصره ونفعه وضره ؛ خضع له وذل ،وانقاد واحبه من هذه الجهة وإن لم يحبه لذاته لكن قد يغلب عليه الحال حتى يحبه لذاته ، وينسى مقصوده منه ؛ كما يصيب كثيرا ممن يحب المال أو يحب من يحصل له به العز والسلطان .

وأما من أحبه القلب وأراده وقصده ؛ فقد لا يستعينه ويعتمد عليه الا اذا استشعر قدرته على تحصيل مطلوبه ؛ كاستشعار المحب قدرة المحبوب على وصله

فإذا استشعر قدرته على تحصيل مطلوبه استعانه ؛ والا فلا ؛ فالاقسام ثلاثة فقد يكون محبوباً غير مستعان ، وقد يكون مستعانا غير محبوب ؛ وقد يجتمع فيه الامران .

فاذا علم أن العبد لابد له فى كل وقت وحال من منتهى يطلبه هو الهه ، ومنتهى يطلب منه هو مستعانه ؛ — وذلك هو صمده الذى يصمد اليه فى استعانته وعبادته — تبين أن قوله : (اياك نعبد واياك نستعين) كلام جامع محيط أولا وآخرا ، لا يخرج عنه شىء ، فصارت الأقسام أربعة .

اما أن يعبد غير الله ويستعينه — وان كان مسلما — فالشرك فى هذه الأمة اخفى من دبيب النمل .

وإما أن يعبده ويستعين غيره ، مثل كثير من أهل الدين ، يقصدون طاعة الله ورسوله وعبادته وحده لاشريك له؛ وتخضع قلوبهم لمن يستشعرون نصرهم ؛ ورزقهم ، وهدايتهم ، من جهته : من الملوك والاغنياء والمشائخ .

وإما أن يستعينه — وان عبد غيره — مثل كثير من ذوى الاحوال ؛ وذوى القدرة وذوى السلطان الباطن أو الظاهر ، وأهل الكشف والتأثير ؛ الذين يستعينونه ويعتمدون عليه ويسألونه ويلجأون اليه ؛ لكن مقصودهم غير ما أمر الله به ورسوله ؛ وغير اتباع دينه وشريعته التى بعث الله بها رسوله .

والقسم الرابع : الذين لا يعبدون الا إياه ؛ ولا يستعينون الا به ؛ وهذا القسم الرباعى قد ذكرفيما بعد ايضا ؛ لكنه تارة يكون بحسب العبادة والاستعانة وتارة يكون بحسب المستعان ؛ فهنا هو بحسب المعبود والمستعان ؛ لبيان انه لابد لكل عبد من معبود مستعان ، وفيما بعد بحسب عبادة الله واستعانته ؛ فإن الناس فيها على أربعة أقسام .

وقال شيخ الاسلام : -

فصـــــــل

فى وجوب اختصاص الخالق بالعبادة والتوكل عليه : فلا يعمل إلا له ، ولا يرجى إلا هو ، هو سبحانه الذى ابتدأك بخلقك والانعام عليك ، بنفس قدرته عليك ومشيئته ورحمته من غير سبب منك أصلا ، وما فعل بك لا يقدر عليه غيره . ثم اذا احتجت اليه فى جلب رزق أو دفع ضرر : فهو الذى يأتى بالرزق لا يأتى به غيره ، وهو الذى يدفع الضرر لا يدفعه غيره . كما قال تعالى : (أمن هذا الذى هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن ؟ إن الكافرون إلا فى غرور . أمن هذا الذى يرزقكم إن أمسك رزقه ؟ بل لجوا فى عتو ونفور) .

وهو سبحانه ينعم عليك ، ويحسن اليك بنفسه ؛ فان ذلك موجب ماتسمى به ، ووصف به نفسه ؛ إذ هو الرحمن الرحيم ؛ الودود المجيـــد ؛ وهو قادر بنفسه ، وقدرته من لوازم ذاته ، وكذلك رحمته وعلمه وحكمته : لا يحتاج إلى خلقه بوجه من الوجوه ؛ بل هو الغنى عن العالمين (ومن شكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم) ! (وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم ان عذابى لشديد) وقال موسى : (ان تكفروا انتم ومن فى الأرض جميعاً فإن الله لغنى حميد) .

وفى الحديث الصحيح الإلهى : « ياعبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم

وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئاً ؛ ولو كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم مازاد ذلك فى ملكى شيئاً ؛ ولو قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عندى شيئاً » إلى آخر الحديث .

فالرب سبحانه غنى بنفسه ، وما يستحقه من صفات الكمال ثابت له بنفسه، واجب له من لوازم نفسه ، لا يفتقر فى شىء من ذلك الى غيره ؛ بل أفعاله من كماله : كمل ففعل ؛ واحسانه وجوده من كماله ، لا يفعل شيئاً لحاجة الى غيره بوجه من الوجوه ؛ بل كلما يريده فعله ؛ فإنه فعال لما يريد . وهو سبحانه بالغ أمره ؛ فكلما يطلب فهو يبلغه وينا له ويصل اليه وحده لا يعينه أحد ، ولا يعوقه أحد ، لا يحتاج فى شىء من أموره الى معين ، وما له من المخلوقين ظهير ؛ وليس له ولى من الذل .

فصــــــل

والعبد كلما كان أذل لله وأعظم افتقاراً اليه وخضوعاً له : كان أقرب اليه ، وأعزله ، وأعظم لقدره ، فأسعد الخلق : أعظمهم عبودية لله . وأما المخلوق فكما قيل : احتج الى من شئت تكن أسيره ، واستغن عمن شئت تكن نظيره ، وأحسن الى من شئت تكن أميره ، ولقد صدق القائل : —

بين التذلل والتدلل نقطــه   فى رفعها تتحــير الأفهام
ذاك التـــذلل شـــرك   فافهم يا فـــتى بالخلف [1]

فأعظم ما يكون العبد قدراً وحرمة عند الخلق : إذا لم يحتج اليهم بوجه من الوجوه ، فإن أحسنت اليهم مع الاستغناء عنهم : كنت أعظم ما يكون عندهم ، ومتى احتجت اليهم ـ ولو فى شربة ماء ـ نقص قدرك عندهم بقدر حاجتك اليهم ، وهذا من حكمة الله ورحمته ، ليكون الدين كله لله ، ولا يشرك به شىء .

ولهذا قال حاتم الاصم : لما سئل فيم السلامة من الناس ؟ قال : أن يكون شيئك لهم مبذولا وتكون من شيئهم آيساً ، لكن ان كنت معوضاً لهم عن ذلك وكانوا محتاجين . فان تعادلت الحاجتان تساويتم كالمتبايعين ليس لأحدهما فضل على الآخر ، وان كانوا اليك أحوج خضعوا لك .

فالرب سبحانه : أكرم ماتكون عليه أحوج ماتكون اليه . وأفقر ماتكون

---

(١) هكذا بالاصل .

اليه . والخلق : أهون ما يكون عليهم أحوج ما يكون اليهم ، لأنهم كلهم محتاجون فى أنفسهم ، فهم لا يعلمون حوائجك ، ولا يهتدون الى مصلحتك ، بل هم جهلة بمصالح أنفسهم ، فكيف يهتدون الى مصلحة غيرهم ؟! فإنهم لا يقدرون عليها ، ولا يريدون من جهة أنفسهم ، فلا علم ولا قدرة ولا ارادة . والرب تعالى يعلم مصالحك ويقدر عليها ، ويريدها رحمة منه وفضلا ، وذلك صفته من جهة نفسه ، لاشىء آخر جعله مريداً راحماً ، بل رحمته من لوازم نفسه ، فانه كتب على نفسه الرحمة ، ورحمته وسعت كل شىء ، والخلق كلهم محتاجون ، لا يفعلون شيئاً إلا لحاجتهم ومصلحتهم ، وهذا هو الواجب عليهم والحكمة ، ولا ينبغى لهم الا ذلك ، لكن السعيد منهم الذى يعمل لمصلحته التى هى مصلحة ، لا لما يظنه مصلحة وليس كذلك . فهم ثلاثة أصناف :

ظالم . وعادل . ومحسن .

فالظالم : الذى يأخذ منك مالا أو نفعاً ولا يعطيك عوضه ، أو ينفع نفسه بضررك .

والعادل : المكافىء . كالبايع لا لك ولا عليك كل به يقوم الوجود ، وكل منهما محتاج الى صاحبه ، كالزوجين ، والمتبايعين ، والشريكين .

والمحسن الذى يحسن لا لعوض يناله منك . فهذا انما عمل لحاجته ومصلحته ، وهو انتفاعه بالاحسان ، وما يحصل له بذلك مما تحبه نفسه من الأجر ، أو طلب مدح الخلق ، وتعظيمهم ، أو التقرب اليك ، الى غير ذلك .

وبكل حال : ما أحسن اليك الا لما يرجو من الانتفاع . وسائر الخلق ، انما يكرمونك ويعظمونك لحاجتهم اليك ، وانتفاعهم بك ، إما بطريق

المعاوضة ، لأن كل واحد من المتبايعين والمتشاركين والزوجين محتاج الى الآخر ، والسيد محتاج الى مماليكه وهم محتاجون اليه ، والملوك محتاجون الى الجند والجند محتاجون اليهم ، وعلى هذا بنى أمر العالم ، واما بطريق الاحسان منك اليهم. فأقرباؤك وأصدقاؤك وغيرهم اذا أكرموك لنفسك، فهم انما يحبونك ويكرمونك لما يحصل لهم بنفسك من الكرامة ، فلو قد وليت ولوا عنك وتركوك فهم فى الحقيقة انما يحبون أنفسهم ، وأغراضهم .

فهؤلاء كلهم من الملوك الى من دونهم تجد أحدهم سيداً مطاعاً وهو فى الحقيقة عبد مطيع واذا أوذى أحدهم بسبب سيده أو من يطيعه تغير الأمر بحسب الأحوال ، ومتى كنت محتاجاً اليهم ، نقص الحب والاكرام والتعظيم بحسب ذلك وان قضوا حاجتك .

والرب تعالى : يمتنع أن يكون المخلوق مكافياً له أو متفضلا عليه ، ولهذا كان النبى صلى الله عليه وسلم يقول اذا رفعت ما ئدته : « الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركا فيه غير مكفى ولا مكفور ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا » رواه البخارى من حديث أبى أمامة بل ولا يزال الله هو المنعم المتفضل على العبد وحده لا شريك له فى ذلك ، بل ما بالخلق كلهم من نعمة فمن الله ، وسعادة العبد فى كمال افتقاره الى الله ، واحتياجه اليه ، وأن يشهد ذلك ويعرفه ويتصف معه بموجبه ، أى بموجب علمه ذلك . فإن الإنسان قد يفتقر ولا يعلم مثل أن يذهب ماله ولا يعلم، بل يظنه باقياً فإذا علم بذهابه صار له حال آخر ، فكذلك الخلق كلهم فقراء الى الله ، لكن أهل الكفر والنفاق فى جهل بهذا وغفلة عنه وإعراض عن تذكره والعمل به ، والمؤمن يقر بذلك ويعمل بموجب اقراره ، وهؤلاء هم عباد الله .

فالإنسان وكل مخلوق فقير الى الله بالذات ، وفقره من لوازم ذاته ، يمتنع أن يكون الا فقيراً الى خالقه ، وليس أحد غنياً بنفسه الا الله وحده ، فهو الصمد الغنى عما سواه ، وكلما سواه فقير اليه ، فالعبد فقير الى الله من جهة ربو بيته ومن جهة الهيته ، كما قد بسط هذا فى مواضع .

والإنسان يذنب دائماً فهو فقير مذنب ، وربه تعالى يرحمه ويغفر له ، وهو الغفور الرحيم ، فلولا رحمته واحسانه : لما وجد خير أصلا ، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، ولولا مغفرته لما وقى العبد شر ذنوبه ، وهو محتاج دائما الى حصول النعمة ، ودفع الضر والشر ولا تحصل النعمة الا برحمته ، ولا يندفع الشر الا بمغفرته ، فإنه لا سبب للشر الا ذنوب العباد . كما قال تعالى : (ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك) والمراد بالسيئات : ما يسوء العبد من المصائب وبالحسنات : ما يسره من النعم . كما قال : (وبلوناهم بالحسنات والسيئات) فالنعم والرحمة والخير كله من الله فضلا وجودا ، من غير أن يكون لأحد من جهة نفسه عليه حق ، وان كان تعالى عليه حق لعباده ، فذلك الحق هو أحقه على نفسه ، وليس ذلك من جهة المخلوق ، بل من جهة الله ، كما قد بسط هذا فى مواضع .

والمصائب : بسبب ذنوب العباد وكسبهم . كما قال : (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير) .

والنعم ، وان كانت بسبب طاعات يفعلها العبد فيثيبه عليها : فهو سبحانه المنعم بالعبد وبطاعته وثوابه عليها ، فإنه سبحانه هو الذى خلق العبد وجعله مسلماً طائعاً ، كما قال الخليل : (الذى خلقنى فهو يهدين) وقال : (واجعلنا مسلمين

لك) وقال : (اجعلنى مقيم الصلاة) وقال : (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) فسأل ربه أن يجعله مسلماً وأن يجعله مقيم الصلاة . وقال : (ولكن الله حبب اليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم) الآية : قال فى آخرها : (فضلا من الله ونعمة) .

وفى صحيح أبى داود وابن حبان : « إهدنا سبل السلام ، ونجنا من الظلمات الى النور ، واجعلنا شاكرين لنعمتك مثنين بها عليك ، قابليها ، وأتمها علينا » وفى الفاتحة : (إهدنا الصراط المستقيم) وفى الدعاء الذى رواه الطبرانى عن ابن عباس قال : مما دعا به رسول الله صلى الله وسلم عشية عرفة : « اللهم انك تسمع كلامى ، وترى مكانى ، وتعلم سرى وعلانيتى ، ولا يخفى عليك شىء من أمرى ، أنا البائس الفقير ، المستغيث المستجير ، الوجل المشفق ، المقر بذنبه ، أسألك مسئلة المسكين ، وأبتهل اليك ابتهال المذنب الذليل ، وأدعوك دعاء الخائف الضرير ، من خضعت لك رقبته ، وذل لك جسده ، ورغم لك أنفه ، أللهم لا تجعلنى بدعائك رب شقياً وكن بى رؤوفا رحيما يا خير المسئولين ، ويا خير المعطين » .

ولفظ العبد فى القرآن : يتناول من عبد الله . فأما عبد لا يعبده فلا يطلق عليه لفظ عبده . كما قال : (ان عبادى ليس لك عليهم سلطان) وأما قوله (الامن اتبعك من الغاوين) فالإستثناء فيه منقطع ، كما قاله أكثر المفسرين والعلماء ، وقوله : (عينا يشرب بها عباد الله) (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً) (واذكر عبدنا داود) و (نعم العبد إنه أواب) (وأذكر عبدنا أيوب) (وأذكر عبادنا ابراهيم واسحق ويعقوب) (فوجدا عبداً من عبادنا) (سبحان

الذى أسرى بعبده) (إنه كان عبداً شكوراً) (وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا) (فأوحى الى عبده ما أوحى) (وأنه لما قام عبد الله يدعوه) (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده) . ونحو هذا كثير . وقد يطلق لفظ العبد على المخلوقات كلها ، كقوله : (ان الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم) (أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادى من دونى أولياء) . قد يقال فى هذا : أن المراد به الملائكة ، والأنبياء ، اذا كان قد نهى اتخاذهم أولياء : فغيرهم بطريق الأولى . فقد قال : (ان كل من فى السموات والأرض الا آتى الرحمن عبداً) .

وفى الحديث الصحيح الذى رواه مسلم فى الدجال : « فيوحى الله الى المسيح أن لى عباداً لا يدان لأحد بقتالهم » وهذا كقوله : « بعثنا عليكم عباداً لنا » ، فهؤلاء لم يكونوا مطيعين لله ، لكنهم معبدون ، مذللون ، مقهورون ، يجرى عليهم قدره .

وقد يكون كونهم عبيداً : هو اعترافهم بالصانع وخضوعهم له وان كانوا كفاراً . كقوله : (وما يؤمن أكثرهم بالله الاوهم مشركون) وقوله : (الا آتى الرحمن عبداً) أى ذليلا خاضعاً . ومعلوم أنهم لا يأتون يوم القيامة الا كذلك ، وانما الاستكبار عن عبادة الله كان فى الدنيا ، ثم قال : (لقد أحصاهم وعدهم عداً . وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً) ، فذكر بعدها أنه يأتى منفرداً كقوله (ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة) وقال : (وله أسلم من فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً) (ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعاً وكرها) الآية . وقال : (بل له ما فى السموات والأرض كل له قانتون) فليس المراد بذلك مجرد كونهم مخلوقين مدبرين مقهورين تحت المشيئة والقدرة فإن هذا

لا يقال طوعاً وكرهاً فإن الطوع والكره انما يكون لما يفعله الفاعل طوعاً وكرهاً ، فأما ما لا فعل له فيه : فلا يقال له ساجد أو قانت ، بل ولا مسلم ، بل الجميع مقرون بالصانع بفطرتهم ، وهم خاضعون مستسلمون ، قانتون مضطرون من وجوه .

منها : علمهم بحاجتهم وضرورتهم اليه . ومنها : دعاؤهم اياه عند الاضطرار . ومنها : خضوعهم واستسلامهم لما يجرى عليهم من أقداره ومشيئته . ومنها : انقيادهم لكثير مما أمر به فى كل شىء ، فإن سائر البشر لا يمكنون العبد من مراده بل يقهرونه ويلزمونه بالعدل الذى يكرهه ، وهو مما أمر الله به ، وعصيانهم له فى بعض ما أمر به — وان كان هو التوحيد — لا يمنع كونهم قانتين خاضعين ، مستسلمين كرعاً ، كالعصاة من أهل القبلة وأهل الذمة وغيرهم ، فإنهم خاضعون للدين الذى بعث به رسله ، وان كانوا يعصونه فى أمور .

والمؤمن يخضع لأمر ربه طوعاً ، وكذلك لما يقدره من المصائب ، فإنه يفعل عندها ما أمر به من الصبر وغيره طوعاً ، فهو مسلم لله طوعاً خاضع له طوعاً ، والسجود مقصوده الخضوع ، وسجود كل شىء بحسبه ، سجوداً يناسبها ويتضمن الخضوع للرب .

وأما فقر المخلوقات الى الله : بمعنى حاجتها كلها اليه ، وأنه لا وجود لها ولا شىء من صفاتها ، وأفعالها الا به . فهذا : أول درجات الافتقار ، وهو افتقارها الى ربوبيته لها ، وخلقه واتقانه ، وبهذا الاعتبار كانت مملوكة له ، وله سبحانه الملك والحمد .

وهذا معلوم عند كل من آمن بالله ورسله الايمان الواجب ، فالحدوث

دليل افتقار الأشياء الى محدثها ، وكذلك حاجاتها الى محدثها بعد احداثه لها : دليل افتقارها فإن الحاجة الى الرزق دليل افتقار المرزوق الى الخالق الرازق .

والصواب : أن الأشياء مفتقرة الى الخالق لذواتها لا لأمر آخر جعلها مفتقرة اليه ، بل فقرها لازم لها ، لايمكن أن تكون غير مفتقرة اليه ، كما أن غناء الرب وصف لازم له لايمكن أن يكون غير غنى ، فهو غنى بنفسه لا بوصف جعله غنياً ، وفقر الأشياء الى الخالق وصف لها ، وهى معدومة وهى موجودة فإذا كانت معدومة فقيل عن مطر ينتظر نزوله وهو مفتقر الى الخالق كان معناه : أنه لايوجد الا بالخالق هذا قول الجمهور من نظار المسلمين وغيرهم ، وهذا الافتقار أمر معلوم بالعقل ، وما أثبته القرآن من استسلام المخلوقات وسجودها وتسبيحها وقنوتها : أمر زائد على هذا عند عامة المسلمين من السلف وجمهور الخلف .

ولكن طائفة تدعى أن افتقارها ، وخضوعها ، وخلقها ، وجريان المشيئة عليها : هو تسبيحها وقنوتها ، وان كان ذلك بلسان الحال ، ولكونها دلالة شاهدة للخالق جل جلاله . وقل للأرض من فجر أنهارها ، وغرس أشجارها ، وأخرج نباتها وثمارها ، فإن لم تجبك حواراً والا أجابتك اعتباراً ، وهذا يقوله الغزالى وغيره ، وهو أحد الوجوه التى ذكرها أبو بكر بن الأنبارى فى قوله : (كل له قانتون) قال : كل مخلوق قانت له باشر صنعته فيه وجرى أحكامه عليه ، فذلك دليل على ذله لربه ، وهو الذى ذكره الزجاج فى قوله : (وله أسلم من فى السموات والارض) قال : اسلام الكل خضوعهم لنفاذ أمره فى جبلهم ، لايقدر أحد يمتنع من جبلة جبله الله عليها ، وهذا المعنى صحيح ، لكن الصواب

الذى عليه جمهور علماء السلف والخلف : أن القنوت ، والاستسلام ، والتسبيح أمر زائد على ذلك ، وهذا كقول بعضهم : ان سجود الكاره وذله وانقياده لما يريده الله منه من عافية ومرض وغنى وفقر ، وكما قال بعضهم فى قوله : (وان من شيء الا يسبح بحمده) . قال : تسبيحه دلالته على صانعه فتوجب بذلك تسبيحاً من غيره ، والصواب أن لها تسبيحاً وسجوداً بحسبها .

والمقصود أن فقر المخلوقات الى الخالق ودلالتها عليه وشهادتها له : أمر فطرى فطر الله عليه عباده ، كما أنه فطرهم على الإقرار به بدون هذه الآيات ، كما قد بسط الكلام على هذا فى مواضع ، وبين الفرق بين دلالة الآيات ودلالة القياس الشمولى ، والتمثيلى ، فإن القياس البرهانى العقلى : سواء صيغ بلفظ الشمول ، كالأشكال المنطقية ، أو صيغ بلفظ التمثيل ، وبين أن الجامع هو علة الحكم ويلزم ثبوت الحكم أينما وجد ، وقد بسطنا الكلام على صورة القياسين فى غير هذا الموضع .

والتحقيق : أن العلم بأن المحدث لا بد له من محدث هو علم فطرى ، ضرورى فى المعينات الجزئية ، وأبلغ مما هو فى القضية الكلية ، فإن الكليات : انما تصير كليات فى العقل بعد استقرار جزئياتها فى الوجود ، وكذلك عامة القضايا الكلية ، التى يجعلها كثير من النظار المتكلمة والمتفلسفة أصول علمهم ، كقولهم : الكل أعظم من الجزء أو النقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان ، والاشياء المساوية لشيء واحد متساوية ونحو ذلك ، فإنه أى كلى تصوره الإنسان علم أنه أعظم من جزئيه ، وان لم تخطر له القضية الكلية كما يعلم أن بدن الانسان بعضه أكثر من بعض وأن الدرهم أكبر من بعضه ، وأن المدينة أكثر من بعضها

وأن الجبل أكبر من بعضه ، وكذلك النقيضان وهما : الوجود والعدم ، فإن العبد اذا تصور وجود أى شيء كان وعدمه : علم أن ذلك الشيء لا يكون موجوداً معدوماً فى حالة واحدة وأنه لايخلو من الوجود والعدم ، وهو يقضى بالجزئيات المعينة ، وان لم يستحضر القضية الكلية ، وهكذا أمثال ذلك .

ولما كان القياس الكلى فائدته أمر مطلق لا معين : كان اثبات الصانع بطريق الآيات هو الواجب . كما نزل به القرآن ، وفطر الله عليه عباده ، وان كانت الطريقة القياسية صحيحة ، لكن فائدتها ناقصة ، والقرآن اذا استعمل فى الآيات الالهيات : استعمل قياس الأولى لا القياس الذى يدل على المشترك ، فإنه ما وجب تنزيه مخلوق عنه من النقائص والعيوب التى لا كمال فيها . فالبارى تعالى أولى بتنزيهه عن ذلك ، وما ثبت للمخلوق من الكمال الذى لا نقص فيه كالحياة ، والعلم ، والقدرة : فالخالق أولى بذلك منه ، فالمخلوقات كلها آيات للخالق ، والفرق بين الآية وبين القياس : أن الآية تدل على عين المطلوب الذى هى آية وعلامة عليه ، فكل مخلوق فهو دليل . وآية على الخالق نفسه ، كما قد بسطناه فى مواضع .

ثم الفطر تعرف الخالق بدون هذه الآيات ، فإنها قد فطرت على ذلك ، ولو لم تكن تعرفه بدون هذه الآيات : لم تعلم ان هذه الآية له ، فإن كونها آية له ودلالة عليه : مثل كون الإسم يدل على المسمى فلا بد أن يكون قد تصور المسمى قبل ذلك ، وعرف أن هذا اسم له ، فكذلك كون هذا دليلا على هذا يقتضى تصور المدلول عليه وتصور أن ذلك الدليل مستلزم له ، فلا بد فى ذلك أن يعلم أنه مستلزم للمدلول ، فلو لم يكن المدلول متصوراً لم يعلم أنه دليل عليه ،

فعرفة الإضافة متوقفة على تصور المضاف والمضاف اليه ؛ لكن قد لا يكون الإنسان عالماً بالإضافة ، ولا كونه دليلا ، فإذا تصوره عرف المدلول اذا عرف أنه مستلزم له ، والناس يعلمون أن هذه المخلوقات آيات ودلائل للخالق ، فلا بد أن يكونوا يعرفونه ؛ حتى يعلمون أن هذه دلائل مستلزمة له .

والمقصود أن هذه الطرق العقلية الفطرية : هى التى جاء بها القرآن ، واتفق العقل والشرع ، وتلازم الرأى والسمع .

والمتفلسفة كابن سينا والرازى ومن اتبعهما ، قالوا : ان طريق اثباته الاستدلال عليه بالممكنات ، وان الممكن لا بد له من واجب ، قالوا : والوجود إما واجب وإما ممكن ، والممكن لا بد له من واجب ، فيلزم ثبوت الواجب على التقديرين ؛ وهذه المقالة أحدثها ابن سينا ، وركبها من كلام المتكلمين وكلام سلفه ، فإن المتكلمين قسموا الوجود الى قديم ومحدث ، وقسمه هو الى واجب وممكن ، وذلك ان الفلك عنده ليس محدثا ؛ بل زعم أنه ممكن . وهذا التقسيم لم يسبقه اليه أحد من الفلاسفة ، بل حذاقهم عرفوا أنه خطأ ، وأنه خالف سلفه وجمهور العقلاء وغيرهم ، وقد بينا فى مواضع أن القدم ، ووجوب الوجود ، متلازمان عند عامة العقلاء ، الأولين والآخرين ، ولم يعرف عن طائفة منهم نزاع فى ذلك ، إلا ما أحدثه هؤلاء فإنا نشهد حدوث موجودات كثيرة ، حدثت بعد أن لم تكن ، ونشهد عدمها بعد أن كانت ، وما كان معدوماً أو سيكون معدوماً لا يكون واجب الوجود ، ولا قديماً أزلياً .

ثم ان هؤلاء اذا قدر أنهم أثبتوا واجب الوجود : فليس فى دليلهم أنه مغاير للسموات والأفلاك ، وهذا مما بين تهافتهم فيه الغزالى وغيره ، لكن

عمدتهم أن الجسم لا يكون واجباً ، لأنه مركب ، والواجب لا يكون مركباً ، هذا عمدتهم .

وقد بينا بطلان هذا من وجوه كثيرة ، وما زال النظار يبينون فساد هذا القول كل بحسبه ، كما بين الغزالى فساده بحسبه .

وذلك أن لفظ الواجب صار فيه اشتراك بين عدة معان : فيقال للموجود بنفسه الذى لا يقبل العدم فتكون الذات واجبة والصفات واجبة ، ويقال للموجود بنفسه والقائم بنفسه ، فتكون الذات واجبة دون الصفات ، ويقال لمبدع الممكنات ، وهى المخلوقات ، والمبدع لها هو الخالق ، فيكون الواجب هو الذات المتصفة بتلك الصفات ، والذات مجردة عن الصفات لم تخلق ، والصفات مجردة عن الذات لم تخلق ، ولهـــذا صار من سار خلفهم ممن يدعى التحقيق والعرفان ، الى أن جعل الواجب هو الوجود المطلق ، كما قد بسط القول عليه فى مواضع .

والمقصود هنا : الكلام أولا : فى أن سعادة العبد فى كمال افتقاره الى ربه واحتياجه اليه ، أى فى أن يشهد ذلك ويعرفه ، ويتصف معه بموجب ذلك من الذل والخضوع والخشوع ، والا فالخلق كلهم محتاجون ، لكن يظن أحدهم نوع استغناء فيطغى . كما قال تعالى : (كلا ان الإنسان ليطغى أن رآه استغنى) وقال : (واذا أنعمنا على الانسان أعرض ونآ بجانبه واذا مسه الشر فذو دعاء عريض) وفى الآية الأخرى : (كان يؤساً) .

فصـــــل

والسعادة فى معاملة الخلق : أن تعاملهم لله فترجو الله فيهم ولا ترجوهم فى الله ، وتخافه فيهم ولا تخافهم فى الله ؛ وتحسن اليهم رجاء ثواب الله لا لمكافئتهم ، وتكف عن ظلمهم خوفاً من الله لا منهم . كما جاء فى الأثر : « أرج الله فى الناس ولا ترج الناس فى الله وخف الله فى الناس ولا تخف الناس فى الله » أى : لا تفعل شيئاً من أنواع العبادات والقرب لأجلهم ، لا رجاء مدحهم ولا خوفاً من ذمهم ، بل ارج الله ولا تخفهم فى الله فيما تأتى وما تذر بل افعل ما أمرت به وان كرهوه . وفى الحديث : « إن من ضعف اليقين أن ترضى الناس بسخط الله أو تذمهم على ما لم يؤتك الله » فإن اليقين يتضمن اليقين فى القيام بأمر الله وما وعد الله أهل طاعته ، ويتضمن اليقين بقدر الله وخلقه وتدبيره ، فإذا أرضيتهم بسخط الله لم تكن موقنا : لا بوعده ولا برزقه ، فإنه إنما يحمل الانسان على ذلك ، إما ميل الى ما فى أيديهم من الدنيا : فيترك القيام فيهم بأمر الله ، لما يرجوه منهم . وإما ضعف تصديق بما وعد الله أهل طاعته من النصر والتأييد والثواب فى الدنيا والآخرة ، فإنك اذا أرضيت الله : نصرك ، ورزقك وكفاك مؤنتهم ، فإرضاؤهم بسخطه إنما يكون خوفاً منهم ورجاء لهم ؛ وذلك من ضعف اليقين .

واذا لم يقدر لك ما تظن أنهم يفعلونه معك : فالأمر فى ذلك الى الله لا لهم ،

فإنه ماشاء كان ومالم يشأ لم يكن ، فإذا ذممتهم على مالم يقدر : كان ذلك من ضعف يقينك ، فلا تخفهم ولا ترجهم ولا تذمهم من جهة نفسك وهواك ؛ لكن من حمده الله ورسوله فهو المحمود ، ومن ذمه الله ورسوله فهو المذموم .

ولما قال بعض وفد بنى تميم : يا محمد أعطنى فإن حمدى زين وإن ذمى شين . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ذاك الله عز وجل » .

وكتبت عائشة الى معاوية ، وروى أنها رفعته الى النبى صلى الله عليه وسلم : « من أرضى الله بسخط الناس كفاه مؤنة الناس ، ومن أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئاً » هذا لفظ المرفوع ولفظ الموقوف : « من أرضى الله بسخط الناس رضى الله عنه وأرضى عنه الناس ، ومن أرضى الناس بسخط الله عاد حامده من الناس له ذاماً » هذا لفظ المأثور عنها ، وهذا من أعظم الفقه فى الدين ، والمرفوع أحق وأصدق ، فإن من أرضى الله بسخطهم كان قد اتقاه : وكان عبده الصالح والله يتولى الصالحين ، وهو كاف عبده (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب) . فالله يكفيه مؤنة الناس بلا ريب ، وأما كون الناس كلهم يرضون عنه : فقد لا يحصل ذلك ، لكن يرضون عنه اذا سلموا من الأغراض واذا تبين لهم العاقبة ، ومن أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئاً ، كالظالم الذى يعض على يده يقول : (ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ياويلتى ليتنى لم أتخذ فلاناً خليلا) وأما كون حامده ينقلب ذاماً : فهذا يقع كثيراً ، ويحصل فى العاقبة ، فإن العاقبة للتقوى ، لا يحصل ابتداء عند أهوائهم وهو سبحانه أعلم .

فالتوحيد ضد الشرك ، فإذا قام العبد بالتوحيد الذى هو حق الله ، فعبده

لا يشرك به شيئاً كان موحداً . ومن توحيد الله وعبادته : التوكل عليه والرجاء له ، والخوف منه ، فهذا يخلص به العبد من الشرك . وإعطاء الناس حقوقهم ، وترك العدوان عليهم : يخلص به العبد من ظلمهم ، ومن الشرك بهم . وبطاعة ربه واجتناب معصيته : يخلص العبد من ظلم نفسه وقد قال تعالى فى الحديث القدسى : « قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين » . فالنصفان يعود نفعهما الى العبد ، وكما فى الحديث الذى رواه الطبرانى فى الدعاء : « ياعبادى : انما هى أربع واحدة لى ، وواحدة لك ، وواحدة بينى وبينك ، وواحدة بينك وبين خلق فالتى لى : تعبدنى لاتشرك بى شيئاً . والتى لك : عملك أجزيك به أحوج ماتكون اليه . والتى بينى وبينك : فمنك الدعاء وعلى الاجابة . والتى بينك وبين خلق : فأت اليهم ما تحب أن يأتوه اليك» والله يحب النصفين .

ويحب أن يعبدوه . وما يعطيه الله العبد من الإعانة والهداية هو من فضله واحسانه ، وهو وسيلة الى ذلك المحبوب ، وهو إنما يحبه لكونه طريقاً الى عبادته ، والعبد يطلب ما يحتاج أولا ، وهو محتاج الى الاعانة على العبادة والى الهداية الى الصراط المستقيم ، وبذلك يصل الى العبادة . فهو يطلب ما يحتاج اليه أولا ليتوسل به الى محبوب الرب ، الذى فيه سعادته . وكذلك قوله : « عملك أجزيك به أحوج ما تكون اليه » فإنه يحب الثواب الذى هو جزاء العمل ، فالعبد انما يعمل لنفسه ، (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) ثم اذا طلب العبادة : فإنما يطلبها من حيث هى نافعة له ، محصلة لسعادته ، محصنة له من عذاب ربه فلا يطلب العبد قط الا مافيه حظ له وان كان الرب يحب ذلك فهو يطلبه من حيث هو ملائم له فمن عبد الله لا يشرك به شيئاً : أحبه وأثابه ، فيحصل

للعبد مايحبه من النعم تبعاً لمحبوب الرب ، وهذا كالبائع والمشترى ، البائع يريد من المشترى أولا الثمن ، ومن لوازم ذلك : ارادة تسليم المبيع ، والمشترى يريد السلعة ، ومن لوازم ذلك : ارادة اعطاء الثمن .

فالرب يحب أن يحب . ومن لوازم ذلك: أن يحب من لا تحصل العبادة إلا به والعبد يحب مايحتاج اليه وينتفع به ومن لوازم ذلك ، محبته لعبادة الله فمن عبد الله وأحسن الى الناس، فهذا قائم بحقوق الله وحق عباد الله ، فى اخلاص الدين له . ومن طلب من العباد العوض ثناء أودعاء أوغير ذلك لم يكن محسناً اليهم لله . ومن خاف الله فيهم ولم يخفهم فى الله كان محسناً الى الخلق والى نفسه ، فإن خوف الله تحمله على ان يعطيهم حقهم ويكف عن ظلمهم ، ومن خافهم ولم يخف الله فهذا ظالم لنفسه ولهم ، حيث خاف غير الله ورجاه ، لأنه اذا خافهم دون الله احتاج أن يدفع شرهم عنه بكل وجه ، إما بمداهنتهم ومراءاتهم ، وإما بمقابلتهم بشىء أعظم من شرهم أو مثله ، واذا رجاهم لم يقم فيهم بحق الله ، وهو اذا لم يخف الله فهو مختار للعدوان عليهم ، فإن طبع النفس الظلم لمن لا يظلمها فكيف بمن يظلمها؟ فتجد هذا الضرب كثير الخوف من الخلق كثير الظلم اذا قدر مهين ذليل اذا قهر ، فهو يخاف الناس بحسب ما عنده من ذلك ، وهذا مما يوقع الفتن بين الناس .

وكذلك اذا رجاهم فهم لا يعطونه مايرجوه منهم ، فلابد أن يبغضهم فيظلمهم اذا لم يكن خائفاً من الله عز وجل ، وهذا موجود كثير فى الناس ، تجدهم يخاف بعضهم بعضاً ويرجوا بعضهم بعضاً ، وكل من هؤلاء يتظلم من الآخر ، ويطلب ظلمه ، فهم ظالمون بعضهم لبعض ، ظالمون فى حق الله حيث خافوا غيره ورجو غيره ، ظالمون لأنفسهم ، فإن هذا من الذنوب التى تعذب النفس بها وعليها ، وهو يجر الى فعل المعاصى المختصة ، كالشرك والزنا ، فإن الإنسان اذا لم يخف

من الله اتبع هواه ، ولا سيما إذا كان طالباً ما لم يحصل له ؛ فإن نفسه تبقى طالبة لما تستريح به وتدفع به الغم والحزن عنها ، وليس عندها من ذكر الله وعبادته ماتستريح إليه وبه ؛ فيستريح إلى المحرمات من فعل الفواحش وشرب المحرمات وقول الزور ، وذكر ماجريات النفس والهزل واللعب ومخالطة قرناء السوء وغير ذلك ولا يستغنى القلب إلا بعبادة الله تعالى .

فإن الإنسان خلق محتاجاً إلى جلب ما ينفعه ، ودفع مايضره ، ونفسه مريدة دائماً ، ولا بد لها من مراد يكون غاية مطلوبها لتسكن اليه وتطمئن به ، وليس ذلك إلا لله وحده ؛ فلا تطمئن القلوب إلا به ، ولا تسكن النفوس إلا اليه ، و (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) فكل مألوه سواه يحصل به الفساد ، ولا يحصل صلاح القلوب إلا بعبادة الله وحده لاشريك له .

فإذا لم تكن القلوب مخلصة لله الدين : عبدت غيره ؛ من الآلهة التى يعبدها أكثر الناس مما رضوه لأنفسهم ؛ فأشركت بالله بعبادة غيره ، واستعانته ؛ فتعبد غيره وتستعين به لجهلها بسعادتها التى تنالها بعبادة خالقها والاستعانة به ؛ فبالعبادة له تستغنى عن معبود آخر ، وبالاستعانة به تستغنى عن الاستعانة بالخلق ، وإذا لم يكن العبد كذلك : كان مذنباً محتاجاً ، وإنما غناه فى طاعة ربه ، وهذا حال الإنسان ؛ فإنه فقير محتاج ، وهو مع ذلك مذنب خطاء فلا بد له من ربه ؛ فإنه الذى يسدى مغافِرَهُ ، ولا بد له من الاستغفار من ذنوبه . قال تعالى : (فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك) فبالتوحيد يقوى العبد ويستغنى ، ومن سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله ، وبالاستغفار يغفر له ويدفع عنه عذابه ، (وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) فلا يزول فقر العبد وفاقته

إلا بالتوحيد ، فإنه لابد له منه ، وإذا لم يحصل له لم يزل فقيراً محتاجاً معذباً فى طلب مالم يحصل له . والله تعالى : (لا يغفر أن يشرك به) وإذا حصل مع التوحيد الاستغفار : حصل له غناه وسعادته ، وزال عنه ما يعذبه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

والعبد مفتقر دائماً إلى التوكل على الله والاستعانة به ، كما هو مفتقر إلى عبادته ، فلا بد أن يشهد دائماً فقره الى الله ، وحاجته فى أن يكون معبوداً له ، وأن يكون معيناً له ، فلا حول ولا قوة إلا بالله ، ولا ملجأ من الله إلا اليه . قال تعالى : (إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه) أى يخوفكم بأوليائه . هذا هو الصواب الذى عليه الجمهور ، كابن عباس وغيره وأهل اللغة كالفراء وغيره. قال ابن الانبارى : والذى نختاره فى الآية : يخوفكم أوليائه . تقول العرب أعطيت الأموال : أى أعطيت القوم الأموال ، فيحذفون المفعول الأول .

قلت : وهذا لأن الشيطان يخوف الناس أولياءه تخويفاً مطلقاً ، ليس له فى تخويف ناس بناس ضرورة ، فحذف الأول لأنه ليس مقصوداً .

وقال بعض المفسرين : يخوف أولياءه المنافقين ، والأول أظهر ، لأنها نزلت بسبب تخويفهم من الكفار ، فهى إنما نزلت فيمن خوف المؤمنين من الناس . وقد قال : (يخوف أولياءه فلا تخافوهم) الضمير عائد إلى أولياء الشيطان ، الذين قال فيهم : (فاخشوهم) قبلها ، والذى قال الثانى : فسرها من جهة المعنى ، وهو أن الشيطان إنما يخوف أولياءه ، لأن سلطانه عليهم ، فهو يدخل عليهم المخاوف دائما ، وإن كانوا ذوى عدد وعدد ، وأما المؤمنون فهم متوكلون على الله لايخوفهم الكفار ، أو أنهم أرادوا المفعول الأول ، أى : يخوف

المنافقين أولياءه ، وهو يخوف الكفار ، كما يخوف المنافقين ؛ ولو أريد أنه يجعل أولياءه خائفين لم يكن للضمير ما يعود عليه ؛ وهو قوله : (فلا تخافوهم) .

وأيضاً فإنه يعد أوليـاءه ويمنيهم ؛ ولـكن الكفار : يلقى الله فى قلوبهم الرعب من المؤمنين ، والشيطان لا يختار ذلك . قال تعالى : (لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله) وقال : (سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب) ؛ ولـكن الذين [قالوا] ذلك من السلف أرادوا أن الشيطان يخوف الذين أظهروا الإسلام وهم يوالون العدو فصاروا بذلك منافقين ؛ وإنما يخاف من الـكفار المنافقون بتخويف الشـيطان لهم ، كما قال تعالى : (ولـكنهم قوم يفرقون) وقال : (فإذا جاء الخوف) الآية . فكلا القولين صحيح من حيث المعنى ؛ لـكن لفظ أوليائه هم الذين يجعلهم الشيطان مخوفين لا خائفين ، كما دل عليه السياق ، وإذا جعلهم مخوفين فإنما يخافهم من خوفه الشيطان منهم .

فدلت الآية على أن الشيطان يجعل أولياءه مخوفين ، ويجعل ناساً خائفين منهم .

ودلت الآية على أن المؤمن لايجوز له أن يخاف أوليـاء الشيطان ، ولا يخاف الناس كما قال : (فلا تخشوا الناس واخشون) فخوف الله أمر به وخوف أولياء الشيطان نهى عنه . قال تعالى : (لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشون) فنهى عن خشية الظالم وأمر بخشيته ، وقال: (الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله) وقال : (فإياى فارهبون) .

وبعض الناس يقول : يارب إنى أخافك وأخاف من لايخافك ، فهذا

كلام ساقط لايجوز ، بل على العبد أن يخاف الله وحده ولا يخاف أحداً ، فإن من لايخاف الله أذل من أن يخاف ، فإنه ظالم وهو من أولياء الشيطان ، فالخوف منه قد نهى الله عنه ، وإذا قيل قد يؤذيني قيل : إنما يؤذيك بتسليط الله له ، واذا أراد الله دفع شره عنك دفعه ، فالأمر لله ، وانما يسلط على العبد بذنوبه ، وأنت اذا خفت الله فاتقيته وتوكلت عليه كفاك شر كل شر ، ولم يسلطه عليك ، فإنه قال : (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) ، وتسليطه يكون بسبب ذنوبك وخوفك منه ، فإذا خفت الله وتبت من ذنوبك واستغفرته لم يسلط عليك ، كما قال : (وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون).

وفى الآثار : « يقول الله : أنا الله لا اله الا أنا ملك الملوك ، قلوب الملوك ونواصيها بيدى ، فمن أطاعنى جعلت قلوب الملوك عليه رحمة ، ومن عصانى جعلتهم عليه نقمة ، فلا تشغلوا أنفسكم بسب الملوك ، ولكن توبوا الىّ وأطيعون أعطفهم عليكم ».

ولما سلط الله العدو على الصحابة يوم أحد قال : (أولما أصابتكم مصيبة) ؟! الآية وقال : (وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير) الآيات — والأكثرون يقرؤن قاتل — والربيون الكثير عند جماهير السلف والخلف : هم الجماعات الكثيرة ، قال ابن مسعود وابن عباس فى رواية عنه والفراء : ألوف كثيرة وقال ابن عباس فى أخرى ومجاهد وقتادة : جماعات كثيرة وقرىء بالحركات الثلاث فى الراء . فعلى هذه القراءة فالربيون الذين قاتلوا معه : الذين ما وهنوا وما ضعفوا . وأما على قراءة أبى عمرو وغيره ففيها وجهان :—

أحدهما : يوافق الأول أى الربيون يقتلون فما وهنوا ، أيما ما وهن من بقى

منهم ، لقتل كثير منهم أى ما ضعفوا لذلك ولا دخلهم خور ولا ذلوا لعدوهم ، بل قاموا بأمر الله فى القتال حتى أدالهم الله عليهم وصارت كلمة الله هى العليا .

والثانى : أن النبي صلى الله عليه وسلم قتل معه ربيون كثير فما وهن من بقى منهم لقتل النبي صلى الله عليه وسلم . وهذا يناسب صرخ الشيطان أن محمداً قد قتل ، لكن هذا لا يناسب لفظ الآية ، فالمناسب أنهم مع كثرة المصيبة ما وهنوا ؛ ولو أريد أن النبي قتل ومعه ناس لم يخافوا لم يحتج إلى تكثيرهم بل تقليلهم هو المناسب لها ؛ فإذا كثروا لم يكن فى مدحهم بذلك عبرة .

وأيضاً لم يكن فيه حجة على الصحابة ؛ فإنهم يوم أحد قليلون والعدو أضعافهم ، فيقولون ولم يهنوا ؛ لأنهم ألوف ونحن قليلون .

وأيضاً فقوله : (وكأين من نبي) يقتضى كثرة ذلك ، وهذا لا يعرف أن أنبياء كثيرون قتلوا فى الجهاد .

وأيضاً فيقتضى أن المقتولين مع كل واحد منهم ربيون كثير ، وهذا لم يوجد ؛ فإن من قبل موسى من الأنبياء لم يكونوا يقاتلون ، وموسى وأنبياء بنى إسرائيل لم يقتلوا فى الغزو ؛ بل ولا يعرف نبي قتل فى جهاد ، فكيف يكون هذا كثيراً ويكون جيشه كثيراً ؟!

والله سبحانه أنكر على من ينقلب سواء كان النبي مقتولا أو ميتاً ، فلم يذمهم إذا مات أو قتل على الخوف بل على الانقلاب على الأعقاب ، ولهذا تلاها الصديق رضى الله عنه بعد موته صلى الله عليه وسلم فكأن لم يسمعوها قبل ذلك .

ثم ذكر بعدها معنى آخر : وهو أن من كان قبلكم كانوا يقاتلون فيقتل منهم

خلق كثير . وهم لا يهنون ، فيكون ذكر الكثرة مناسبا لأن من قتل مع الأنبياء كثير ، وقتل الكثير من الجنس يقتضى الوهن ، فما وهنوا وان كانوا كثيرين ولو وهنوا دل على ضعف إيمانهم ، ولم يقل هنا : ولم ينقلبوا على أعقابهم فلو كان المراد أن نبيهم قتل لقال فانقلبوا على أعقابهم ، لأنه هو الذى أنكره إذا مات النبي أو قتل ، فأنكر سبحانه شيئين : الارتداد إذا مات أو قتل ، والوهن والضعف والاستكانة لما أصابهم فى سبيل الله من استيلاء العدو ، ولهذا قال : (فما وهنوا لما أصابهم) الخ . ولم يقل : فما وهنوا لقتل النبي ، ولو قتل وهم أحياء لذكر مايناسب ذلك، ولم يقل : (فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله) ، ومعلوم انما يصيب فى سبيل الله فى عامة الغزوات لا يكون قتل نبي .

وأيضاً فكون النبي قاتل معه أو قتل معه ربيون كثير : لا يستلزم أن يكون النبي معهم فى الغزاة ، بل كل من اتبع النبي وقاتل على دينه فقد قاتل معه ، وكذلك كل من قتل على دينه فقد قتل معه ، وهذا الذى فهم الصحابة ، فإن أعظم قتالهم كان بعد وفاته صلى الله عليه وسلم ، حتى فتحوا البلاد شاماً ، ومصراً ، وعراقاً ، ويمناً ، وعرباً ، وعجماً ، وروماً ، ومغرباً ، ومشرقاً ، وحينئذ فظهر كثرة من قتل معه ، فإن الذين قاتلوا وأصيبوا وهم على دين الأنبياء كثيرون ، ويكون فى هذه الآية عبرة لكل المؤمنين إلى يوم القيامة ، فإنهم كلهم يقاتلون مع النبي صلى الله عليه وسلم على دينه ، وإن كان قد مات ، والصحابة الذين يغزون فى السرايا والنبي ليس معهم : كانوا معه يقاتلون وهم داخلون فى قوله : (محمد رسول الله والذين معه) الآية وفى قوله : (والذين آمنوا من بعد وهاجروا

وجاهدوا معكم) الآية . ليس من شرط من يكون مع المطاع أن يكون مشاهداً للمطاع ناظراً إليه .

وقد قيل فى: (ربيون) هنا : انهم العلماء، فلما جعل هؤلاء هذا كلفظ الربانى ، وعن ابن زيد هم الأتباع كأنه جعلهم المربوبين . والأول أصح من وجوه :-

أحدها : أن الربانيين عين الأحبار ، وهم الذين يربون الناس ، وهم أئمتهم فى دينهم ، ولا يكون هؤلاء إلا قليلا .

الثانى : أن الأمر بالجهاد والصبر لا يختص بهم ، وأصحاب الأنبياء لم يكونوا كلهم ربانيين وان كانوا قد أعطوا علما ومعهم الخوف من الله عز وجل .

الثالث : أن استعمال لفظ الربانى فى هذا ليس معروفاً فى اللغة .

الرابع : أن استعمال لفظ الربى فى هذا ليس معروفاً فى اللغة ؛ بل المعروف فيها هو الأول ، والذين قالوه قالوا : هو نسبة للرب بلا نون والقراءة المشهورة (ربى) بالكسر ، وما قالوه إنما يتوجه على من قرأه بنصب الراء ، وقد قرىء بالضم ، فعلم أنها لغات .

الخامس : أن الله تعالى يأمر بالصبر والثبات كل من يأمره بالجهاد ، سواء كان من الربانيين أو لم يكن .

السادس : أنه لا مناسبة فى تخصيص هؤلاء بالذكر ، وإنما المناسب ذكرهم فى مثل قوله : (لولا ينهاهم الربانيون والأحبار) الآية . وفى قوله : (ولكن كونوا ربانيين) فهناك ذكرهم به مناسباً .

السابع : قيل : إن الربانى منسوب إلى الرب ، فزيادة الألف والنون كاللحيانى وقيل الى تربيته الناس ، وقيل الى ربان السفينة ، وهذا أصح ؛ فإن

الأصل عدم الزيادة فى النسبة ، لأنهم منسوبون الى التربية ، وهذه تختص بهم ، وأما نسبتهم إلى الرب فلا اختصاص لهم بذلك ؛ بل كل عبد له فهو منسوب إليه ، إما نسبة عموم أو خصوص ولم يسم الله أولياءه المتقين ربانيين ، ولاسمى به رسله وأنبياءه ، فإن الربانى من يرب الناس ، كما يرب الربانى السفينة ؛ ولهذا كان الربانيون يذمون تارة ، ويمدحون أخرى ، ولو كانوا منسوبين الى الرب لم يذموا قط ، وهذا هو الوجه الثامن :

انها إن جعلت مدحاً فقد ذموا فى مواضع ، وإن لم تكن مدحا لم يكن لهم خاصة يمتازون بها من جهة المدح ، وإذا كان منسوبا الى ربانى السفينة بطل قول من يجعل الربانى منسوباً الى الرب ، فنسبة الربيون الى الرب أولى بالبطلان .

التاسع : انه إذا قدر أنهم منسوبون الى الرب : فلا تدل النسبة على أنهم علماء ؛ نعم تدل على إيمان وعبادة وتأله ، وهذا يعم جميع المؤمنين ، فكل من عبدالله وحده لايشرك به شيئا فهومتأله عارف بالله، والصحابة كلهم كذلك ، ولم يسموا ربانيين ولا ربيون ، وإنما جاء أن ابن الحنفية قال لما مات ابن عباس : اليوم مات ربانى هـذه الأمة ، وذلك لكونه يؤدبهم بمـا آتاه الله من العلم ؛ والخلفاء أفضل منهم ، ولم يسموا ربانيين ، وإن كانوا هم الربانيين ، وقال إبراهيم : كان علقمة من الربانيين ؛ ولهذا قال مجاهد : هم الذين يربون الناس بصغار العلم قبل كباره ، فهم أهل الأمر والنهى ، والاحبار يدخل فيه من أخبر بالعلم ورواه عن غيره وحدث به وإن لم يأمر ، أو ينه ، وذلك هو المنقول عن السلف فى الربانى ، نقل عن على قال « هم الذين يغذون الناس بالحكمة

ويربونهم عليها » وعن ابن عباس قال : « هم الفقهاء المعلمون » .

قلت : أهل الأمر والنهى هم الفقهاء المعلمون. وقال قتادة وعطاء : هم الفقهاء العلماء الحكماء . قال ابن قتيبة : واحدهم ربانى وهم العلماء المعلمون . قال أبو عبيد : أحسب الكلمة عبرانية أو سريانية ، وذلك أن أبا عبيد زعم أن العرب لا تعرف الربانيين .

قلت : اللفظة عربية منسوبة الى ربان السفينة الذى ينزلها ويقوم لمصلحتها ؛ ولكن العرب فى جاهليتهم لم يكن لهم ربانيون ؛ لأنهم لم يكونوا على شريعة منزلة من الله عز وجل .

وقال شيخ الاسلام رحمه الله :-

فصـــــــل

قال الله تعالى : (اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) .

وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون » .

وكتاب الله يدل على ذلك فى مواضع ، مثل قوله تعالى : (قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه) وقوله : (وباؤا بغضب على غضب) وقوله : (وباؤا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة) . وقال فى النصارى : (يا أهل الكتاب لاتغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل) . وقال : (يا أهل الكتاب لاتغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله الا الحق انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله . وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه) وقال تعالى : (وقالت اليهود عزير ابن الله . وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون؟ . اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا الا ليعبدوا الهاً واحداً لا اله الا هو سبحانه عما يشركون) . وقال تعالى : (ما كان لبشر

أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لى من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون . ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون) وقال تعالى : (قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا . أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ، ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً) .

ولما أمرنا الله سبحانه : أن نسأله فى كل صلاة أن يهدينا الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين ، والصديقين ، والشهداء ، والصالحين ، المغايرين للمغضوب عليهم وللضالين : كان ذلك مما يبين أن العبد يخاف عليه أن ينحرف الى هذين الطريقين ، وقد وقع ذلك كما أخبر به النبى صلى الله عليه وسلم حيث قال : «لتسلكن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة ؛ حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه» قالوا يا رسول الله : اليهود والنصارى؟ قال : «فمن؟» وهو حديث صحيح .

وكان السلف يرون أن من انحرف من العلماء عن الصراط المستقيم : ففيه شبه من اليهود ، ومن انحرف من العباد : ففيه شبه من النصارى ، كما يرى فى أحوال منحرفة أهل العلم : من تحريف الكلم عن مواضعه ، وقسوة القلوب ، والبخل بالعلم ، والكبر وأمر الناس بالبر ونسيان أنفسهم ، وغير ذلك . وكما يرى فى منحرفة أهل العبادة والأحوال من الغلو فى الأنبياء والصالحين ، والابتداع فى العبادات ، من الرهبانية والصور والأصوات .

ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم : «لا تطرونى كما أطرت النصارى

عيسى بن مريم فإنما أنا عبـد فقولوا عبد الله ورسوله » ولهذا حقق الله له نعت العبودية فى أرفع مقاماته حيث قال : (سبحان الذى أسرى بعبـــده ليلا) . وقال تعالى : (فأوحى إلى عبده ما أوحى) . وقال تعالى : (وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً) . ولهذا يشرع فى التشهد وفى سائر الخطب المشروعة ، كخطب الجمع والأعياد ، وخطب الحاجات عند النكاح وغيره ، أن تقول : أشهد أن لا إله الا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحقق عبوديته ؛ لئلا تقع الأمة فيما وقعت فيه النصارى فى المسيح ؛ من دعوى الألوهيـة ، حتى قال له رجل : ماشاء الله وشئت . فقال : « أجعلتنى لله نداً ؟ بل ما شاء الله وحده » . وقال أيضاً لأصحابه : « لاتقولوا ما شاء الله وشاء محمد ، بل قولوا ما شاء الله ثم شاء محمد » وقال : « لاتتخذوا قبرى عيداً وصلوا على حيث ما كنتم فإن صلاتكم تبلغنى . وقال : « اللهم لاتجعل قبرى وثناً يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» وقال : « إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فانى أنهاكم عن ذلك » .

والغلو فى الآمة وقع فى طائفتين : طائفة من ضلال الشيعة الذين يعتقدون فى الأنبياء والأئمة من أهل البيت الألوهية ، وطائفة من جهـال المتصوفة يعتقدون نحو ذلك فى الأنبياء والصالحين ، فمن توهم فى نبينا أو غيره من الأنبياء شيئاً من الالوهية والربوبية ؛ فهو من جنس النصارى وإنما حقوق الأنبيـاء ماجاء به الكتاب والسنة عنهم . قال تعالى فى خطابه لبنى إسرائيل : (وآمنتم برسلى وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم

جنات تجرى من تحتها الانهار) والتعزير : النصر والتوقير والتأييد .

وقال تعالى : (إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً . لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه) . فهـذا فى حق الرسول ، ثم قال فى حق الله تعالى : (وتسبحوه بكرة وأصيلا) . وقال تعالى (ورحمتى وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذينهم بآياتنا يؤمنون . الذين يتبعون الرسول النبي الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والاغلال التى كانت عليهم . فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون) . وقال تعالى : (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم) . (قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين) . وقال تعالى : (إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) . وقال تعالى : (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا) .

وذكر طاعة الرسول فى أكثر من ثلاثين موضعاً من القرآن . وقال : (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم) وقال تعالى : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) وقال تعالى : (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) وقال تعالى : (إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك

هم المفلحون ، ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون)
فجعل الطاعة لله والرسول ، وجعل الخشية والتقوى لله وحده . كما قال : (فإياى فارهبوه) . وقال : (فإياى فاتقون) وقال : (فلا تخشوا الناس واخشون) . وقال : (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم) ! وقال تعالى : (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا) وقال تعالى : (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من ولده ووالده والناس أجمعين » . وقال له عمر : والله يارسول الله لأنت أحب إلى من كل أحد إلا من نفسى ، فقال : « لا يا عمر ، حتى أكون أحب اليك من نفسك » فقال : فأنت أحب الى من نفسى قال : « الآن يا عمر » .

فقد بين الله فى كتابه حقوق الرسول من الطاعة له ، ومحبته ، وتعزيره ، وتوقيره ، ونصره ، وتحكيمه ، والرضى بحكمه ، والتسليم له ، واتباعه والصلاة والتسليم عليه ، وتقديمه على النفس والأهل والمال ، ورد مايتنازع فيه اليه وغير ذلك من الحقوق .

وأخبر أن طاعته طاعته فقال : (من يطع الرسول فقد أطاع الله) ومبايعته مبايعته فقال : (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله) وقرن بين اسمه واسمه فى المحبة فقال : (أحب اليكم من الله ورسوله) . وفى الأذى فقال : (إن الذين يؤذون الله ورسوله) وفى الطاعة والمعصية فقال : (ومن يطع الله ورسوله) . (ومن يعص الله ورسوله) ، وفى الرضا فقال : (والله ورسوله أحق أن يرضوه) فهذا ونحوه هو الذى يستحقه رسول الله بأبى هو وأمى .

فأما العبادة والاستعانة فلله وحده لا شريك له كما قال : (اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً) (إياك نعبد وإياك نستعين) . (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء) وقد جمع بينهما فى مواضع كقوله : (فاعبده وتوكل عليه) . وقوله : (وتوكل على الحى الذى لايموت وسبح بحمده) . وقوله : (عليه توكلت وإليه أنيب) .

وكذلك التوكل كما قال : (وعلى الله فليتوكل المتوكلون) وقال : (قل أرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته ؟! قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون) وقال : (الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم ايماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) .

والدعاء لله وحده سواء كان دعاء العبادة ، أو دعاء المسئلة والاستعانة ، كما قال تعالى : (وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً . وأنه لما قام عبدالله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا . قل انما أدعو ربى ولا أشرك به أحداً) وقال تعالى : (فادع الله مخاصين له الدين ولو كره الكافرون) وقال : (فلا تدع مع الله إلهاً آخر فتكون من المعذبين) وقال : (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه) .

وذم الذين يدعون الملائكة والأنبياء وغيرهم فقال: (قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا . أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا) روى عن ابن مسعود : أن قوما كانوا يدعون الملائكة ؛

والمسيح ، وعزيرا ، فقال الله : هؤلاء الذين تدعونهم يخافون الله ، ويرجونه ؛ ويتقربون إليه كما تخافونه أنتم ، وترجونه ، وتتقربون إليه . وقال تعالى : (وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه) وقال : (أم من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله) ؟ وقال : (والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون) .

وتوحيد الله وإخلاص الدين له فى عبادته واستعانته فى القرآن : كثير جدا ؛ بل هو قلب الإيمان ؛ وأول الإسلام وآخره . كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله » وقال : « إنى لأعلم كلمة لا يقولها عند الموت أحد إلا وجد رُوحُه لها روحا » وقال : « من كان آخر كلامه لا إله إلا الله : وجبت له الجنة » وهو قلب الدين والإيمان ، وسائر الأعمال كالجوارح له . وقول النبي صلى الله عليه وسلم : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل أمرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله : فهجرته إلى الله ورسوله . ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها ؛ أو امرأة يتزوجها : فهجرته إلى ما هاجر اليه » فبين بهذا أن النية عمل القلب وهى أصل العمل . وإخلاص الدين لله ، وعبادة الله وحده ، ومتابعة الرسول فيما جاء به ، هو شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله .

ولهذا أنكرنا على الشيخ يحي الصرصرى : ما يتوله فى قصائده فى مدح الرسول من الإستغاثة به ، مثل قوله : بك أستغيث وأستعين وأستنجد . ونحو ذلك .

وكذلك ما يفعله كثير من الناس ، من استنجاد الصالحين والمتشبهين بهم ؛ والإستعانة بهم أحياء وأمواتا ، فإنى أنكرت ذلك فى مجالس عامة وخاصة ، وبينت للناس التوحيد ، ونفع الله بذلك ما شاء الله من الخاصة والعامة .

وهو دين الإسلام العام ، الذى بعث الله به جميع الرسل . كما قال تعالى : (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) وقال : (وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحى إليه أنه لا اله الا أنا فاعبدون) وقال:(واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون) وقال: (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً انى بما تعملون عليم ، وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون) وقال:(شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم اليه) وقال: (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل : يا معاذ أتدرى ما حق الله على عباده ؟ قلت الله ورسوله أعلم . قال : « حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا . أتدرى ما حق العباد على الله اذا فعلوا ذلك ؟ أن لا يعذبهم » وقال لابن عباس : « اذا سألت فاسئل الله واذا استعنت فاستعن بالله » .

ويدخل فى العبادة الخشية ، والإنابة ، والإسلام ، والتوبة ، كما قال تعالى : (الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا الا الله) وقال : (فلا تخشوا الناس واخشون) وقال : (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتا الزكاة ولم يخش الا الله) وقال الخليل : (ولا أخاف ما تشركون به الا أن يشاء ربى شيئا وسع ربى كل شىء علما أفلا

تتذكرون . وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون . الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) . وقال : (ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم) إلى قوله : (أتخشونهم ؟ فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين) (وإياى فاتقون) وقال : (ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه) وقال نوح : (أن اعبدو الله واتقوه وأطيعون) . فجعل العبادة والتقوى لله ، وجعل له أن يطاع . كما قال تعالى : (وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله . وكذلك قالت الرسل مثل نوح ، وهود ، وصالح ، وشعيب ، ولوط وغيرهم : (فاتقوا الله وأطيعون) فجعلوا التقوى لله ، وجعلوا لهم أن يطاعوا . وكذلك فى مواضع كثيرة جدا من القرآن : (اتقوا الله) (اتقوا الله) . (ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله) .

وكذلك [1] .

وقال : (عليه توكلت وإليه أنيب) وقال : (وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له) وقال عن إبراهيم : (إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين) . وقالت بلقيس : (إنى أسلمت مع سليمان لله رب العالمين) وقال : (ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفاً) وقال : (بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه) وقال : (وتوبوا إلى الله جميعاً) (ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب الى الله متابا) ، قال : (فتوبوا إلى بارئكم) (توبوا الى الله توبة نصوحا) ، والاستغفار : (استغفروا ربكم إنه كان غفارا)

---

(١) بياض بالأصل

(وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه) . والإسترزاق والإستنصار ، كما فى صلاة الإستسقاء ، والقنوت على الأعداء ، قال : (فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له) وقال : (إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون) والإستغاثة كما قال : (اذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم) ، والاستجارة كما قال : (قل من بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله ، قل أفلا تتقون) ؟ والإستعاذة كما قال : (قل أعوذ برب الفلق) و (قل أعوذ برب الناس) وقال : (وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون) . وقال : (فإذا قرأت القرآن) الآية . وتفويض الأمر كما قال مؤمن آل فرعون : (وأفوض أمرى الى الله إن الله بصير بالعباد) .

وفى الحديث المتفق عليه فى الدعاء الذى علمه النبي صلى الله عليه وسلم أن يقال عند المنام : « اللهم انى أسلمت نفسى اليك ، ووجهت وجهى اليك ، وفوضت أمرى اليك ، وألجأت ظهرى اليك » .

وقال : (وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا الى ربهم ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع) . وقال : (الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولى ولا شفيع) فالولىّ الذى يتولى أمرك كله ، والشفيع الذى يكون شافعاً فيه أى عوناً ؛ فليس للعبد دون الله من ولىّ يستقل ولا ظهير معين وقال : (وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يردك بخير فلا راد لفضله) ، وقال : (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده) . وقال : (أم اتخذوا من

دون الله شفعاء قل أولو كانوا لايملكون شيئاً ولا يعقلون . قل لله الشفاعة جميعاً له ملك السموات والأرض) ، وقال : (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير . ولا تنفع الشفاعة عنده الا لمن أذن له) . وقال : (من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه) وقال : (وكم من ملك فى السموات لاتغنى شفاعتهم شيئاً الا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى) .

فالعبادة والإستعانة وما يدخل فى ذلك من الدعاء ، والاستغاثة ، والخشية ، والرجاء ، والإنابة ، والتوكل ، والتوبة ، والاستغفار : كل هذا لله وحده لاشريك له ، فالعبادة متعلقة بألوهيته ، والإستعانة متعلقة بربوبيته ، والله رب العالمين لا إله الا هو ، ولا رب لنا غيره ، لاملك ولا نبى ولا غيره ؛ بل أكبر الكبائر الإشراك بالله وأن تجعل له نداً وهو خلقك ، والشرك أن تجعل لغيره شركا أى نصيباً فى عبادتك ، وتوكلك ، واستعانتك ، كما قال من قال : (مانعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى) وكما قال تعالى : (وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء) وكما قال : (أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أولو كانوا لايملكون شيئاً ولا يعقلون) ؟ وكما قال : (مالكم من دونه من ولى ولا شفيع) .

وأصناف العبادات الصلاة بأجزائها مجتمعة ، وكذلك أجزاؤها التى هى عبادة بنفسها ، من السجود ، والركوع ، والتسبيح ، والدعاء ، والقراءة ، والقيام ، لايصلح إلا لله وحده .

ولا يجوز أن يتنفل على طريق العبادة إلا لله وحده ، لا لشمس ، ولا لقمر

ولا لملك ؛ ولا لنبي ؛ ولا صالح ؛ ولا لقبر نبي ؛ ولا صالح ؛ هذا فى جميع ملل الأنبياء ، وقد ذكر ذلك فى شريعتنا حتى نهى أن يتنفل على وجه التحية والإكرام للمخلوقات ؛ ولهذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم معاذا أن يسجد له . وقال : « لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها » . ونهى عن الإنحناء فى التحية ، ونهاهم أن يقوموا خلفه فى الصلاة وهو قاعد .

وكذلك الزكاة العامة ، من الصدقات كلها والخاصة ، لا يتصدق إلا لله ، كما قال تعالى : (وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى) وقال : (إنما نطعمكم لوجه الله) . وقال : (مثـــل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم) وقال : (وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون) . فلا يجوز فعـل ذلك على طريق الدين لا لملك ، ولا لشمس ؛ ولا لقمر ؛ ولا لنبي ؛ ولا لصالح ، كما يفعل بعض السؤال والمعظمين كرامة لفلان وفلان ، يقسمون بأشياء : إما من الأنبياء وإما من الصحابة وإما من الصالحين ، كما يقال : بكر وعلى ونور الدين أرسلان والشيخ عدى والشيخ جاليد .

وكذلك الحج لا يحج إلا إلى بيت الله ، فلا يطـاف إلا به ، ولا يحلق الرأس إلا به ؛ ولا يوقف الا بفنائه ؛ لا يفعل ذلك بنبي ؛ ولا صالح ؛ ولا بقبر نبي ؛ ولا صالح ؛ ولا بوثن ؛ وكذلك الصيام لا يصام عبادة الا لله ، فلا يصام لأجل الكواكب والشمس والقمر ، ولا لقبور الأنبياء والصالحين ونحو ذلك .

وهذا كله تفصيل الشهادتين : اللتين هما أصل الدين شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمدا عبده ورسوله ، والإله من يستحق أن يألهه العباد ، ويدخل فيه حبه وخوفه ، فما كان من توابع الألوهية فهو حق محض لله ، وما كان من أمور الرسالة فهو حق الرسول .

ولما كان أصل الدين الشهادتين : كانت هذه الأمة الشهداء ولها وصف الشهادة ، والقسيسون لهم العبادة بلا شهادة ؛ ولهذا قالوا : (ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين) ؛ ولهذا كان المحققون على أن الشهادتين أول واجبات الدين ، كما عليه خلص أهل السنة وذكره منصور السمعانى والشيخ عبد القادر وغيرهما ؛ وجعله أصل الشرك ، وغيروا بذلك ملة التوحيد التى هى أصل الدين ؛ كما فعله قدماء المتفلسفة ؛ الذين شرعوا من الدين مالم يأذن به الله .

ومن أسباب ذلك : الخروج عن الشريعة الخاصة التى بعث الله بها محمدا صلى الله عليه وسلم ؛ الى القدر المشترك الذى فيه مشابهة الصائبين ؛أو النصارى؛ أو اليهود ؛ وهو القياس الفاسد ، المشابه لقياس الذين قالوا : (انما البيع مثل الربا) فيريدون أن يجعلوا السماع جنساً واحداً ، والملة جنسا واحداً ، ولا يميزون بين مشروعه ومبتدعه ، ولا بين المأمور به والمنهى عنه . فالسماع الشرعى الدينى سماع كتاب الله وتزيين الصوت به وتحبيره . كما قال صلى الله عليه وسلم : « زينوا القرآن بأصواتكم » وقال أبو . .سى : لو علمت أنك تستمع لحبرته لك تحبيرا . والصورَ ، والازواجَ ، والسرارىَّ التى أباحها الله تعالى .

والعبادة : عبادة الله وحده لا شريك له (فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال) .

وهذا المعنى يقرر قاعدة اقتضاء الصراط المستقيم ، مخالفة أصحاب الجحيم ؛ وينهى أن يشبه الامر الدينى الشرعى بالطبيعى البدعى ؛ لما بينهما من القدر المشترك كالصوت الحسن ، ليس هو وحده مشروعا حتى ينضم اليه القدر المميز ؛ كحروف القرآن ؛ فيصـــير المجموع من المشترك ، والمميز هو الدين النافع .

وقال ـ رحمه الله ـ

فصـــــل

في أن لا يسأل العبد الا الله

قال الله تعالى : (فإذا فرغت فانصب . وإلى ربك فارغب) قال النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس : « إذا سألت فاسأل الله . وإذا استعنت فاستعن بالله » . وفى الترمذى : « ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى شسع نعله إذا انقطع ، فإنه ان لم ييسره لم يتيسر » وفى الصحيح ، أنه قال لعدى بن مالك والرهط الذين بايعهم معه : « لا تسألوا الناس شيئاً » فكان سوط أحدهم يسقط من يده : فلا يقول لأحـــد ناولنى إياه ، وفى الصحيح فى حديث السبعين الفا ، الذين يدخلون الجنة بغير حساب : « هم الذين لا يسترقون ، ولا يكتوون ، ولا يتطيرون » والإسترقاء طلب الرقية ، وهو نوع من السؤال .

وأحاديث النهى عن مسألة الناس الأموال كثيرة كقوله : « لا تحل المسألة إلا لثلاثة » وقوله : « لأن يأخذ أحدكم حبله » الحديث ، وقوله « لا تزال المسألة بأحدهم ... » وقوله : « من سأل الناس وله ما يغنيه ... » وأمثال ذلك . وقوله : « من نزلت به فاقة فأنزلها بالناس : لم تسد فاقته » الحديث .

فأما سؤال ما يسوغ مثله من العلم : فليس من هذا الباب ؛ لأن المخبر

لا ينقص الجواب من علمه بل يزداد بالجواب ، والسائل محتاج إلى ذلك ؛ قال صلى الله عليه وسلم : « هلا سألوا إذلم يعلموا ؟ فان شفاء العي السؤال » ! ولكن من المسائل ما ينهى عنه . كما قال تعالى : ﴿ لا تسألوا عن أشياء ﴾ الآية . وكنهيه عن أغلوطات المسائل ونحو ذلك .

وأما سؤاله لغيره أن يدعو له : فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لعمر : « لاتنسنا من دعائك » وقال : « إذا سمعتم المؤذن : فقولوا مثل مايقول ، ثم صلوا علي فإنه من صلى علي مرة صلى الله عليه عشرا ، ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها درجة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله ، وأرجوا أن أكون أنا ذلك العبد ! فمن سأل الله لي الوسيلة حلت له شفاعتي يوم القيامة » . وقد يقال في هذا : هو طلب من الأمة الدعاء له ؛ لأنهم إذا دعوا له حصل لهم من الأجر أكثر مما لو كان الدعاء لأنفسهم ، كما قال للذي قال : أجعل صلاتي كلها عليك ؟ فقال : « إذا يكفيك الله ما أهمك من أمر دنياك وآخرتك » فطلبه منهم الدعاء له : لمصلحتهم ، كسائر أمره اياهم بما أمر به وذلك لما في ذلك من المصلحة لهم ، فانه قد صح عنه أنه قال : « ما من رجل يدعو لاخيه بظهر الغيب بدعوة : إلا وكل الله به ملكا كل ما دعا دعوة قال الملك الموكل به : آمين ولك مثله» .

وقال شيخ الاسلام رحمه الله :-

فصـــــل

العبادات مبناها على الشرع والإتباع ، لا على الهوى والإبتداع ، فإن الإسلام مبنى على أصلين :

أحدهما : أن نعبد الله وحده لا شريك له .

والثـانى : أن نعبده بمـا شرعه على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، لا نعبده بالأهواء والبـدع ، قال الله تعالى : (ثم جعلنـاك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون ، إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا) الآية . وقال تعـالى : (أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله) .

فليس لأحد أن يعبد الله إلا بمـا شرعه رسوله صلى الله عليه وسلم ، من واجب ومستحب ، لا نعبده بالأمور المبتدعة ، كما ثبت فى السنن من حديث « العرباض بن سارية » قال « الترمذى » : حديث حسن صحيح . وفى « مسلم » أنه كان يقول فى خطبته : « خير الكلام كلام الله ، وخير الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة » .

وليس لأحد أن يعبد إلا الله وحده ، فلا يصلى إلا لله ، ولا يصوم إلا لله ،

ولا يحج إلا بيت الله ، ولا يتوكل إلا على الله ، ولا يخاف إلا الله ، ولا ينذر إلا لله ، ولا يحلف الا بالله . وفى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ان الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، فمن كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت » . وفى السنن : « من حلف بغير الله فقد أشرك » وعن ابن مسعود « لأن أحلف بالله كاذباً أحب الىّ من أن أحلف بغيره صادقاً » لأن الحلف بغير الله شرك ، والحلف بالله توحيد . وتوحيد معه كذب ؛ خير من شرك معه صدق ؛ ولهذا كان غاية الكذب أن يعدل بالشرك ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « عدلت شهادة الزور الاشراك بالله مرتين أو ثلاثا » وقرأ قوله تعالى : (ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أوتهوى به الريح فى مكان سحيق) واذا كان الحالف بغير الله قد أشرك ، فكيف الناذر لغير الله ؟.

والنذر أعظم من الحلف ولهذا لو نذر لغير الله فلا يجب الوفاء به ؛ باتفاق المسلمين . مثل أن ينذر لغير الله صلاة ؛ أو صوما ؛ أو حجا ؛ أو عمرة ؛ أو صدقة .

ولو حلف ليفعلن شيئا ، لم يجب عليه أن يفعله ، قيل يجوز له أن يكفر عن اليمين ؛ ولا يفعل المحلوف عليه ، كما قال النبي صلى عليه وسلم : « من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليأت الذى هو خير ، وليكفر عن يمينه ، وقد ثبت فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم : أنه نهى عن النذر وقال : (إنه لا يأتى بخير ، وانما يستخرج به من البخيل) فإذا كان النذر لا يأتى بخير فكيف بالنذر للمخلوق ؟ ولكن النذر لله يجب الوفاء به اذا كان فى طاعة ، واذا كان معصية لم يجز الوفاء باتفاق العلماء ، وانما تنازعوا

هل فيه بدل ، أو كفارة يمين ، أم لا ؟ لما رواه البخارى فى صحيحه ؛ عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال : « من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه » .

فمن ظن ان النذر للمخلوقين يجلب له منفعة ، أو يدفع عنه مضرة ، فهو من الضالين ، كالذين يظنون أن عبادة المخلوقين تجلب لهم منفعة ، أو تدفع عنهم مضرة .

وهؤلاء المشركون قد تتمثل لهم الشياطين ، وقد تخاطبهم بكلام ، وقد تحمل أحدهم فى الهواء ، وقد تخبره ببعض الأمور الغائبة ، وقد تأتيه بنفقة أو طعام ، أو كسوة ، أو غير ذلك ، كما جرى مثل ذلك لعباد الأصنام من العرب وغير العرب ، وهذا كثير ، موجود فى هذا الزمان ، وغير هذا الزمان ، للضالين المبتدعين المخالفين للكتاب والسنة ، إما بعبادة غير الله ، وإما بعبادة لم يشرعها الله .

وهؤلاء اذا أظهر أحدهم شيئاً خارقاً للعادة لم يخرج عن أن يكون حالا شيطانياً ، أو محالا بهتانياً فخواصهم تقترن بهم الشياطين ، كما يقع لبعض العقلاء منهم ، وقد يحصل ذلك لغير هؤلاء ، لكن لا تقترن بهم الشياطين الا مع نوع من البدعة ، إما كفر ، وإما فسق ، وإما جهل بالشرع . فإن الشيطان قصده اغواء بحسب قدرته ، فإن قدر على أن يجعلهم كفاراً جعلهم كفاراً وان لم يقدر إلا على جعلهم فساقاً ، أو عصاة ، وان لم يقدر الا على نقص علمهم ودينهم ، ببدعة يرتكبونها يخالفون بها الشريعة التى بعث الله بها رسوله صلى الله عليه وسلم فينتفع منهم بذلك . !!

ولهذا قال الأئمة : لو رأيتم الرجل يطير فى الهواء أو يمشى على المـاء ، فلا تغتروا به ، حتى تنظروا وقوفه عند الأمر والنهى ، ولهذا يوجد كثير من الناس يطير فى الهواء وتكون الشياطين هى التى تحمله ، لا يكون من كرامات أولياء الله المتقين .

ومن هؤلا : من يحمله الشيطان الى عرفات فيقف مع الناس ، ثم يحمـله فيرده الى مدينته تلك الليلة ، ويظن هذا الجاهل أن هذا من أولياء الله ، ولا يعرف أنه يجب عليه أن يتوب من هذا ، وان اعتقد أن هذا طاعة وقربة اليه ، فإنه يستتاب ؛ فإن تاب والا قتـل ، لأن الحج الذى أمر الله به ورسوله لابد فيه من الإحرام ، والوقوف بعرفة ، ولا بد فيه من أن يطوف بعد ذلك طواف الإفاضة ؛ فانه ركن لايتم الحج الا به ؛ بل عليه أن يقف بمزدلفة ، ويرمى الجمار ويطوف للوداع ، وعليه اجتناب المحظورات ، والإحرام من الميقات . إلى غير ذلك من واجبات الحج . وهؤلاء الضالون الذين يضلهم الشيطان يحملهم فى الهواء ، يحمل أحدهم بثيابه ؛ فيقف بعرفة ويرجع من تلك الليلة . حتى يرى فى اليوم الواحد ببلده ويرى بعرفة .

ومنهم من يتصور الشيطان بصورته ويقف بعرفة ، فيراه من يعرفه واقفا ، فيظن انه ذلك الرجل وقف بعرفة ! . فإذا قال له ذلك الشيخ أنا لم أذهب العـام الى عرفة ؛ ظن انه ملك خلق على صورة ذلك الشيخ ، وانما هو شيطان تمثل على صورته ، ومثل هذا وأمثاله يقع كثيرا ، وهى أحوال شيطانية ، قال تعالى : (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين) . وذكر الرحمن هو الذكر الذى أنزله على نبيه صلى الله عليه وسلم . قال تعالى : (إنا نحن نزلنـا

الذكر وإنا له لحافظون) وقال تعالى : (فإما يأتينكم منى هدى — الى قوله — كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) ونسيانها هو ترك الايمان والعمل بها ؛ وإن حفظ حروفها ، قال ابن عباس : « تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه ، أن لا يضل فى الدنيا ، ولا يشقى فى الآخرة » وقرأ هذه الآية ، فمن اتبع ما بعث الله به رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم من الكتاب والحكمة هداه الله وأسعده ، ومن أعرض عن ذلك ضل وشقى ، وأضله الشيطان وأشقاه.

فالأحوال الرحمانية وكرامات أوليائه المتقين يكون سببه الإيمان ، فإن هذه حال أوليائه . قال تعالى: (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون) وتكون نعمة لله على عبده المؤمن فى دينه ودنياه ، فتكون الحجة فى الدين والحاجة فى الدنيا للمؤمنين ، مثل ما كانت معجزات نبينا محمد صلى الله عليه وسلم : كانت الحجة فى الدين والحاجة للمسلمين ، مثل البركة التى تحصل فى الطعام والشراب ؛ كنبع الماء من بين أصابعه ، ومثل نزول المطر بالاستسقاء ، ومثل قهر الكفار وشفاء المريض بالدعاء ، ومثل الأخبار الصادقة ، والنافعة بما غاب عن الحاضرين ، واخبار الأنبياء لا تكذب قط .

وأما أصحاب الاحوال الشيطانية ، فهم من جنس الكهان ، يكذبون تارة ويصدقون أخرى ، ولا بد فى أعمالهم من مخالفة للأمر . قال تعالى : (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ؟ تنزل على كل أفاك أثيم) الآيتين .

ولهذا يوجد الواحد من هؤلاء ملابسا الخبائث من النجاسات والاقذار ؛

التى تحبها الشياطين ، ومرتكبا للفواحش ، أو ظالما للناس فى أنفسهم وأموالهم ، وغير ذلك والله تعالى قد حرم : (الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغى بغير الحق وان تشركوا بالله) الآية .

وأولياء الله هم الذين يتبعون رضاه بفعل المأمور ، وترك المحظور ، والصبر على المقدور ، وهذه جملة لها بسط طويل لا يتسع له هذا المكان.

والله أعلم .

وقال شيخ الاسلام

فصـــــل جامع

قد كتبت فيما تقدم فى مواضع قبل بعض القواعد ، واخر مسودة الفقه : أن جماع الحسنات العدل ، وجماع السيئات الظلم ؛ وهذا أصـل جامع عظيم .

وتفصيل ذلك : أن الله خلق الخلق لعبادته ، فهذا هو المقصود المطلوب لجميع الحسنات،وهو اخلاص الدين كله لله ، وما لم يحصل فيه هذا المقصود : فليس حسنة مطلقة مستوجبة لثواب الله فى الآخرة ؛ وإن كان حسنة من بعض الوجوه له ثواب فى الدنيا ، وكل ما نهى عنه فهو زيغ وانحراف عن الإستقامة ، ووضع للشىء فى غير موضعه : فهو ظلم .

ولهذا جمع بينهما سبحانه فى قوله : (قل أمر ربى بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين) فهذه الآية فى سورة الأعراف المشتملة على أصول الدين ، والاعتصام بالكتاب ، وذم الذين شرعوا من الدين ما لم يأذن به الله ؛ كالشرك وتحريم الطيبات ، أو خالفوا ما شرعه الله من أمور دينهم ، كإبليس ، ومخالفى الرسل من قوم نوح إلى قوم فرعون ، والذين بدلوا الكتاب من أهل الكتاب ؛ فاشتملت السورة على ذم من أتى بدين باطل ككفار العرب ، ومن خالف الدين الحق كله كالكفار بالأنبياء ؛ أو بعضه ككفار أهل الكتاب .

وقد جمع سبحانه فى هذه السورة وفى الانعام وفى غيرهما ذنوب المشركين فى نوعين .

احدهما أمر بمـا لم يأمر الله به كالشرك ونهى عما لم ينه الله عنه كتحريم الطيبات فالأول شرع من الدين ما لم يأذن به الله .

والثانى تحريم لما لم يحرمه الله .

وكذلك فى الحديث الصحيح حديث عياض بن حمار : عن النبي صلى الله عليه وسلم : عن الله تعالى : « إنى خلقت عبادى حنفاء فاجتالتهم الشياطين ، فحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطانا » .

ولهذا كان ابتداع العبادات الباطلة من الشرك ونحوه : هو الغالب على النصارى ومن ضاهاهم من منحرفة المتعبدة ، والمتصوفة ، وابتداع التحريمات الباطلة هو الغالب على اليهود ومن ضاهاهم من منحرفة المتفقهة ، بل أصول دين اليهود فيه آصار وأغلال من التحريمات ، ولهذا قال لهم المسيح : (ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم) وأصل دين النصارى فيه تأله بألفاظ متشابهة ، وأفعال مجملة ، فالذين فى قلوبهم زيغ اتبعوا ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، قررته فى غير هذا الموضع : بأن توحيد الله الذى هو اخلاص الدين له ، والعدل الذى نفعله نحن هو جماع الدين يرجع إلى ذلك ، فإن اخلاص الدين لله أصل العدل ، كما أن الشرك بالله ظلم عظيم .

وقال شيخ الاسلام :-

إعلم رحمك الله أن الشرك بالله أعظم ذنب عصى الله به . قال الله تعالى : (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) وفى الصحيحين أنه صلى الله عليه وسلم سئل : أى الذنب أعظم ؟ قال : « أن تجعل لله ندا وهو خلقك » !! . والند المثل . قال تعالى : (فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون) . وقال تعـالى : (وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله . قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار) . فمن جعل لله ندا من خلقه فيما يستحقه عز وجل من الإلهية والربوبية فقد كفر بإجماع الأمة .

فإن الله سبحانه هو المستحق للعبادة لذاته : لأنه المألوه المعبود ، الذى تألهه القلوب وترغب اليه ، وتفزع اليه عند الشدائد ، وما سواه فهو مفتقر مقهور بالعبودية ، فكيف يصلح أن يكون الها !؟ . قال الله تعالى : (وجعلوا له من عباده جزءا إن الإنسان لكفور مبين) وقال تعـالى : (إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا). وقال الله تعالى : (لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملئكة المقربون) . وقال تعـالى : (ولا تجعلوا مع الله إلها آخر إنى لكم منه نذير مبين) . وقال تعـالى : (قل : إنى أمرت أن أعبد الله مخلصا

له الدين) . فالله ـ سبحانه ـ هو المستحق أن يعبد لذاته . قال تعالى : (الحمد لله رب العالمين) فذكر (الحمد) بالألف واللام التى تقتضى الاستغراق لجميع المحامد ، فدل على أن الحمد كله لله ، ثم حصره فى قوله : (اياك نعبد واياك نستعين) . فهذا تفصيل لقوله : (الحمد لله رب العالمين) . فهذا يدل على أنه لا معبود إلا الله ، وأنه لا يستحق أن يعبد أحد سواه ، فقوله : (إياك نعبد) إشارة إلى عبادته بما اقتضته إلهيته : من المحبة ، والخوف ، والرجاء ، والأمر ، والنهى . (واياك نستعين) إشارة الى ما اقتضته الربوبية ؛ من التوكل والتفويض والتسليم ، لأن الرب ـ سبحانه وتعالى ـ هو المالك ، وفيه أيضامعنىالربوبيةوالإصلاح، والمالك الذى يتصرف فى ملكه كما يشاء .

فإذا ظهر للعبد من سر الربوبية أن الملك والتدبير كله بيد الله تعالى ، قال تعالى : (تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير) : فلا يرى نفعا ، ولا ضرا ، ولا حركة ، ولا سكونا ، ولا قبضا ، ولا بسطا ، ولا خفضا ، ولا رفعا ، إلا والله — سبحانه وتعالى — فاعله ، وخالقه ، وقابضه ، وباسطه ، ورافعه ، وخافضه ، فهذا الشهود هو سر الكلمات الكونيات . . . وهو علم صفة الربوبية . والأول هو علم صفة الإلهية وهو كشف سر الكلمات التكليفيات .

فالتحقيق بالأمر والنهى ، والمحبة والخوف والرجاء ؛ يكون عن كشف علم الإلهية .

والتحقيق بالتوكل والتفويض والتسليم : يكون بعد كشف علم الربوبية

وهو علم التدبير السارى فى الأكوان ؛ كما قال عز وجل : (إنما قولنا لشىء اذا أردناه أن نقول له كن فيكون) . فإذا تحقق العبد لهذا المشهد ، ووفقه لذلك ؛ بحيث لا يحجبه هذا المشهد عن المشهد الأول فهو الفقيه فى عبوديته ؛ فإن هذين المشهدين عليهما مدار الدين ، فإن جميع مشاهد الرحمة واللطف والكرم ، والجمال : داخل فى مشهد الربوبية .

ولهذا قيل : ان هذه الآية جمعت جميع أسرار القرآن : (اياك نعبد واياك نستعين) لأن أولها اقتضى عبادته بالأمر والنهى ، والمحبة والخوف ، والرجاء كما ذكرنا ؛ وآخرها اقتضى عبوديته بالتفويض والتسليم ، وترك الإختيار ، وجميع العبوديات داخلة فى ذلك .

ومن غاب عن هذا المشهد وعن المشهد الأول . ورأى قيام الله عز وجل على جميع الأشياء ، وهو القيام على كل نفس بما كسبت ، وتصرفه فيها ، وحكمه عليها ؛ فرأى الأشياء كلها منه صادرة عن نفاذ حكمه ، وإرادته القدرية ؛ فغاب بما لاحظ عن التمييز والفرق ، وعطل الأمر والنهى والنبوات ، ومرق من الإسلام مروق السهم من الرمية .

وان كان ذلك المشهد قد أدهشه وغيب عقله ؛ لقوة سلطانه الوارد ، وضعف قوة البصيرة ؛ أن يجمع بين المشهدين ، فهذا معذور منقوص الا من جمع بين المشهدين : الأمر الشرعى ، ومشهد الأمر الكونى الإرادى ، وقد زلت فى هذا المشهد أقدام كثيرة من السالكين ؛ لقلة معرفتهم بما بعث الله به المرسلين وذلك لأنهم عبدوا الله على مرادهم منه ، ففنوا بمرادهم عن مراد الحق — عز وجل — منهم ، لأن الحق يغنى بمراده ومحبوبه ، ولو عبدوا الله على

مراده منهم لم ينلهم شيء من ذلك ، لأن العبد اذا شهد عبوديته ولم يكن مستيقظاً لأمر سيده ، لايغيب بعبادته عن معبوده ، ولا بمعبوده عن عبادته ، بل يكون له عينان ينظر بأحدهما الى المعبود كأنه يراه ، كما قال صلى الله عليه وسلم لما سئل عن الإحسان : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » والأخرى ينظر بها الى أمر سيده ، ليوقعه على الأمر الشرعي الذى يحبه مولاه ويرضاه .

فإذا تقرر هذا ، فالشرك ان كان شركا يكفر به صاحبه . وهو نوعان :—

شرك فى الإلهية ، وشرك فى الربوبية .

فأما الشرك فى الإلهية فهو : أن يجعل لله نداً ـ أى : مثلا فى عبادته ، أومحبته ، أوخوفه ، أورجائه ، أوانابته ، فهذا هو الشرك الذى لايغفره الله الا بالتوبة منه . قال تعالى : (قل للذين كفروا ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف) وهذا هو الذى قاتل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم مشركى العرب . لأنهم أشركوا فى الإلهية ، قال الله تعالى : (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله) الآية (وقالوا مانعبدهم الا ليقربونا إلى الله زلفى) الآية (وقالوا أجعل الآلهة إلهاً واحداً ؟ انهذا لشيء عجاب !) وقال تعالى : (ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد ـ الى قوله ـ الذى جعل مع الله إلهاً آخر فألقياه فى العذاب الشديد).

وقال النبي صلى الله عليه وسلم لحصين : « كم تعبد » ؟ قال : ستة فى الأرض وواحدا فى السماء . قال : « فمن الذى تعـــد لرغبتك ورهبتك » ؟ قال : الذى فى السماء . قال : « ألا تسلم فأعلمك كلمات » ؟ فاسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « قل : اللهم ألهمنى رشدى ، وقنى شر نفسى » .

وأما الربوبية فكانوا مقرين بها ، قال الله تعالى : (ولئن سألتهم من خلق

السموات والأرض ؟ ليقولن الله) وقال : (قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله) الى قوله : (فأنى تسحرون ؟) وما اعتقد أحد منهم قط أن الأصنام هى التى تنزل الغيث ، وترزق العالم وتدبره ، وإنما كان شركهم كما ذكرنا ، اتخذوا من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ، وهذا المعنى يدل على أن من أحب شيئاً من دون الله ، كما يحب الله تعالى فقد أشرك ، وهذا كقوله : (قالوا وهم فيها يختصمون : تالله إن كنا لفى ضلال مبين ، إذ نسويكم برب العالمين) . وكذا من خاف احدا كما يخاف الله ، أو رجاه كما يرجو الله ، وما أشبه ذلك .

وأما النوع الثانى : فالشرك فى الربوبية ، فإن الرب سبحانه هو المالك المدبر ، المعطى المانع ، الضار النافع ، الخافض الرافع ، المعز المذل ، فمن شهد أن المعطى أو المانع ، أو الضار أو النافع ، أو المعز أوالمذل غيره ، فقد أشرك بربوبيته .

ولكن إذا أراد التخلص من هذا الشرك ، فلينظر الى المعطى الأول مثلا ، فيشكره على ما أولاه من النعم ، وينظر الى من أسدى اليه المعروف فيكافيه عليه ، لقوله عليه السلام : « من أسدى اليكم معروفاً فكافئوه فإن لم تجدوا ماتكافئوه فادعوا له ، حتى تروا أنكم قد كافأتموه » لأن النعم كلها لله تعالى ، كما قال تعالى : (وما بكم من نعمة فمن الله) وقال تعالى : (كلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك) فالله سبحانه هو المعطى على الحقيقة فإنه هو الذى خلق الأرزاق وقدرها ، وساقها الى من يشاء من عباده ، فالمعطى هو الذى أعطاه ، وحرك قلبه لعطاء غيره . فهو الاول والآخر .

ومما يقوى هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم لابن عباس رضى الله عنهما : « واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك ، لم ينفعوك الا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك ، لم يضروك الا بشيء قد كتبه الله عليك . رفعت الأقلام وجفت الصحف » قال الترمذى : هذا حديث صحيح . فهذا يدل على أنه لا ينفع فى الحقيقة الا الله ، ولا يضر غيره ، وكذا جميع ما ذكرنا فى مقتضى الربوبية .

فمن سلك هذا المسلك العظيم استراح من عبودية الخلق ونظره اليهم ، وأراح الناس من لومه وذمه اياهم ، وتجرد التوحيد فى قلبه ، فقوى ايمانه وانشرح صدره . وتنور قلبه ، ومن توكل على الله فهو حسبه ولهذا قال الفضيل ابن عياض ـ رحمه الله : من عرف الناس استراح . يريد ـ والله أعلم ـ أنهم لا ينفعون ولا يضرون .

وأما الشرك الخفى : فهو الذى لا يكاد أحد أن يسلم منه ، مثل : أن يحب مع الله غيره .

فإن كانت محبته لله مثل حب النبيين والصالحين ، والأعمال الصالحة فليست من هذا الباب ، لأن هذه تدل على حقيقة المحبة ، لأن حقيقة المحبة أن يحب المحبوب وما أحبه ، ويكره مايكرهه ، ومن صحت محبته امتنعت مخالفته لأن المخالفة انما تقع لنقص المتابعة ، ويدل على نقص المحبة قول الله تعالى :

(قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم) الآية . . . فليس الكلام فى هذا .

انما الكلام فى محبة تتعلق بالنفوس لغير الله تعالى ، فهذا لاشك أنه نقص فى توحيد المحبة لله ، وهو دليل على نقص محبة الله تعالى اذ لو كملت محبته ، لم يحب سواه .

ولا يرد علينا الباب الأول . لأن ذلك داخل فى محبته . وهذا ميزان لم يجر عليك كلما قويت محبة العبد لمولاه ، صغرت عنده المحبوبات وقلت ، وكلما ضعفت ، كثرت محبوباته وانتشرت .

وكذا الخوف . والرجاء ، وما أشبه ذلك ، فإن كمل خوف العبد من ربه لم يخف شيئاً سواه ، قال الله تعالى : (الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً الا الله) واذا نقص خوفه خاف من المخلوق ، وعلى قدر نقص الخوف وزيادته . يكون الخوف كما ذكرنا فى المحبة ، وكذا الرجاء وغيره . فهذا هو الشرك الخفى ، الذى لا يكاد أحد أن يسلم منه ، الا من عصمه الله تعالى . وقد روى أن الشرك فى هذه الأمة أخفى من دبيب النمل .

وطريق التخلص من هذه الآفات كلها : الإخلاص لله عز وجل . قال الله تعالى : (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) ولا يحصل الإخلاص الا بعد الزهد ، ولا زهد الا بتقوى ، والتقوى متابعة الامر والنهى .

فصـــــل

ولا بد من التنبيه على قاعدة تحرك القلوب إلى الله عز وجل ، فتعتصم به ؛ فتقل آفاتها ، أو تذهب عنها بالكلية ؛ بحول الله وقوته .

فنقول إعلم أن محركات القلوب إلى الله عز وجل ثلاثة: المحبة، والخوف والرجاء . وأقواها المحبة ، وهى مقصودة تراد لذاتها ، لأنها تراد فى الدنيا والآخرة بخلاف الخوف فإنه يزول فى الآخرة ، قال الله تعالى: (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) والخوف المقصود منه :الزجر والمنع من الخروج عن الطريق ، فالمحبة تلقى العبد فى السير إلى محبوبه ، وعلى قدر ضعفها وقوتها يكون سيره إليه ، والخوف يمنعه أن يخرج عن طريق المحبوب ، والرجاء يقوده ؛ فهذا أصل عظيم ، يجب على كل عبد أن يتنبه له ، فإنه لا تحصل له العبودية بدونه ، وكل أحد يجب أن يكون عبداً لله لا لغيره .

فإن قيل فالعبد فى بعض الأحيان ؛ قد لا يكون عنده محبة تبعثه على طلب محبوبه ، فأى شيء يحرك القلوب ؟ قلنا يحركها شيئان :ـ

أحدهما : كثرة الذكر للمحبوب ، لأن كثرة ذكره تعلق القلوب به ، ولهذا أمر الله عز وجل بالذكر الكثير ، فقال تعالى: (يأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيرا وسبحوه بكرة وأصيلا) الآية . .

والثانى : مطالعة آلائه ونعمائه ، قال الله تعالى : (فاذكروا آلاء الله لعلكم

تفلحون) وقال تعالى : (وما بكم من نعمة فمن الله) . وقال تعالى : (وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة) وقال تعالى : (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) .

فإذا ذكر العبد ما أنعم الله به عليه ، من تسخير السماء والأرض ، وما فيها من الأشجار والحيوان ، وما أسبغ عليه من النعم الباطنة ، من الإيمان وغيره ، فلا بد أن يثير ذلك عنده باعثا ، وكذلك الخوف ؛ تحركه مطالعة آيات الوعيد ، والزجر ، والعرض ، والحساب ونحوه ؛ وكذلك الرجاء ؛ يحركه مطالعة الكرم ؛ والحلم ؛ والعفو ؛ وما ورد فى الرجاء والكلام فى التوحيد واسع .

وإنما الغرض مبلغ التنبيه على تضمنه الإستغناء بأدنى إشارة . والله ـ سبحانه وتعالى ـ أعلم . وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم .

وقال شيخ الاسلام رحمه الله

فصـــــل

ذكر الله عن إمامنا ابراهيم خليل الله أنه قال لمناظريه من المشركين الظالمين: (وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله مالم ينزل به عليكم سلطاناً فأى الفريقين أحق بالأمن ان كنتم تعلمون؟ . الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) .

وفى الصحيح من حديث عبد الله بن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم فسر الظلم بالشرك وقال: «ألم تسمعوا الى قول العبد الصالح: (ان الشرك لظلم عظيم)» فأنكر أن نخاف ما أشركوهم بالله من جميع المخلوقات العلويات والسلفيات، وعدم خوفهم من إشراكهم بالله شريكا لم ينزل الله به سلطاناً، وبين أن القسم الذى لم يشرك هو الآمن المهتدى .

وهذه آية عظيمة تنفع المؤمن الحنيف فى مواضع؛ فإن الإشراك فى هذه الأمة أخفى من دبيب النمل؛ دع جليله، وهو شرك فى العبادة والتأله، وشرك فى الطاعة والانقياد، وشرك فى الإيمان والقبول .

فالغالية من النصارى والرافضة وضلال الصوفية والفقراء والعامة: يشركون بدعاء غير الله تارة، وبنوع من عبادته أخرى، وبهما جميعاً تارة، ومن أشرك هذا الشرك أشرك فى الطاعة .

وكثير من المتفقهة وأجناد الملوك ، وأتباع القضاة ، والعامة المتبعة لهؤلاء ، يشركون شرك الطاعة ؛ وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : لعدى بن حاتم لما قرأ : (إتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح بن مريم) فقال : يارسول الله ماعبدوهم ، فقال : « ماعبدوهم ؛ ولكن أحلوا لهم الحرام فأطاعوهم ، وحرموا عليهم الحلال فأطاعوهم » .

فتجد أحد المنحرفين يجعل الواجب ما أوجبه متبوعه ، والحرام ماحرمه ، والحلال ماحلله ، والدين ماشرعه إما ديناً ، وإما دنيا ، وإما دنيا ، ودينا . ثم يخوف من امتنع من هذا الشرك ، وهو لايخاف أنه أشرك به شيئاً فى طاعته بغير سلطان من الله ؛ وبهذا يخرج من أوجب الله طاعته من رسول ، وأمير وعالم ووالد وشيخ وغير ذلك .

وأما الشرك الثالث : فكثير من أتباع المتكلمة ، والمتفلسفة ؛ بل وبعض المتفقهة والمتصوفة ؛ بل وبعض أتباع الملوك والقضاة ، يقبل قول متبوعه فيما يخبر به من الإعتقادات الخبرية ، ومن تصحيح بعض المقالآت وافساد بعضها ، ومدح بعضها ، وبعض القائلين وذم بعض ، بلا سلطان من الله . ويخاف ما أشركه فى الإيمان والقبول ، ولا يخاف إشراكه بالله شخصاً فى الإيمان به ، وقبول قوله بغير سلطان من الله .

وبهذا يخرج من شرع الله تصديقه من المرسلين ، والعلماء المبلغين ، والشهداء الصادقين ، وغير ذلك . فباب الطاعة والتصديق ينقسم الى مشروع فى حق البشر وغير مشروع .

وأما العبادة والاستعانة والتأله : فلا حق فيها للبشر بحال ، فانه كما قال القائل ما وضعت يدى فى قصعة أحد الا ذللت له ! . ولا ريب أن من نصرك ورزقك

كان له سلطان عليك ، فالمؤمن يريد أن لا يكون عليه سلطان الا لله ولرسوله ، ولمن أطاع الله ورسوله ، وقبول مال الناس فيه سلطان لهم عليه ، فإذا قصد دفع هذا السلطان وهذا القهر عن نفسه : كان حسناً محموداً ، يصح له دينه بذلك ؛ وان قصد الترفع عليهم والترأس والمراءاة بالحال الأولى كان مذموماً ، وقد يقصد بترك الأخذ غنا نفسه عنهم ويترك أموالهم لهم .

فهذه أربع مقاصد صالحة : غنى نفسه وعزتها حتى لاتفتقر الى الخلق ولا تذل لهم ، وسلامة مالهم ودينهم عليهم حتى لاتنقص عليهم أموالهم ؛ فلا يذهبها عنهم ، ولا يوقعهم بأخذها منهم فيما يكره لهم من الإستيلاء عليه ؛ ففي ذلك منفعة له أن لايذل ولا يفتقر اليهم ، ومنفعة لهم أن يبقى لهم مالهم ودينهم ، وقد يكون في ذلك منفعة بتأليف قلوبهم بإبقاء أموالهم لهم ؛ حتى يقبلوا منه ، ويتألفون بالعطاء لهم ؛ فكذلك في ابقاء أموالهم لهم ، وقد يكون في ذلك أيضاً حفظ دينهم فإنهم اذا قبل منهم المال قد يطمعون هم أيضاً في أنواع من المعاصي ، ويتركون أنواعاً من الطاعات ، فلا يقبلون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وفي ذلك منافع ومقاصد أخر صالحة .

وأما اذا كان الأخذ يفضي الى طمع فيه حتى يستعان به في معصية أو يمنع من طاعة ؛ فتلك مفاسد أخر ؛ وهي كثيرة ترجع الى ذله وفقره لهم ؛ فإنهم لايتمكنون من منعه من طاعة الا اذا كان ذليلا أو فقيراً اليهم ، ولا يتمكنون هم من استعماله في المعصية الا مع ذله أو فقره ، فان العطاء يحتاج الى جزاء ومقابلة ؛ فإذا لم تحصل مكافأة دنيوية من مال أو نفع لم يبق الا ما ينتظر من المنفعة الصادرة منه اليهم .

وللرد وجوه مكروهة مذمومة، منها : الرد مراءاة بالتشبه بمن يرد غنى وعزة ورحمة للناس فى دينهم ودنياهم ، ومنها : التكبر عليهم ، والاستعلاء حتى يستعبدهم ، ويستعلى عليهم بذلك ، فهذا مذموم أيضاً . ومنها : البخل عليهم فإنه اذا أخذ منهم احتاج أن ينفعهم ، ويقضى حوائجهم ؛ فقد يترك الأخذ بخلا عليهم بالمنافع . ومنها : الكسل عن الإحسان اليهم ، فهذه أربع مقاصد فاسدة فى الرد للعطاء : الكبر ، والرياء ، والبخل ، والكسل .

فالحاصل : أنه قد يترك قبول المال لجلب المنفعة لنفسه ، أو لدفع المضرة عنها ، أو لجلب المنفعة للناس أو دفع المضرة عنهم ، فإن فى ترك أخذه غنى نفسه وعزها ، وهو منفعة لها ، وسلامة دينه ودنياه مما يترتب على القبول من أنواع المفاسد ، وفيه نفع الناس بإبقاء أموالهم ودينهم لهم ، ودفع الضرر المتولد عليهم اذا بذلوا بذلا قد يضرهم ، وقد يتركه لمضرة الناس ، أو لترك منفعتهم ؛ فهذا مذموم كما تقدم ، وقد يكون فى الترك أيضاً مضرة نفسه ؛ أو ترك منفعتها ، إما بأن يكون محتاجاً اليه فيضره تركه ، أو يكون فى أخذه وصرفه منفعة له فى الدين والدنيا ، فيتركها من غير معارض مقاوم . فلهذا فصلنا هذه المسألة ؛ فإنها مسألة عظيمة ، وبإزائها مسألة القبول أيضاً ، وفيها التفصيل لكن الأغلب أن ترك الأخذ كان أجود من القبول ، ولهذا يعظم الناس هذا الجنس أكثر ، واذا صح الأخذ : كان أفضل أعنى الأخذ والصرف الى الناس .

سئل الشيخ - رحمه الله -

عمن قال : يجوز الاستغاثة بالنبي صلى الله عليه وسلم فى كل ما يستغاث الله تعالى فيه : على معنى أنه وسيلة من وسائل الله تعالى - فى طلب الغوث ، وكذلك يستغاث بسائر الانبياء والصالحين فى كل مايستغاث الله تعالى فيه .

وأما من توسل الى الله تعالى بنبيه فى تفريج كربة فقد استغاث به ، سواء كان ذلك بلفظ الاستغاثة ، أو التوسل ، أو غيرهما مما هو فى معناهما ، وقول القائل : أتوسل اليك يا إلهى برسولك ! أو استغيث برسولك عندك ، أن تغفر لى ، استغاثة بالرسول حقيقة فى لغة العرب وجميع الأمم .

قال : ولم يزل الناس يفهمون معنى الاستغاثة بالشخص ، قديما وحديثا ، وانه يصح اسنادها للمخلوقين ، وانه يستغاث بهم على سبيل التوسل ، وأنها مطلقة على كل من سأل تفريج الكربة بواسطة التوسل به ، وان ذلك صحيح فى أمر الأنبياء والصالحين .

قال : وفيما رواه الطبرانى : عن النبي صلى الله عليه وسلم : أن بعض الصحابة رضى الله عنهم قال : استغيثوا برسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا المنافق ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « انه لا يستغاث بى وانما يستغاث بالله »

ان النبي صلى الله عليه وسلم لو نفى عن نفسه أنه يستغاث به ، ونحو ذلك ، يشير به الى التوحيد ، وافراد البارى بالقدرة : لم يكن لنا نحن أن ننفى ذلك ، ونجوز أن نطلق أن النبي صلى الله عليه وسلم والصالح يستغاث به ، يعنى فى كل ما يستغاث فيه بالله تعالى ، ولا يحتاج أن يقول على سبيل أنه وسيلة وواسطة ، وأن القائل لا يستغاث به منتقصا له ، وانه كافر بذلك ، لكنه يعذر اذا كان جاهلا . فإذا عرف معنى الاستغاثة ثم أصر على قوله بعد ذلك ، صار كافرا .

والتوسل به استغاثة به كما تقدم . فهل يعرف أنه قال أحد من علماء المسلمين : انه يجوز أن يستغاث بالنبي صلى الله عليه وسلم والصالح ، فى كل ما يستغاث به الله تعالى ؟ وهل يجوز اطلاق ذلك ؟ كما قال القائل ،

وهل التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم ، أو الصالح أو غيرهما الى الله تعالى فى كل شيء ، استغاثة بذلك المتوسل به ؟ كما نقله هذا القائل عن جميع اللغات وسواء كان التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم أو الصالح استغاثة به ، أو لم يكن ، فهل يعرف أن أحدا من العلماء قال : إنه يجوز التوسل الى الله بكل نبى وصالح ؟ فقد أفتى الشيخ عز الدين ابن عبد السلام فى فتاوية المشهورة : أنه لا يجوز التوسل الى الله تعالى الا بالنبي صلى الله عليه وسلم ، إن صح الحديث فيه ، فهل قال أحد : خلاف ما أفتى به الشيخ المذكور ؟

وبتقدير أن يكون فى المسئلة خلاف ، فمن قال لا يتوسل بسائر الانبياء والصالحين . كما أفتى الشيخ عز الدين ؟ هل يكفر كما كفره هذا القائل ؟ ويكون ما أفتى به الشيخ كفرا ، بل نفس التوسل به لو قال قائل : لا يتوسل به ،

ولا يستغاث به ؛ الا فى حياته وحضوره ، لا فى موته ومغيبه . هل يكون ذلك كفرا ؟ أو يكون تنقصا ؟

ولو قال : ما لا يقدر عليه الا الله تعالى لا يستغاث فيه الا بالله ، أى : لا يطلب الا من الله تعالى هل يكون كفرا . أو يكون حقا ؟ واذا نفى الرسول صلى الله عليه وسلم عن نفسه أمرا من الأمور لكونه من خصائص الربوبية ، هل يحرم عليه أن ينفيه عنه أم يجب، أم يجوز نفيه ؟ أفتونا رحمكم الله ـ بجواب شاف كاف ، موفقين مثابين ـ انشاء الله تعالى .

الجواب : الحمد لله رب العالمين ، لم يقل أحد من علماء المسلمين : أنه يستغاث بشىء من المخلوقات ؛ فى كل ما يستغاث فيه بالله تعالى ، لا بنبى ، ولا بملك ، ولا بصالح ، ولا غير ذلك . بل هذا مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام ؛ انه لا يجوز اطلاقه .

ولم يقل أحد : ان التوسل بنبى ؛ هو استغاثة به ، بل العامة الذين يتوسلون فى أدعيتهم بأمور ، كقول أحدهم : أتوسل اليك بحق الشيخ فلان ، أو بحرمته ، أو أتوسل اليك باللوح والقلم ، أو بالكعبة ، أو غير ذلك ، مما يقولونه فى أدعيتهم ، يعلمون انهم لا يستغيثون بهذه الامور ؛ فإن المستغيث بالنبى صلى الله عليه وسلم طالب منه وسائل له ، والمتوسل به لا يدعى ولا يطلب منه ولا يسأل ، وانما يطلب به ، وكل أحد يفرق بين المدعو والمدعو به .

والاستغاثة طلب الغوث ، وهو إزالة الشدة ، كالإستنصار طلب النصر ، والاستعانة طلب العون ، والمخلوق يطلب منه من هذه الامور ما يقدر عليه

منها ، كما قال تعالى : (وان استنصروكم فى الدين فعليكم النصر) وكما قال : (فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه) وكما قال تعالى : (وتعاونوا على البر والتقوى).

وأما مالا يقدر عليه إلا الله ، فلا يطلب إلا من الله ، ولهذا كان المسلمون لايستغيثون بالنبي صلى الله عليه وسلم ويستسقون به، ويتوسلون به ، كما فى صحيح البخارى : أن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه استسقى بالعباس وقال : اللهم إنا كنا اذا أجد بنا نتوسل اليك بنبينا فتسقينا ، وإنا نتوسل اليك بعم نبينا فاسقنا فيسقون .

وفى سنن أبى داود : أن رجلا قال للنبي صلى الله عليه وسلم : إنا نستشفع بالله عليك ، ونستشفع بك على الله ، فقال : «شأن الله أعظم من ذلك ، إنه لا يستشفع به على أحد من خلقه» فأقره على قوله نستشفع بك على الله ، وأنكر عليه قوله نستشفع بالله عليك .

وقد اتفق المسلمون على أن نبينا شفيع يوم القيامة وأن الخلق يطلبون منه الشفاعة ، لكن عند أهل السنة أنه يشفع فى أهل الكبائر ، وأما عند الوعيدية فإنما يشفع فى زيادة الثواب .

وقول القائل: ان من توسل الى الله بنبي . فقال : أتوسل اليك برسولك فقد استغاث برسوله حقيقة ، فى لغة العرب وجميع الأمم قد كذب عليهم ، فما يعرف هذا فى لغة أحد من بنى آدم ، بل الجميع يعلمون أن المستغاث مسئول به مدعو ، ويفرقون بين المسئول والمسئول به ، سواء استغاث بالخالق

أو بالمخلوق ، فإنه يجوز أن يستغاث بالمخلوق فيما يقدر على النصر فيه . والنبي صلى الله عليه وسلم أفضل مخلوق يستغاث به فى مثل ذلك .

ولو قال قائل لمن يستغيث به : أسألك بفلان ، أو بحق فلان ، لم يقل أحد إنه استغاث بما توسل به ، بل إنما استغاث بمن دعاه ؛ وسأله ، ولهذا قال المصنفون فى شرح أسماء الله الحسنى : إن المغيث بمعنى المجيب ، لكن الإغاثة أخص بالافعال ، والإجابة أخص بالاقوال .

والتوسل الى الله بغير نبينا صلى الله عليه وسلم — سواء سمى استغاثة أو لم يسم — لا نعلم أحدا من السلف فعله . ولا روى فيه أثراً . ولا نعلم فيه الا ما أفتى به الشيخ من المنع ، وأما التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم ، ففيه حديث فى السنن ، رواه النسائى والترمذى وغيرهما : أن أعرابياً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله : إنى أصبت فى بصرى فادع الله لى ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « توضأ وصل ركعتين ، ثم قل : اللهم أسألك وأتوجه اليك بنبيك محمد ، يامحمد انى أتشفع بك فى رد بصرى . اللهم شفع نبيك فى» وقال : «فإن كانت لك حاجة فمثل ذلك» فرد الله بصره . فلأجل هذا الحديث استثنى الشيخ التوسل به .

وللناس فى معنى هذا قولان :

احدهما : أن هذا التوسل هو الذى ذكر « عمر ابن الخطاب » رضى الله عنه ، لما قال : كنا اذا أجد بنا نتوسل بنبينا اليك فتسقينا ، وإنا نتوسل اليك بعم نبينا فاسقنا ، فقد ذكر عمر ـ رضى الله عنه ـ : أنهم كانوا يتوسلون به فى حياته فى الاستسقاء ، ثم توسلوا بعمه العباس بعد موته ، وتوسلهم

به هو استقاؤهم به ، بحيث يدعو ويدعون معه ، فيكون هو وسليتهم الى الله ، وهذا لم يفعله الصحابة بعد موته ولا فى مغيبه ، والنبي صلى الله عليه وسلم كان فى مثل هذا شافعا لهم ، داعيالهم ، ولهذا قال فى حديث الاعمى : اللهم فشفعه فى . فعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم شفع له ، فسأل الله أن يشفعه فيه .

والثانى : أن التوسل يكون فى حياته ، وبعد موته ، وفى مغيبه وحضرته ، ولم يقل أحد : أن من قال بالقول الاول فقد كفر ، ولا وجه لتكفيره ، فإن هذه مسألة خفية ، ليست أدلتها جلية ظاهرة ، والكفر انما يكون بانكار ما علم من الدين ضرورة ، أو بانكار الاحكام المتواترة والمجمع عليها ، ونحو ذلك .

واختلاف الناس فيما يشرع من الدعاء وما لا يشرع ، كاختلافهم هل تشرع الصلاة عليه عند الذبح ، وليس هو من مسائل السب عند أحد من المسلمين .

وأما من قال : أن من نفى التوسل الذى سماه استغاثة بغيره كفر ، وتكفير من قال بقول الشيخ عز الدين وأمثاله ، فأظهر من أن يحتاج الى جواب ، بل المكفر بمثل هذه الأمور ، يستحق من غليظ العقوبة والتعزير ما يستحقه أمثاله ، من المفترين على الدين ، لا سيما مع قول النبي صلى الله وسلم: « من قال لاخيه : كافر فقد باء بها أحدهما » .

وأما من قال: ما لايقدر عليه الا الله لا يستغاث فيه الا به ، فقد قال الحق ، بل لو قال كما قال أبو يزيد : استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة الغريق بالغريق ، وكما قال الشيخ أبو عبد الله القرشى استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة المسجون بالمسجون لكان قد أحسن . فان مطلق هذا الكلام يفهم الاستغاثة

المطلقة ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس « اذا سألت فاسأل الله ، واذا استعنت فاستعن بالله» .

واذا نفى الرسول عن نفسه أمرا كان هو الصادق المصدوق فى ذلك ، كما هو الصادق المصدوق فى كل ما يخبر به من نفى ، واثبات ، وعلينا أن نصدقه فى كل ما أخبر به ، من نفى ، واثبات ، ومن رد خبره تعظيما له ، أشبه النصارى ، الذين كذبوا المسيح فى إخباره عن نفسه بالعبودية ، تعظيما له ، ويجوز لنا أن ننفى ما نفاه ، وليس لاحد أن يقابل نفيه بنقيض ذلك البتة . والله أعـــلم .

وسئل شيخ الاسلام :

(تقى الدين بن تيمية رضي الله عنه)

ما تقول السادة العلماء أئمة الدين وفقهم الله لطاعته فيمن يقول : لا يستغاث برسول الله صلى الله عليه وسلم ، هل يحرم عليه هذا القول ، وهل هو كفر أم لا ؟ وان استدل بآيات من كتاب الله وأحاديث رسوله صلى الله عليه وسلم هل ينفعه دليله أم لا ؟ واذا قام الدليل من الكتاب والسنة فما يجب على من يخالف ذلك ؟ أفتونا مأجورين .

فأجاب :ـ

الحمد لله : قد ثبت بالسنة المستفيضة ، بل المتواترة ، واتفاق الأمة : أن نبينا صلى الله عليه وسلم الشافع المشفع ، وأنه يشفع فى الخلائق يوم القيامة وأن الناس يستشفعون به يطلبون منه أن يشفع لهم الى ربهم وأنه يشفع لهم .

ثم اتفق أهل السنة والجماعة أنه يشفع فى أهل الكبائر ، وأنه لا يخلد فى النار من أهل التوحيد أحد .

وأما الخوارج والمعتزلة فأنكروا شفاعته لأهل الكبائر ، ولم ينكروا شفاعته للمؤمنين ، وهؤلاء مبتدعة ضلال وفى تكفيرهم نزاع وتفصيل .

وأما من أنكر ماثبت بالتواتر والإجماع فهو كافر بعد قيام الحجة ، وسواء سمى هذا المعنى استغاثة أو لم يسمه ؟ .

وأما من أقر بشفاعته وأنكر ما كان الصحابة يفعلونه من التوسل به والاستشفاع به ، كما رواه البخارى فى صحيحه عن أنس أن عمر بن الخطاب كان اذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب ، وقال : اللهم انا كنا نتوسل اليك بنبينا فتسقينا وانا نتوسل اليك بعم نبينا فاسقنا فيسقون . وفى سنن أبى داود وغيره أن أعرابياً قال للنبى صلى الله عليه وسلم : جهدت الأنفس وجاع العيال وهلك المال فادع الله لنا فإنا نستشفع بك على الله ونستشفع بالله عليك. فسبح رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى عرف ذلك فى وجوه أصحابه وقال : « ويحك إن الله لا يستشفع به على أحد من خلقه شأن الله أعظم من ذلك » وذكر تمام الحديث فأنكر قوله نستشفع بالله عليك ولم ينكر قوله نستشفع بك على الله بل أقره عليه فعلم جوازه ، فمن أنكر هذا فهو ضال مخطىء مبتدع ، وفى تكفيره نزاع وتفصيل .

وأما من أقر بما ثبت بالكتاب والسنة والإجماع من شفاعته والتوسل به ونحو ذلك ، ولكن قال لا يدعى إلا الله وأن الأمور التى لا يقدر عليها الا الله لا تطلب إلا منه ، مثل غفران الذنوب ، وهداية القلوب وإنزال المطر ، وإنبات النبات ونحو ذلك : فهذا مصيب فى ذلك بل هذا مما لا نزاع فيه بين المسلمين أيضاً . كما قال الله تعالى : (ومن يغفر الذنوب الا الله) وقال : (انك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء) وكما قال تعالى : (يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء

والارض؟) وكما قال تعالى : (وما جعله الله الا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر الا من عند الله) وقال : (إلا تنصروه فقد نصره الله اذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين اذ هما فى الغار اذ يقول لصاحبه لاتحزن ان الله معنا).

فالمعانى الثابتة بالكتاب والسنة : يجب اثباتها ، والمعانى المنفية بالكتاب والسنة ، يجب نفيها ، والعبارة الدالة على المعانى نفياً واثباتاً ان وجدت فى كلام الله ورسوله : وجب اقرارها . وان وجدت فى كلام أحد وظهر مراده من ذلك رتب عليه حكمه ، والا رجع فيه اليه .

وقد يكون فى كلام الله ورسوله عبارة لها معنى صحيح ، لكن بعض الناس يفهم من تلك غير مراد الله ورسوله ، فهذا يرد عليه فهمه . كما روى الطبرانى فى معجمه الكبير أنه كان فى زمن النبي صلى الله عليه وسلم منافق يؤذى المؤمنين فقال أبو بكر الصديق : قوموا بنا لنستغيث برسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا المنافق فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إنه لا يستغاث بى وإنما يستغاث بالله » فهذا إنما أراد به النبي صلى الله عليه وسلم المعنى الثانى . وهو أن يطلب منه مالا يقدر عليه إلا الله ، وإلا فالصحابة كانوا يطلبون منه الدعاء ويستسقون به ، كما فى صحيح البخارى عن ابن عمر قال : ربما ذكرت قول الشاعر وأنا أنظر الى وجه النبي صلى الله عليه وسلم ، يستسقى فما ينزل حتى يجيش له ميزاب :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل!

وهو قول أبى طالب ، ولهذا قال العلماء المصنفون فى أسماء الله تعالى : يجب على كل مكلف أن يعلم أن لا غياث ولا مغيث على الإطلاق إلا الله ، وان كل

غوث فمن عنده ، وإن كان جعل ذلك على يدى غيره فالحقيقة له سبحانه وتعالى ولغيره مجاز .

قالوا : من أسمائه تعالى المغيث والغياث ، وجاء ذكر المغيث فى حديث أبى هريرة ، قالوا واجتمعت الأمة على ذلك .

وقال أبو عبد الله الحليمى : الغياث هو المغيث ، وأكثر ما يقال غياث المستغيثين ، ومعناه المدرك عباده فى الشدائد اذا دعوه ، ومجيبهم ومخلصهم ، وفى خبر الاستسقاء فى الصحيحين : « اللهم أغثنا اللهم أغثنا » يقال أغاثه إغاثة وغياثا وغوثا ، وهذا الاسم فى معنى المجيب والمستجيب قال تعالى : (اذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم) الا أن الاغاثة أحق بالافعال ، والاستجابة أحق بالاقوال ، وقد يقع كل منهما موقع الآخر .

قالوا الفرق بين المستغيث والداعى ، أن المستغيث ينادى بالغوث . والداعى ينادى بالمدعو والمغيث . وهذا فيه نظر ، فان من صيغة الاستغاثة ياالله للسلمين،

وقد روى عن معروف الكرخى أنه كان يكثر أن يقول واغوثاه ، ويقول انى سمعت الله يقول : (اذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم) وفى الدعاء المأثور: ياحى ياقيوم لااله الا أنت برحمتك أستغيث أصلح لى شأنى كله ولا تكلنى الى نفسى طرفة عين ولا الى أحد من خلقك » .

والاستغاثة برحمته استغاثة به فى الحقيقة ، كما أن الاستعاذة بصفاته استعاذة به فى الحقيقة ، وكما أن القسم بصفاته قسم به فى الحقيقة ، ففى الحديث : « أعوذ بكلمات الله التامة من شر ما خلق » وفيه « أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وبك منك لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » .

ولهذا استدل الأئمة فيما استدلوا على أن كلام الله غير مخلوق بقوله : « أعوذ بكلمات الله التامة » قالوا : والاستعاذة لا تصلح بالمخلوق .

وكذلك القسم قد ثبت فى الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت » وفى لفظ « من حلف بغير الله فقد أشرك » رواه الترمذى وصححه . ثم قد ثبت فى الصحيح : الحلف «بعزة الله» و«لعمر الله» ونحو ذلك مما اتفق المسلمون على أنه ليس من الحلف بغير الله الذى نهى عنه ، والاستغاثة بمعنى أن يطلب من الرسول ما هو اللائق بمنصبه لا ينازع فيها مسلم ، ومن نازع فى هذا المعنى فهو إما كافر إن أنكر ما يكفر به ، وإما مخطىء ضال .

وأما بالمعنى الذى نفاه رسول الله صلى الله عليه وسلم : فهو أيضاً مما يجب نفيها ، ومن أثبت لغير الله ما لا يكون إلا لله فهو أيضاً كافر إذا قامت عليه الحجة التى يكفر تاركها .

ومن هذا الباب قول أبى يزيد البسطامى : استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة الغريق بالغريق ، وقول الشيخ أبى عبد الله القرشى المشهور بالديار المصرية : استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة المسجون بالمسجون .

وفى دعاء موسى عليه السلام : « اللهم لك الحمد واليك المشتكى وأنت المستعان وبك المستغاث وعليك التكلان ولا حول ولا قوة إلا بك » ولما كان هذا المعنى هو المفهوم منها عند الاطلاق وكان مختصاً بالله : صح اطلاق نفيه عما سواه ، ولهذا لا يعرف عن أحد من أئمة المسلمين انه جوز مطلق الاستغاثة بغير الله ، ولا أنكر على من نفى مطلق الاستغاثة عن غير الله .

وكذلك الاستغاثة أيضاً فيها ما لا يصلح الا لله ، وهى المشار اليها بقوله : (إياك نعبد وإياك نستعين) فانه لا يعين على العبادة الإعانة المطلقة الا الله ، وقد يستعان بالمخلوق فيما يقدرعليه ، وكذلك الاستنصار . قال الله تعالى : (وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر) والنصر المطلق هو خلق ما به يغلب العدو ولا يقدر عليه إلا الله .

ومن خالف ما ثبت بالكتاب والسنة : فإنه يكون إما كافراً ، وإما فاسقا ، وإما عاصياً ، الا أن يكون مؤمناً مجتهداً مخطئاً فيثاب على اجتهاده ، ويغفر له خطؤه ، وكذلك إن كان لم يبلغه العلم الذى تقوم عليه به الحجة ، فإن الله يقول : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) . وأما اذا قامت عليه الحجة الثابتة بالكتاب والسنة فخالفها : فإنه يعاقب بحسب ذلك إما بالقتل وإما بدونه والله أعـــلم .

وقال شيخ الاسلام : -

فصـــــل

سمى الله آلهتهم التى عبدوها من دونه شفعاء ، كما سماها شركاء ، فى غير موضع ، فقال فى يونس : (ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السماوات ولا فى الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون) .

وقال : (أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أولو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون ؟ قل لله الشفاعة جميعاً) (ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء) .

وجمع بين الشرك والشفاعة فى قوله : (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير . ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) . فهذه الاربعة هى التى يمكن أن يكون لهم بها تعلق . الاول : ملك شىء ولو قل ، الثانى : شركهم فى شىء من الملك . فلا ملك ولا شركة ولا معاونة يصير بها نداً . فإذا انتفت الثلاثة : بقيت الشفاعة فعلقها بالمشيئة .

وقال : (وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً) وقال : (قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا) الآيتين . وقال فى اتخاذهم قربانا : (ما نعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى) . وقال : (فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة بل ضلوا عنهم وذلك إفكهم وما كانوا يفترون) .

وقال شيخ الاسلام رحمه الله

فصـــــل

فى الشفاعة المنفية فى القرآن : كقوله تعالى : (واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل) . وقوله تعالى : (ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة) وقوله : (من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة) وقوله : (فما لنا من شافعين ولا صديق حميم) وقوله : (ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع) . وقوله : (يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل) وأمثال ذلك .

واحتج بكثير منه الخوارج والمعتزلة على منع الشفاعة لأهل الكبائر ، اذ منعوا أن يشفع لمن يستحق العذاب ، أو أن يخرج من النار من يدخلها ، ولم ينفوا الشفاعة لأهل الثواب فى زيادة الثواب .

ومذهب سلف الامة وأئمتها وسائر أهل السنة والجماعة : إثبات الشفاعة لاهل الكبائر ، والقول بأنه يخرج من النار من فى قلبه مثقال ذرة من إيمان .

وأيضاً : فالاحاديث المستفيضة عن النبي صلى الله عليه وسلم فى الشفاعة : فيها — استشفاع أهل الموقف ليقضى بينهم ،وفيهم المؤمن والكافر ، وهذا فيه

نوع شفاعة للكفار . وأيضاً : فني الصحيح عن العباس بن عبد المطلب أنه قال :
يا رسول الله هل نفعت أبا طالب بشيء ؟ فإنه كان يحوطك ويغضب لك قال :
« نعم هو فى ضحضاح من نار ولولا أنا لكان فى الدرك الأسـفل من النار »
وعن عبد الله بن الحارث قال : سمعت العباس يقول : قلت يا رسول الله
ان أبا طالب كان يحوطك وينصرك ، فهل نفعه ذلك ؟ قال : نعم ، وجدته
فى غمرات من نار فأخرجته الى ضحضاح .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم .
ذكر عنده عمه أبو طالب ، فقال : « لعله تنفعه شفاعتى يوم القيامة فيجعل
فى ضحضاح من النار يبلغ كعبيه يغلى منه دماغه » .

فهذا نص صحيح صريح لشفاعته فى بعض الكفار أن يخفف عنه العذاب ،
بل فى أن يجعل أهون أهل النار عذاباً ، كما فى الصحيح أيضاً عن ابن عباس :
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أهون أهل النار عذاباً أبو طالب وهو
متنعل بنعلين يغلى منهما دماغه » .

وعن أبى سعيد الخدرى: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « إن أدنى
أهل النار عذاباً منتعل بنعلين من نار يغلى دماغه من حرارة نعليه » وعن النعمان
بن بشير قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن أهون أهل
النار عذاباً يوم القيامة لرجل يوضع فى أخمص قدميه جمرتان يغلى منهما دماغه »
وعنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أهون أهل النار عذابا
من له نعلان وشراكان من نار يغلى منهما دماغه كما يغلى المرجل مايرى أن أحداً
أشد منه عذاباً وانه لأهونهم عذاباً .

وهذا السؤال الثـانى يضعف جواب من تأول نفى الشفاعة على الشفاعة للـكفار ، وإن الظالمين هم الكافرون[1] .

فيقال : الشفاعة المنفية هى الشـفاعة المعروفة عند الناس عند الإطلاق ، وهى أن يشفع الشفيع الى غيره ابتداء فيقبل شفاعته ، فأما اذا أذن له فى أن يشفع فشفع ؛ لم يكن مستقلا بالشفاعة ، بل يكون مطيعاً له أى تابعاً له فى الشفاعة ، وتـكون شفاعته مقبولة ويكون الامر كله للآمر المسئول .

وقد ثبت بنص القرآن فى غير آية : أن أحداً لا يشفع عنـده إلا بإذنه . كما قال تعالى: (من ذا الذى يشفع عنده الا بإذنه) : وقال : (ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) وقال : (ولا يشفعون الا لمن ارتضى) وأمثال ذلك . والذى يبين أن هذه هى الشفاعة المنفية : أنه قال : (وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا الى ربهم ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع لعلهم يتقون) وقال تعالى : (الله الذى خلق السموات والارض وما بينهما فى سـتة أيام ثم استوى على العرش مالكم من دونه من ولىٍّ ولا شـفيع) ؛ فأخبر أنه ليس لهم من دون الله ولىّ ولا شفيع .

وأما نفى الشـفاعة بدون إذنه : فإن الشفاعة اذا كانت بإذنه لم تـكن من دونه ، كما أن الولاية التى بإذنه ليست من دونه ؛ كما قال تعالى : (انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا : الذين يقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، وهم راكعون ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون) .

وأيضاً فقد قال : (أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أولو كانوا لا يملكون

---

(١) بياض بالاصل .

شيئاً ولا يعقلون . قل لله الشفاعة جميعاً له ملك السموات والارض) فذم الذين اتخذوا من دون الله شفعاء وأخبر أن لله الشفاعة جميعاً ، فعلم أن الشفاعة منتفية عن غيره ، اذ لا يشفع أحد الا باذنه ، وتلك فهى له .

وقد قال : (ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الارض ؟ سبحانه وتعالى عما يشركون) .

ومما يوضح ذلك : أنه نفى يومئذ الخلة بقوله : (من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون) ومعلوم أنه انما نفى الخلة المعروفة ، ونفعها المعروف كما ينفع الصديق الصديق فى الدنيا ، كما قال : (وما أدراك ما يوم الدين ثم ما أدرك ما يوم الدين يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله) وقال : (لتنذر يوم التلاق يوم هم بارزون . لا يخفى على الله منهم شىء لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار) .

لم ينف أن يكون فى الآخرة خلة نافعة باذنه ، فإنه قد قال : (الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين . ياعباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون) الآيات وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : يقول الله تعالى : « حقت محبتى للتحابين فى » ويقول الله تعالى : « أين المتحابون بجلالى ؟ اليوم أظلهم فى ظلى يوم لاظل الا ظلى » .

فتعين أن الامر كله عائد الى تحقيق التوحيد ، وأنه لا ينفع أحد ولا يضر الا باذن الله ، وأنه لا يجوز أن يعبد أحد غير الله ، ولا يستعان به من دون الله ، وأنه يوم القيامة يظهر لجميع الخلق أن الأمر كله لله ، ويتبرأ كل مدع من

دعواه الباطلة ، فلا يبقى من يدعى لنفسه معه شركا فى ربوبيته ، أو الهيته ، ولا من يدعى ذلك لغيره . بخلاف الدنيا ، فإنه وان لم يكن رب ولا اله الا هو فقد اتخذ غيره رباً والها ، وادعى ذلك مدعون .

وفى الدنيا يشفع الشافع عند غيره ، وينتفع بشفاعته وإن لم يكن أذن له فى الشفاعة ، ويكون خليله ، فيعينه ويفتدى نفسه من الشر ، فقد ينتفع بالنفوس والأموال فى الدنيا ، النفوس ينتفع بها تارة بالاستقلال ، وتارة بالاعانة وهى الشفاعة ، والاموال بالفداء ، فنفى الله هذه الاقسام الثلاثة . قال تعالى : (لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل) وقال : (لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة) كما قال : (لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً) . فهذا هذا والله أعلم .

وعاد ما نفاه الله من الشفاعة ، الى تحقيق أصلى الإيمان ، وهى الإيمان بالله وباليوم الآخر ، التوحيد والمعاد ، كما قرن بينهما فى مواضع كثيرة . كقوله : (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر) وقوله : (الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا : إنا لله وإنا اليه راجعون) وقوله : (ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة) وقـــوله : (وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم اليه ترجعون) . وأمثال ذلك .

سئل[1] شيخ الإسلام ـ قدس الله روحه ـ

عن رجلين تناظرا فقال أحدهما : لا بد لنا من واسطة بيننا وبين الله ، فإنا لا نقدر أن نصل اليه بغير ذلك .

فأجاب : ـ

الحمد لله رب العالمين . إن أراد بذلك أنه لا بد من واسطة تبلغنا أمر الله : فهذا حق . فإن الخلق لا يعلمون ما يحبه الله ويرضاه ، وما أمر به وما نهى عنه ، وما أعده لأوليائه من كرامته ، وما وعد به أعداءه من عذابه ، ولا يعرفون ما يستحقه الله تعالى من أسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، التي تعجز العقول عن معرفتها وأمثال ذلك الا بالرسل ، الذين أرسلهم الله الى عباده .

فالمؤمنون بالرسل المتبعون لهم هم المهتدون الذين يقربهم لديه زلفى ، ويرفع درجاتهم ، ويكرمهم فى الدنيا والآخرة . وأما المخالفون للرسل : فإنهم ملعونون ، وهم عن ربهم ضالون محجوبون . قال تعالى : (يابنى آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) وقال تعالى : (فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى . ومن

---

(١) تسمى هذه الرسالة الواسطة بين الخلق والحق .

أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى . قال رب لِمَ حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً . قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) قال ابن عباس : تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل فى الدنيا ، ولا يشقى فى الآخرة .

وقال تعالى عن أهل النار : (كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شىء إن أنتم الا فى ضلال كبير) وقال تعالى : (وسيق الذين كفروا الى جهنم زمراً ، حتى اذا جاؤها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين) وقال تعالى : (وما نرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون . والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب بما كانوا يفسقون) وقال تعالى : (انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده وأوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهرون وسليمان وآتينا داوود زبورا ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما . رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) .

ومثل هذا فى القرآن كثير .

وهذا مما أجمع عليه جميع أهل الملل من المسلمين ، واليهود ، والنصارى ، فإنهم يثبتون الوسائط بين الله وبين عباده ، وهم الرسل الذين بلغوا عن الله

أمره وخبره . قال تعالى : (ألله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس) ومن أنكر هذه الوسائط فهو كافر بإجماع أهل الملل .

والسور التى أنزلها الله بمكة : مثل : الأنعام ، والأعراف ، وذوات : (الر) و : (حم) و : (طس) ونحو ذلك : هى متضمنة لأصول الدين ، كالإيمان بالله ورسله واليوم الآخر .

وقد قص الله قصص الكفار الذين كذبوا الرسل ، وكيف أهلكهم ؛ ونصر رسله ، والذين آمنوا . قال تعالى : (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين . إنهم لهم المنصورون . وإن جندنا لهم الغالبون) . وقال : (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) .

فهذه الوسائط : تطاع وتتبع ويقتدى بها . كما قال تعالى : (وما أرسلنا من رسول الا ليطاع بإذن الله) وقال تعالى : (من يطع الرسول فقد أطاع الله) وقال تعالى : (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) وقال : (فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون) وقال تعالى : (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا) .

وان أراد بالواسطة : أنه لا بد من واسطة فى جلب المنافع ، ودفع المضار ، مثل : أن يكون واسطة فى رزق العباد ، ونصرهم ، وهداهم ؛ يسألونه ذلك ، ويرجون اليه فيه : فهذا من أعظم الشرك ، الذى كفر الله به المشركين ؛ حيث اتخذوا من دون الله أولياء وشفعاء ؛ يجتلبون بهم المنافع ويجتنبون المضار .

لكن الشفاعة لمن يأذن الله له فيها ، حتى قال : (الله الذى خلق السموات

والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تتذكرون)؟ وقال تعالى : (وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا الى ربهم ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع) وقال : (قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا . أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ان عذاب ربك كان محذورا) وقال : (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير · ولا تنفع الشفاعة عنده الا لمن أذن له) .

وقالت طائفة من السلف : كان أقوام يدعون المسيح ، والعزير ، والملائكة : فبين الله لهم أن الملائكة والأنبياء : لا يملكون كشف الضر عنهم ولا تحويلا ، وأنهم يتقربون الى الله ويرجون رحمته ويخافون عذابه .

وقال تعالى : (ماكان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لى من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون . ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون) ؟

فبين سبحانه : أن اتخاذ الملائكة والنبيين أرباباً كفر .

فمن جعل الملائكة والأنبياء وسائط يدعوهم ، ويتوكل عليهم ، ويسألهم جلب المنافع ودفع المضار ، مثل أن يسألهم غفران الذنب ، وهداية القلوب ، وتفريج الكروب ، وسد الفاقات : فهو كافر بإجماع المسلمين .

وقد قال تعالى : (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون ،

لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ، يعـــلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون . ومن يقل منهم إنى اله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزى الظالمين) وقال تعالى : (لن يستنكف المسيح أن يكون عبـداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبـادته ويستكبر فسيحشرهم اليه جميعاً) وقال تعـالى : (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئاً إداً . تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدّا . أن دعوا للرحمن ولداً وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا . ان كل من فى السموات والأرض الا آتى الرحمن عبدا . لقد أحصاهم وعدّهم عدًا . وكلهم آتيه يوم القيامة فردا) ! وقال تعـالى : (ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبؤن الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض ؟ سبحانه وتعالى عما يشركون) وقال تعالى : (و كم من ملك فى السموات لاتغنى شفاعتهم شيئاً الا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى) وقال تعالى : (من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه) . وقال (وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يردك بخير فلا راد لفضله) . وقال تعالى : (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده) وقال تعالى : (قل أفرأيتم ماتدعون من دون الله ان أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره ؟ أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته ؟ قل حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون) .

ومثل هذا كثير فى القرآن .

ومن سوى الأنبياء — من مشايخ العلم والدين — فمن أثبتهم وسائط بين

الرسول وأمته ، يبلغونهم ؛ ويعلمونهم ؛ ويؤدبونهم ؛ ويقتدون بهم ؛ فقد أصاب فى ذلك .

وهؤلاء اذا أجمعوا فإجماعهم حجة قاطعة ، لا يجتمعون على ضلالة ، وان تنازعوا فى شيء ردوه الى الله والرســـول ؛ إذ الواحد منهم ليس بمعصوم على الإطلاق ؛ بل كل أحد من الناس يؤخذ من كلامه ويترك : الا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « العلماء ورثة الأنبياء ، فإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ، وانما ورثوا العلم ! فمن أخذه فقد أخذ بحظ وافر » .

وان أثبتم وسائط بين الله وبين خلقه — كالحجاب الذين بين الملك ورعيته — بحيث يكونون هم يرفعون الى الله حوائج خلقه ؛ فالله انما يهدى عباده ويرزقهم بتوسطهم ؛ فالخلق يسألونهم ، وهم يسألون الله ؛ كما أن الوسائط عند الملوك : يسألون الملوك الحوائج للناس ؛ لقربهم منهم ، والناس يسألونهم ؛ أدباً منهم أن يباشروا سؤال الملك ؛ أو لأن طلبهم من الوسائط أنفع لهم من طلبهم من الملك ؛ لكونهم أقرب الى الملك من الطالب للحوائج . فمن أثبتهم وسائط على هذا الوجه : فهو كافر مشرك ، يجب أن يستتاب ، فإن تاب والا قتل .

وهؤلاء مشبهون لله ، شبهوا المخلوق بالخالق ، وجعلوا لله أندادا . وفى القرآن من الرد على هؤلاء : مالم تتسع له هذه الفتوى .

فإن الوسائط التى بين الملوك وبين الناس : يكونون على أحد وجوه ثلاثة :ـ

إما لإخبارهم من أحوال الناس بما لا يعرفونه .

ومن قال إن الله لايعلم أحوال عباده حتى يخبره بتلك بعض الملائكة أو الأنبياء أو غيرهم : فهو كافر ، بل هو ـ سبحانه ـ يعلم السر وأخفى ، لاتخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء (وهو السميع البصير) . يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات ، لا يشغله سمع عن سمع ، ولا تغلطه المسائل . ولا يتبرم بإلحاح الملحين .

الوجه الثانى : أن يكون الملك عاجزاً عن تدبير رعيته ، ودفع أعدائه ـ إلا بأعوان يعينونه ـ فلا بد له من أنصار وأعوان ، لذله وعجزه .

والله ـ سبحانه ـ ليس له ظهير ، ولا ولى من الذل . قال تعالى :(قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير) وقال تعالى :(وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيرا) .

وكل ما فى الوجود من الأسباب : فهو خالقه ، وربه ومليكه ، فهو الغنى عن كل ما سواه ، وكل ما سواه فقير اليه ؛ بخلاف الملوك المحتاجين الى ظهرائهم وهم ـ فى الحقيقة ـ شركاؤهم فى الملك .

و الله تعالى : ليس له شريك فى الملك ، بل لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير .

والوجه الثالث : أن يكون الملك ليس مريدا لنفع رعيته ، والاحسان اليهم ورحمتهم : إلا بمحرك يحركه من خارج . فإذا خاطب الملك من ينصحه ، ويعظمه ، أو من يدل عليه ؛ بحيث يكون يرجوه ويخافه : تحركت إرادة الملك

وهمته ، فى قضاء حوائج رعيته ، إما لما حصل فى قلبه من كلام الناصح الواعظ المشير ، وإما لما يحصل من الرغبة أو الرهبة من كلام المدل عليه .

والله تعالى : هو رب كل شيء ومليكه ، وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها ، وكل الاشياء انما تكون بمشيئته ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وهو اذا أجرى نفع العباد بعضهم على بعض : فجعل هذا يحسن الى هذا ويدعو له ويشفع فيه ونحو ذلك ، فهو الذى خلق ذلك كله ، وهو الذى خلق فى قلب هذا المحسن الداعى الشافع ارادة الإحسان ، والدعاء والشفاعة ، ولا يجوز أن يكون فى الوجود من يكرهه على خلاف مراده ، أو يعلمه مالم يكن يعلم ، أو من يرجوه الرب ويخافه .

ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا يقولن أحدكم اللهم اغفرلى ان شئت ، اللهم ارحمنى ان شئت ، ولكن ليعزم المسألة ، فإنه لامكره له » .

والشفعاء الذين يشفعون عنده : لا يشفعون الا بإذنه ، كما قال : (من ذا الذى يشفع عنده الا بإذنه) وقال تعالى : (ولا يشفعون الا لمن ارتضى) وقال تعالى : (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الارض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير . ولا تنفع الشفاعة عنده الا لمن أذن له) .

فبين أن كل من دعى من دونه : ليس له ملك ولا شرك فى الملك ، ولا هو ظهير . وأن شفاعتهم لا تنفع الا لمن أذن له .

وهذا بخلاف الملوك : فإن الشافع عندهم قد يكون له ملك ، وقد يكون شريكا لهم فى الملك ، وقد يكون مظاهراً لهم معاونا لهم على ملكهم ، وهؤلاء

يشفعون عند الملوك بغير اذن الملوك هم وغيرهم ، والملك يقبل شفاعتهم : تارة بحاجته اليهم ، وتارة لخوفه منهم . وتارة لجزاء احسانهم اليه ومكافئتهم ولإنعامهم عليه ؛ حتى انه يقبل شفاعة ولده وزوجته لذلك ، فإنه محتاج الى الزوجة والى الولد ؛ حتى لو أعرض عنه ولده وزوجته لتضرر بذلك ، ويقبل شفاعة مملوكه ؛ فإذا لم يقبل شفاعته ؛ يخاف أن لا يطيعه ، أو أن يسعى فى ضرره وشفاعة العباد بعضهم عند بعض : كلها من هذا الجنس . فلا يقبل أحد شفاعة أحد الا لرغبة أو رهبة .

والله تعالى : لا يرجو أحداً ، ولا يخافه ، ولا يحتاج الى أحد بل هو الغنى قال تعالى : (ألا ان لله من فى السموات ومن فى الأرض وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء ان يتبعون الا الظن وإن هم الا يخرصون) الى قوله: (قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه هو الغنى له ما فى السموات وما فى الأرض) .

والمشركون : يتخذون شفعاء من جنس ما يعهدونه من الشفاعة . قال تعالى : (ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض؟ سبحانه وتعالى عما يشركون) وقال تعالى : (فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة بل ضلوا عنهم وذلك افكهم وما كانوا يفترون) .

وأخبر عن المشركين انهم قالوا : (ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى) وقال تعالى : (ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيأمركم بالكفر بعد اذ أنتم مسلمون) وقال تعالى : (قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا . أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة

أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ان عذاب ربك كان محذورا) .

فأخبر أن ما يدعى من دونه لا يملك كشف ضر ولا تحويله ، وأنهم يرجون رحمته ، ويخافون عذابه ، ويتقربون اليه . فهو ـ سبحانه ـ قد نفى ما من الملائكة والأنبياء ؛ الا من الشفاعة بإذنه ، والشفاعة هى الدعاء .

ولا ريب أن دعاء الخلق بعضهم لبعض نافع ، والله قد أمر بذلك ، لكن الداعى الشافع : ليس له أن يدعو ويشفع الا بإذن الله له فى ذلك فلا يشفع شفاعة نهى عنها ؛ كالشفاعة للشركين والدعاء لهم بالمغفرة . قال تعالى : (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم . وما كان استغفار ابراهيم لأبيه الا عن موعدة وعدها اياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه) . وقال تعالى فى حق المنافقين : (سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم) .

وقد ثبت فى الصحيح : أن الله نهى نبيه عن الإستغفار للشركين والمنافقين ، وأخبر أنه لا يغفر لهم . كما فى قوله : (ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) وقوله : (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره انهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون) وقد قال تعالى : (أدعوا ربكم تضرعا وخفية انه لا يحب المعتدين) ـ فى الدعاء ـ ومن الإعتداء فى الدعاء : أن يسأل العبد ما لم يكن الرب ليفعله . مثل : أن يسأله منازل الأنبياء وليس منهم ، أو المغفرة للشركين ، ونحو ذلك . أو يسأله ما فيه معصية الله ، كإعانته على الكفر والفسوق والعصيان .

فالشفيع الذى أذن الله له فى الشفاعة : شفاعته فى الدعاء الذى ليس فيه عدوان .

ولو سأل أحدهم دعاء لا يصلح له لا يقر عليه ؛ فإنهم معصومون أن يقروا على ذلك . كما قال نوح : (إن ابنى من أهلى وان وعدك الحق وأنت أحكم الحاكين) قال تعالى : (يانوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إنى أعظك أن تكون من الجاهلين . قال رب انى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم والا تغفرلى وترحمنى أكن من الخاسرين) .

وكل داع شافع دعا الله — سبحانه وتعالى — وشفع : فلا يكون دعاؤه وشفاعته إلا بقضاء الله وقدره ومشيته ، وهو الذى يجيب الدعاء ويقبل الشفاعة فهو الذى خلق السبب والمسبب ، والدعاء من جملة الأسباب التى قدرها الله — سبحانه وتعالى — .

واذا كان كذلك : فالإلتفات الى الأسباب شرك فى التوحيد ، ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقص فى العقل ، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح فى الشرع ؛ بل العبد يجب أن يكون توكله ودعاؤه وسؤاله ورغبته الى الله — سبحانه وتعالى — والله يقدر له من الأسباب — من دعاء الخلق وغيرهم — ما شاء .

والدعاء مشروع أن يدعو الأعلى للأدنى ، والأدنى للأعلى : فطلب الشفاعة والدعاء من الأنبياء كما كان المسلمون يستشفعون بالنبى صلى الله عليه وسلم فى الاستسقاء ، ويطلبون منه الدعاء ؛ بل وكذلك بعده استسقى عمر والمسلمون بالعباس عمه ، والناس يطلبون الشفاعة يوم القيامة من الأنبياء ،

ومحمد صلى الله عليه وسلم وهو سيد الشفعاء ، وله شفاعات يختص بها - ومع هذا - فقد ثبت فى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل مايقول ، ثم صلوا على ؛ فإنه من صلى على مرة صلى الله عليه عشراً ، ثم سلوا الله لى الوسيلة ؛ فإنها درجة فى الجنة لاتنبغى الا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون ذلك العبد ! فمن سأل الله لى الوسيلة حلت عليه شفاعتى يوم القيامة » وقد قال لعمر لما أراد أن يعتمر وودعه : « يا أخى لا تنسنى من دعائك » .

فالنبي صلى الله عليه وسلم قد طلب من أمته أن يدعوا له ؛ ولكن ليس ذلك من باب سؤالهم ، بل أمره بذلك لهم كأمره لهم بسائر الطاعات التى يثابون عليها ، مع أنه صلى الله عليه وسلم له مثل أجورهم فى كل مايعملونه ، فإنه قد صح عنه أنه قال : « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً ، ومن دعا الى ضلالة كان عليه من الوزر مثل أوزار من اتبعه من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً » وهو داعى الأمة الى كل هدى ، فله مثل أجورهم فى كل ما اتبعوه فيه .

وكذلك اذا صلوا عليه فإن الله يصلى على أحدهم عشراً ، وله مثل أجورهم مع ما يستجيبه من دعائهم له ، فذلك الدعاء قد أعطاهم الله أجرهم عليه ، وصار ما حصل له به من النفع نعمة من الله عليه ، وقد ثبت عنه فى الصحيح أنه قال : « ما من رجل يدعو لأخيه بظهر الغيب بدعوة إلا وكل الله به ملكاً ، كلما دعا لأخيه بدعوة قال الملك الموكل به : آمين ولك مثل ذلك » وفى حديث آخر : « أسرع الدعاء دعوة غائب لغائب .

فالدعاء للغير ينتفع به الداعى ، والمدعو له وإن كان الداعى دون المدعو له ، فدعاء المؤمن لأخيه ينتفع به الداعى والمدعو له . فمن قال لغيره ادع لى وقصد انتفاعهما جميعاً بذلك كان : هو وأخوه متعاونين على البر والتقوى ، فهو نبه المسئول وأشار عليه بما ينفعهما ، والمسئول فعل ما ينفعهما ، بمنزلة من يأمر غيره ببر وتقوى ؛ فيثاب المأمور على فعله ، والآمر أيضاً يثاب مثل ثوابه ؛ لكونه دعا إليه ، لاسيما ومن الأدعية ما يؤمر بها العبد ، كما قال تعالى : (واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات) فأمره بالإستغفار ثم قال : (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيما) .

فذكر — سبحانه — استغفارهم ، واستغفار الرسول لهم اذ ذاك مما أمر به الرسول ، حيث أمره أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات ، ولم يأمر الله مخلوقاً أن يسأل مخلوقاً شيئاً لم يأمر الله المخلوق به ، بل ما أمر الله العبد أمر ايجاب ، أو استحباب ؛ ففعله هو عبادة لله وطاعة وقربة الى الله ، وصلاح لفاعله وحسنة فيه ، واذا فعل ذلك كان أعظم لإحسان الله اليه ، وانعامه عليه . بل أجل نعمة أنعم الله بها على عباده أن هداهم للإيمان .

والإيمان قول وعمل ، يزيد بالطاعة والحسنات ، وكلما ازداد العبد عملا للخير . ازداد ايمانه . هذا هو الإنعام الحقيقى المذكور فى قوله : (صراط الذين أنعمت عليهم) وفى قوله : (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم) . بل نعم الدنيا بدون الدين هل هى من نعمه أم لا ؟ فيه قولان مشهوران للعلماء من أصحابنا وغيرهم .

والتحقيق : أنهـا نعمة من وجـــه وان لم تـكن نعمة تامة من وجه ، واما الإنعام بالدين الذى ينبغى طلبه فهو ما أمر الله به من واجب ومستحب ، فهو الخير الذى ينبغى طلبه باتفاق المسلين ، وهو النعمة الحقيقية عند أهل السنة اذ عندهم أن الله هو الذى أنعم بفعل الخير . والقدرية عندهم إنمـا أنعم بالقدرة عليه ، الصالحة للضدين فقط .

والمقصود هنا : أن الله لم يأمر مخلوقا أن يسأل مخلوقا الا ما كان مصلحة لذلك المخلوق ، إما واجب أو مستحب . فإنه سبحانه لا يطلب من العبد الاذلك ، فـكيف يأمر غيره أن يطلب منه غير ذلك ؟ بل قد حرم على العبد أن يسأل العبد ماله الا عند الضرورة .

وان كان قصده مصلحة المأمور أو مصلحته ومصلحة المأمور ، فهذا يثاب على ذلك ، وان كان قصده حصول مطلوبه من غير قصد منه لانتفاع المأمور ، فهذا من نفسه أتى ، ومثل هذا السؤال لا يأمر الله به قط ، بل قد نهى عنه ، اذ هذا سؤال محض للمخلوق من غير قصده لنفعه ولا لمصلحته ، والله يأمرنا أن نعبده ونرغب اليه ، ويأمرنا أن نحسن الى عباده ، وهذا لم يقصد لا هذا ولا هذا ، فلم يقصد الرغبة الى الله ودعائه ، وهو الصلاة . ولا قصد الإحسان الى المخلوق الذى هو الزكاة ، وان كان العبد قد لا يأثم بمثل هذا السؤال ؛ لكن فرق مابين ما يؤمر به العبد وما يؤذن له فيه ، ألا ترى أنه قال فى حديث السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب : انهم لا يسترقون . وان كان الإسترقاء جائزاً . وهذا قد بسطناه فى غير هذا الموضع .

والمقصود هنا : أن من أثبت وسائط بين الله وبين خلقه ، كالوسائط التى

تكون بين الملوك والرعية . فهو مشرك ؛ بل هذا دين المشركين عباد الأوثان كانوا يقولون : انها تماثيل الأنبياء والصالحين ، وانها وسائل يتقربون بها الى الله ؛ وهو من الشرك الذى أنكره الله على النصارى حيث قال : (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا الا ليعبدوا الهاً واحداً لا اله الا هو سبحانه عما يشركون) وقال تعالى : (واذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان فاليستجيبوا لى واليؤمنوا بى لعلهم يرشدون) أى فليستجيبوا لى اذا دعوتهم بالامر والنهى ، واليؤمنوا بى أن أجيب دعائهم لى بالمسألة والتضرع .

وقال تعالى : (فإذا فرغت فانصب . والى ربك فارغب) وقال تعالى : (واذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه) وقال تعالى : (أمَّن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض) . وقال تعالى : (يسأله من فى السموات والأرض كل يوم هو فى شأن) .

وقد بين الله هذا التوحيد فى كتابه ، وحسم مواد الإشراك به حتى لايخاف أحد غير الله ، ولا يرجو سواه ، ولا يتوكل الا عليه . وقال تعالى : (فلا تخشو الناس واخشون ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلا) (انما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه) أى يخوفكم أولياءه (فلا تخافوهم وخافون ان كنتم مؤمنين) وقال تعالى : (ألم تر الى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال اذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية) وقال تعالى : (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة

وآتى الزكاة ولم يخش الا الله) وقال تعـالى : (ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون) .

فبين أن الطاعة لله ورسوله ، وأما الخشية فلله وحده .

وقال تعـالى : (ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله) ونظيره قوله تعالى : (الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) .

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم : يحقق هذا التوحيد لأمته ، ويحسم عنهم مواد الشرك ، اذ هذا تحقيق قولنـا لا إله إلا الله ، فإن الإله هو الذى تألهه القلوب ، لـكمال المحبة والتعظيم ، والإجلال والإكرام ، والرجاء والخوف ، حتى قال لهم : «لا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد ، ولـكن قولوا ماشاء الله ثم شاء محمد » وقال له رجل : ما شاء الله وشئت . فقال : « أجعلتنى لله ندا ؟ بل ما شاء الله وحده » وقال : « من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت » وقال : « من حلف بغير الله فقد أشرك » وقال لابن عباس : « اذا سألت فاسئل الله ، واذا استعنت فاستعن بالله ، جف القلم بمـا أنت لاق ، فلو جهدت الخليقة على أن تنفعك لم تنفعك إلا بشىء كتبه الله لك ، ولو جهدت أن تضرك لم تضرك الا بشىء كتبه الله عليك » ! وقال أيضاً : « لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم ، وانما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله » وقال : « اللهم لا تجعل قبرى وثنا يعبد » وقال : « لا تتخذوا قبرى عيدا ، وصلوا على فإن صلاتكم تبلغنى حيث ما كنتم » وقال فى مرضه : « لعن الله اليهود والنصارى اتخـذوا قبـور

أنبيائهم مساجد » يحذر ما صنعوا قالت عائشة : ولو ذلك لأبرز قبره ؛ ولكن كره أن يتخذ مسجدا . وهذا باب واسع .

ومع علم المؤمن أن الله رب كل شيء ومليكه : فإنه لا ينكر ما خلقه الله من الأسباب ، كما جعل المطر سبباً لإنبات النبات . قال الله تعالى : (وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة) وكما جعل الشمس والقمر سبباً لما يخلقه بهما ، وكما جعل الشفاعة والدعاء سبباً لما يقضيه بذلك ، مثل صلاة المسلمين على جنازة الميت، فإن ذلك من الأسباب التي يرحمه الله بها ، ويثيب عليها المصلين عليه، لكن ينبغي أن يعرف في الأسباب ثلاثة أمور :

أحدها : أن السبب المعين لا يستقل بالمطلوب ، بل لابد معه من أسباب أخر ، ومع هذا فلها موانع . فإن لم يكمل الله الأسباب ، ويدفع الموانع : لم يحصل المقصود ، وهو ـ سبحانه ـ ما شاء كان ـ وان لم يشأ الناس ـ وما شاء الناس لا يكون إلا أن يشاء الله .

الثاني : أن لا يجوز أن يعتقد أن الشيء سبب إلا بعلم ، فمن أثبت شيئاً سبباً بلا علم أو يخالف الشرع : كان مبطلا ، مثل من يظن أن النذر سبب في دفع البلاء وحصول النعماء .

وقد ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم : أنه نهى عن النذر وقال : « إنه لا يأتي بخير وانما يستخرج به من البخيل » .

الثالث : أن الأعمال الدينية لا يجوز أن يتخذ منها شيء سبباً الا أن تكون مشروعة ؛ فإن العبادات مبناها على التوقيف ؛ فلا يجوز للإنسان أن يشرك بالله ، فيدعو غيره ـ وإن ظن أن ذلك سبب في حصول بعض أغراضه ـ

وكذلك لا يعبد الله بالبدع ، المخالفة للشريعة ـ وإن ظن ذلك ـ فإن الشياطين قد تعين الإنسان على بعض مقاصده اذا أشرك ، وقد يحصل بالكفر والفسوق والعصيان بعض أغراض الإنسان ، فلا يحل له ذلك ؛ إذ المفسدة الحاصلة بذلك أعظم من المصلحة الحاصلة به إذ الرسول صلى الله عليه وسلم : بعث بتحصيل المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفاسد وتقليلها ، فما أمر الله به : فمصلحته راجحة ، وما نهى عنه : فمفسدته راجحة ، وهذه الجمل : لها بسط لا تحتمله هذه الورقة . والله أعلم .

وسئل رحمه الله :ـ

قال السائل : إن الله يسمع الدعاء بواسطة محمد صلى الله عليه وسلم فإنه الوسيلة والواسطة .

فأجاب : ـ

الحمد لله ، إن أراد بذلك أن الإيمان بمحمد ، وطاعته ، والصلاة والسلام عليه وسيلة للعبد فى قبول دعائه وثواب دعائه فهو صادق ؛ وإن أراد أن الله لا يجيب دعاء أحد حتى يرفعه الى مخلوق ، أو يقسم عليه به ، أو أن نفس الأنبياء بدون الإيمان بهم وطاعتهم وبدون شفاعتهم وسيلة فى اجابة الدعاء : فقد كذب فى ذلك والله أعلم .

وسئل شيخ الاسلام رحمه الله تعالى :ـ

هل يجوز التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم أم لا ؟ .

فأجاب :ـ

الحمد لله . أما التوسل بالإيمان به ، ومحبته وطاعته ، والصلاة والسلام عليه ، وبدعائه وشفاعته ونحو ذلك ، مما هو من أفعاله ، وأفعال العباد المأمور بها فى حقه . فهو مشروع باتفاق المسلمين ، وكان الصحابة رضى الله عنهم يتوسلون به فى حياته . وتوسلوا بعد موته بالعباس عمه ، كما كانوا يتوسلون به .

وأما قول القائل : اللهم انى أتوسل اليك به . فللعلماء فيه قولان : كما لهم فى الحلف به قولان : وجمهور الأئمة كمالك ، والشافعى ، وأبى حنيفة : على أنه لا يسوغ الحلف بغيره من الأنبياء ، والملائكة ولا تنعقد اليمين بذلك باتفاق العلماء ، وهذا احدى الروايتين عن أحمد ، والرواية الأخرى تنعقد اليمين به خاصة دون غيره ، ولذلك قال أحمد فى منسكه الذى كتبه للمروذى صاحبه : إنه يتوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم فى دعائه ؛ ولكن غير أحمد قال : ان هذا إقسام على الله به ، ولا يقسم على الله بمخلوق ، وأحمد فى احدى الروايتين قد جوز القسم به ، فلذلك جوز التوسل به .

ولكن الرواية الأخرى عنه : هى قول جمهور العلماء ، أنه لايقسم به ؛

فلا يقسم على الله به كسائر الملائكة ، والأنبياء ، فإنا لا نعلم أحداً من السلف والأئمة قال إنه يقسم به على الله ؛ كما لم يقولوا إنه يقسم بهم مطلقاً ؛ ولهذا أفتى أبو محمد بن عبد السلام : أنه لا يقسم على الله بأحد من الملائكة والأنبياء وغيرهم ؛ لكن ذكر له أنه روى عن النبي صلى الله عليه سلم حديث فى الإقسام به فقال : ان صح الحديث كان خاصاً به ، والحديث المذكور لايدل على الإقسام به ' وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من كان حالفاً فليحلف بالله والا فليصمت » وقال : « من حلف بغير الله فقد أشرك » والدعاء عبادة ، والعبادة مبناها على التوقيف والاتباع ، لا على الهوى والإبتداع والله أعلم .

وقال شيخ الاسلام قدس الله روحه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له .

وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له .

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وكفى بالله شهيداً .

أرسله بين يدى الساعة بشيراً ونذيراً ، وداعياً الى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، فهدى به من الضلالة ، وبصر به من العمى ، وأرشد به من الغى ، وفتح به أعيناً عميا ، وآذانا صما وقلوبا غلفا . فبلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، ونصح الأمة ، وجاهد فى الله حق جهاده ، وعبد ربه حتى أتاه اليقين من ربه ، صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما .

ففرق بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، والرشاد والغى ، وطريق أهل الجنة وطريق أهل النار ، وبين أوليائه وأعدائه . فالحلال ما حلله الله ورسوله ، والحرام ما حرمه الله ورسوله ، والدين ماشرعه الله ورسوله .

وقد أرسله الله الى الثقلين الجن والإنس . فعلى كل أحد أن يؤمن به وبما جاء به ويتبعه فى باطنه وظاهره . والإيمان به ومتابعته هو سبيل الله وهو دين الله

(١) تسمى قاعدة في التوسل والوسيلة .

وهو عبادة الله وهو طاعة الله وهو طريق أولياء الله وهو الوسيلة التى أمر الله بها عباده فى قوله تعالى (٥ : ٣٥) : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا اليه الوسيلة) فابتغاء الوسيلة الى الله انما يكون لمن توسل الى الله بالإيمان بمحمد واتباعه .

وهذا التوسل بالإيمان به وطاعته فرض على كل أحد : باطناً وظاهراً فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعد موته . فى مشهده ومغيبه ، لا يسقط التوسل بالايمان به وبطاعته عن أحد من الخلق فى حال من الأحوال بعد قيام الحجة عليه ، ولا بعذر من الاعذار . ولا طريق الى كرامة الله ورحمته والنجاة من هوانه وعذابه الا التوسل بالإيمان به وبطاعته .

وهو صلى الله عليه وسلم شفيع الخلائق صاحب المقام المحمود الذى يغبطه به الأولون والآخرون ، فهو أعظم الشفعاء قدراً وأعلاهم جاها عند الله ، وقد قال تعالى عن موسى (وكان عند الله وجيهاً) وقال عن المسيح (وجيهاً فى الدنيا والآخرة) . ومحمد صلى الله عليه وسلم أعظم جاهاً من جميع الأنبياء والمرسلين ؛ لكن شفاعته ودعاؤه انما ينتفع به من شفع له الرسول ودعا له . فمن دعا له الرسول وشفع له توسل الى الله بشفاعته ودعائه ، كما كان أصحابه يتوسلون الى الله بدعائه وشفاعته . وكما يتوسل الناس يوم القيامة الى الله تبارك وتعالى بدعائه وشفاعته : صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما .

ولفظ (التوسل) فى عرف الصحابة كانوا يستعملونه فى هـــذا المعنى . والتوسل بدعائه وشفاعته ينفع مع الايمان به ، وأما بدون الإيمان به : فالكفار والمنافقون لا تغنى عنهم شفاعة الشافعين فى الآخرة .

ولهذا نهى عن الاستغفار لعمه وأبيه وغيرهما من الكفار ، ونهى عن الاستغفار للمنافقين وقيل له : (سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم) ، ولكن الكفار يتفاضلون فى الكفر كما يتفاضل أهل الإيمان فى الإيمان ، قال تعالى : (إنما النسىء زيادة فى الكفر) .

فإذا كان فى الكفار من خف كفره بسبب نصرته ومعونته فإنه تنفعه شفاعته فى تخفيف العذاب عنه لا فى إسقاط العذاب بالكلية ، كما فى صحيح مسلم عن العباس بن عبد المطلب أنه قال : قلت يا رسول الله فهل نفعت أبا طالب بشىء ، فإنه كان يحوطك ويغضب لك ؟ قال : « نعم هو فى ضحضاح من نار ، ولولا أنا لكان فى الدرك الأسفل من النار » ، وفى لفظ : ان أبا طالب كان يحوطك وينصرك ويغضب لك فهل نفعه ذلك ؟ قال « نعم ، وجدته فى غمرات من نار فأخرجته الى ضحضاح » ، وفيه عن أبى سعيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر عنده عمه أبو طالب فقال « لعله تنفعه شفاعتى يوم القيامة فيجعل فى ضحضاح من النار يبلغ كعبيه يغلى منهما دماغه » ، وقال « ان أهون أهل النار عذاباً أبو طالب ، وهو منتعل بنعلين من نار يغلى منهما دماغه » .

وكذلك ينفع دعاؤه لهم بأن لا يعجل عليهم العذاب فى الدنيا كما كان صلى الله عليه وسلم يحكى نبياً من الآنبياء ضربه قومه وهو يقول « اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون » . وروى أنه دعا بذلك أن اغفر لهم فلا تعجل عليهم العذاب فى الدنيا ؛ قال تعالى : (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم الى أجل مسمى .

وأيضا فقد يدعو لبعض الكفار بأن يهديه الله أو يرزقه فيهديه أو يرزقه، كما دعا لأم أبي هريرة حتى هداها الله، وكما دعا لدوس فقال « اللهم اهد دوسا وائت بهم » فهداهم الله، وكما روى أبو داود أنه استسقى لبعض المشركين لما طلبوا منه أن يستسقى لهم فاستسقى لهم، وكان ذلك احساناً منه اليهم يتألف به قلوبهم كما كان يتألفهم بغير ذلك.

وقد اتفق المسلمون على أنه صلى الله عليه وسلم أعظم الخلق جاهاً عند الله، لا جاه لمخلوق عند الله أعظم من جاهه، ولا شفاعة أعظم من شفاعته. لكن دعاء الأنبياء وشفاعتهم ليس بمنزلة الإيمان بهم وطاعتهم، فان الإيمان بهم وطاعتهم يوجب سعادة الآخرة والنجاة من العذاب مطلقا وعاما، فكل من مات مؤمنا بالله ورسوله مطيعا لله ورسوله كان من أهل السعادة قطعا، ومن مات كافرا بما جاء به الرسول كان من أهل النار قطعاً.

وأما الشفاعة والدعاء فانتفاع العباد به موقوف على شروط وله موانع، فالشفاعة للكفار بالنجاة من النار والاستغفار لهم مع موتهم على الكفر لا تنفعهم - ولو كان الشفيع أعظم الشفعاء جاها - فلا شفيع أعظم من محمد صلى الله عليه وسلم ثم الخليل ابراهيم، وقد دعا الخليل ابراهيم لأبيه واستغفر له كما قال تعالى عنه (ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب). وقد كان صلى الله عليه وسلم أراد أن يستغفر لأبي طالب اقتداء بابراهيم وأراد بعض المسلمين أن يستغفر لبعض أقاربه فأنزل الله تعالى: (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ماتبين لهم أنهم أصحاب الجحيم).

ثم ذكر الله عذر ابراهيم فقال : (وما كان استغفار ابراهيم لأبيه الا عن موعدة وعدها اياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن ابراهيم لأواه حليم . وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون) ، وثبت فى صحيح البخارى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « يلقى ابراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة ، فيقول له ابراهيم : ألم أقل لك لا تعصنى ؟ فيقول له أبوه : فاليوم لا أعصيك . فيقول ابراهيم : يارب أنت وعدتنى أن لا تخزنى يوم يبعثون ، وأى خزى أخزى من أبى الأبعد ؟ فيقول الله عز وجل : انى حرمت الجنة على الكافرين ، ثم يقال : أنظر ما تحت رجليك فينظر فإذا هو بذيخ متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى فى النار » فهذا لما مات مشركا لم ينفعه استغفار ابراهيم مع عظم جاهه وقدره ، وقد قال تعالى للمؤمنين : (قد كانت لكم أسوة حسنة فى ابراهيم والذين معه اذ قالوا لقومهم انا برءآء منكم ومما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده ، إلا قول ابراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شىء ، ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير * ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم) .

فقد أمر الله تعالى المؤمنين بأن يتأسوا بابراهيم ومن اتبعه ، الا فى قول ابراهيم لأبيه « لأستغفرن لك » فإن الله لا يغفر أن يشرك به .

وكذلك سيد الشفعاء محمد صلى الله عليه وسلم ، ففى صحيح مسلم عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « استأذنت ربى أن أستغفر لأمى فلم يأذن لى ، واستأذنته أن أزور قبرها فأذن لى » . وفى رواية أن النبى صلى الله عليه وسلم

زار قبر أمه فبكى وأبكى من حوله ثم قال « استأذنت ربى أن أستغفر لأمى فلم يأذن لى ، واستأذنته فى أن أزور قبرها فأذن لى ، فزوروا القبور فإنها تذكر الموت » وثبت عن أنس فى الصحيح أن رجلا قال : يارسول الله أين أبى ؟ قال « فى النار » . فلما قفى دعاه فقال « ان أبى وأباك فى النار » . وثبت أيضا فى الصحيح عن أبى هريرة لما أنزلت هذه الآية : (وأنذر عشيرتك الأقربين) دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشاً فاجتمعوا فعم وخص فقال : « يا بنى كعب بن لؤى ، أنقذوا أنفسكم من النار . يا بنى مرة بن كعب ، أنقذوا أنفسكم من النار . يا بنى عبد شمس ، أنقذوا أنفسكم من النار . يا بنى عبد مناف ، أنقذوا أنفسكم من النار . يا بنى عبد المطلب ، أنقذوا أنفسكم من النار . يا فطمة ، أنقذى نفسك من النار . فإنى لا أملك لكم من الله شيئا ، غير أن لكم رحما سأبلها ببلالها » . وفى رواية عنه « يا معشر قريش ، اشتروا أنفسكم من الله ؛ فانى لا أغنى عنكم من الله شيئا . يا بنى عبد المطلب . لا أغنى عنكم من الله شيئا . يا عباس بن عبد المطلب ، لا أغنى عنك من الله شيئا . يا صفية — عمة رسول الله — لا أغنى عنك من الله شيئا . يا فطمة بنت رسول الله ، سلينى من مالى ما شئت ، لا أغنى عنك من الله شيئا » . وعن عائشة لما نزلت : (وأنذر عشيرتك الأقربين) قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « يا فطمة بنت محمد ، يا صفية بنت عبد المطلب . لا أملك لكم من الله شيئا . سلونى من مالى ما شئتم » .

وعن أبى هريرة قال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيبا ذات يوم فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره ثم قال: «لا ألفين أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء يقول : يا رسول الله . أغثنى . فأقول : لا أملك لك شيئا

قد أبلغتك . لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرس له حمحمة فيقول : يا رسول الله أغثني . فأقول : لا أملك لك شيئا قد أبلغتك . لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء ، فيقول : يا رسـول الله ، أغثني . فأقول : لا أملك لك شيئا ، قد أبلغتك . لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته رقاع تخفق فيقول : يا رسول الله ، أغثني . فأقول : لا أملك لك شيئا ، قد أبلغتك . لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت فيقول : يارسول الله ، أغثني . فأقول : لا أملك لك شيئا ، قد أبلغتك » أخرجاه فى الصحيحين وزاد مسلم « لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته نفس لها صـياح ، فيقول : يا رسول الله ، أغثني . فأقول : لا أملك لك شيئا ، قد أبلغتك » . وفى البخارى عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ولا يأتى أحدكم يوم القيامة بشاة يحملها على رقبته لها يعار فيقول : يا محمد ، فأقول : لا أملك لك شيئا ، قد بلغت . ولا يأتى أحدكم ببعير يحمله على رقبته له رغاء فيقول : يا محمد ، فأقول : لا أملك لك شيئا ، قد بلغت » . وقوله هنا صلى الله عليه وسلم لا أملك لك من الله شيئا كقول ابراهيم لأبيه (لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء) .

وأما شفاعته ودعاؤه للمؤمنين فهى نافعة فى الدنيا والدين باتفاق المسلمين ، وكذلك شفاعته للمؤمنين يوم القيامة فى زيادة الثواب ورفع الدرجات متفق عليها بين المسلمين ، وقد قيل إن بعض أهل البدعة ينـكرها .

وأما شفاعته لأهل الذنوب من أمته فمتفق عليها بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان وسائر أئمـة المسلمين الأربعة وغيرهم ، وأنـكرها كثير من أهل البدع من الخوارج والمعتزلة والزيدية ، وقال هؤلاء : من يدخل النار لا يخرج منها

لا بشفاعة ولا غيرها ، وعند هؤلاء ما ثم إلا من يدخل الجنة فلا يدخل النار ، ومن يدخل النار فلا يدخل الجنة ، ولا يجتمع عندهم فى الشخص الواحد ثواب وعقاب . وأما الصحابة والتابعون لهم بإحسان وسائر الأئمة كالأربعة وغيرهم فيقرون بما تواترت به الأحاديث الصحيحة عن النبى صلى الله عليه وسلم أن الله يخرج من النار قوما بعد أن يعذبهم الله ما شاء أن يعذبهم ، يخرجهم بشفاعة محمد صلى الله عليه وسلم ، ويخرج آخرين بشفاعة غيره ، ويخرج قوما بلا شفاعة .

واحتج هؤلاء المنكرون للشفاعة بقوله تعالى : (واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل) وبقوله : (ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة) وبقوله : (من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة) وبقوله : (ما للظالمين من حميم ، ولا شفيع يطاع) وبقوله : (فما تنفعهم شفاعة الشافعين) .

وجواب أهل السنة أن هذا يراد به شيئان :

أحدهما : أنها لا تنفع المشركين ، كما قال تعالى فى نعتهم : (ما سلككم فى سقر * قالوا لم نك من المصلين * ولم نك نطعم المسكين * وكنا نخوض مع الخائضين * وكنا نكذب بيوم الدين * حتى أتانا اليقين * فما تنفعهم شفاعة الشافعين) فهؤلاء نفى عنهم نفع شفاعة الشافعين لأنهم كانوا كفاراً .

والثانى : أنه يراد بذلك نفى الشفاعة التى يثبتها أهل الشرك ، ومن شابههم من أهل البدع : من أهل الكتاب والمسلمين الذين يظنون أن للخلق عند الله من القدر أن يشفعوا عنده بغير إذنه ، كما يشفع الناس بعضهم عند بعض فيقبل

المشفوع إليه شفاعة شافع لحاجته اليه رغبة ورهبة ، وكما يعامل المخلوق المخلوق بالمعاوضة .

فالمشركون كانوا يتخذون من دون الله شفعاء من الملائكة والأنبياء والصالحين، ويصورون تماثيلهم فيستشفعون بها ويقولون : هؤلاء خواص الله، فنحن نتوسل الى الله بدعائهم وعبادتهم ليشفعوا لنا ، كما يتوسل الى الملوك بخواصهم لكونهم أقرب الى الملوك من غيرهم ، فيشفعون عند الملوك بغير إذن الملوك ، وقد يشفع أحدهم عند الملك فيما لايختاره فيحتاج الى إجابة شفاعته رغبة ورهبة .

فأنكر الله هذه الشفاعة فقال تعالى : (من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه) وقال : (وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى) ، وقال عن الملائكة : (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون * لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون * يعلم مابين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون) وقال : (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لايملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير * ولاتنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) وقال تعالى : (ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض ، سبحانه وتعالى عما يشركون) وقال تعالى : (وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع لعلهم يتقون) وقال تعالى : (الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش مالكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تتذكرون) ،

وقال تعالى : (ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون) وقال تعالى : (ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم ، وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء ، لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون) وقال تعالى:(أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أولو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون * قل لله الشفاعة جميعاً له ملك السموات والارض ثم إليه ترجعون * وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذاهم يستبشرون) وقال تعالى : (وخشعت الاصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً * يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا) وقال صاحب يس : (وما لِيَ لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون ؟ * أ أتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عنى شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون ؟ * إنى إذاً لفى ضلال مبين * إنى آمنت بربكم فاسمعون) .

فهذه الشفاعة التى أثبتها المشركون للملائكة والأنبياء والصالحين حتى صوروا تماثيلهم وقالوا : استشفاعنا بتماثيلهم استشفاع بهم ، وكذلك قصدوا قبورهم وقالوا : نحن نستشفع بهم بعد مماتهم ليشفعوا لنا إلى الله ، وصوّروا تماثيلهم فعبدوهم كذلك ، وهذه الشفاعة أبطلها الله ورسوله وذم المشركين عليها وكفرهم بها . قال الله تعالى عن قوم نوح : (وقالوا لا تذرنّ آلهتكم ولا تذرنّ وَدّاً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً * وقد أضلوا كثيراً) . قال ابن عباس وغيره : هؤلاء قوم صالحون كانوا فى قوم نوح ، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم فعبدوهم ، وهذا مشهور فى كتب التفسير والحديث

وغيرها كالبخارى وغيره ، وهذه أبطلها النبي صلى الله عليه وسلم وحسم مادتها وسد ذريعتها ، حتى لعن من اتخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد يصلى فيها وإن كان المصلى فيها لا يستشفع بهم ، ونهى عن الصلاة الى القبور وأرسل عليّ ابن أبى طالب فأمره أن لا يدع قبراً مشرفاً إلا سواه ، ولا تمثالا الا طمسه ومحاه ، ولعن المصورين . وعن أبى الهياج الأسدى : قال لى على بن أبى طالب : « لأبعثك على ما بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا تدع تمثالا إلا طمسته ، ولا قبراً مشرفاً الا سويته » . وفى لفظ : « ولا صورة إلا طمستها » . أخرجه مسلم .

فصـــــل

ولفظ (التوسل) قد يراد به ثلاثة أمور . يراد به أمران متفق عليهما بين المسلمين :—

أحدهما هو أصل الإيمان والإسلام ، وهو التوسل بالإيمان به وبطاعته .

والثانى دعاؤه وشـفاعته ، وهذا أيضاً نافع يتوسل به من دعا له وشفع فيه باتفاق المسلمين . ومن أنـكر التوسل به بأحد هذين المعنيين فهو كافر مرتد يستتاب ، فإن تاب والا قتل مرتداً . ولـكن التوسـل بالإيمان به وبطاعته هو أصل الدين ، وهذا معلوم بالاضطرار من دين الإسـلام للخاصة والعامة ، فمن أنـكر هذا المعنى فـكفره ظاهر للخاصة والعامة .

وأما دعاؤه وشفاعته وانتفاع المسلمين بذلك فمن أنـكره فهو أيضاً كافر ، لـكن هذا أخفى من الأول ، فمن أنـكره عن جهل عُرِّف ذلك ، فإن أصر على انكاره فهو مرتد .

أما دعاؤه وشفاعته فى الدنيا فلم ينكره أحد من أهل القبلة .

وأما الشفاعة يوم القيامة فمذهب أهل السـنة والجماعة ـ وهم الصحابة والتابعون لهم بإحسان وسـائر أئمة المسلمين الاربعة وغيرهم ـ أن له شـفاعات يوم القيامة خاصة وعامة ، وأنه يشـفع فيمن يأذن الله له أن يشفع فيه من أمته من أهل الـكبائر . ولا ينتفع بشفاعته الا أهل التوحيد المؤمنون ؛ دون أهل

الشرك ، ولو كان المشرك محباً له معظماً له لم تنقذه شفاعته من النار ، وانما ينجيه من النار التوحيد والإيمان به ، ولهذا لما كان أبو طالب وغيره يحبونه ولم يقروا بالتوحيد الذى جاء به لم يمكن أن يخرجوا من النار بشفاعته ولا بغيرها .

وفى صحيح البخارى عن أبى هريرة أنه قال : قلت يا رسول الله أى الناس أسعد بشفاعتك يوم القيامة فقال « أسعد الناس بشفاعتى يوم القيامة من قال لا إله الا الله خالصاً من قلبه » . وعنه فى صحيح مسلم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لكل نبى دعوة مستجابة ، فتعجل كل نبى دعوته ، وإنى اختبأت دعوتى شفاعة يوم القيامة فهى نائلة ان شاء الله تعالى من مات من أمتى لا يشرك بالله شيئاً » وفى السنن عن عوف بن مالك قال : قال رسول الله « أتانى آت من عند ربى فخيرنى بين أن يدخل نصف أمتى الجنة وبين الشفاعة ، فاخترت الشفاعة ، وهى لمن مات لايشرك بالله شيئاً » وفى لفظ قال « ومن لقى الله لايشرك به شيئاً فهو فى شفاعتى » .

وهذا الأصل وهو التوحيد هو أصل الدين الذى لايقبل الله من الأولين والآخرين ديناً غيره ، وبه أرسل الله الرسل وأنزل الكتب ، كما قال تعالى : (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا : أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ؟) وقال تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى اليه أنه لا اله الا أنا فاعبدون) وقال تعالى : (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة) . وقد ذكر الله عز وجل عن كل من الرسل أنه افتتح دعوته بأن قال لقومه : (اعبدوا الله مالكم من اله غيره) .

وفى المسند عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « بعثت بالسيف بين يدى الساعة حتى يعبد الله وحده لاشريك له ، وجعل رزقى تحت ظل رمحى ، وجعل الذل والصغار على من خالف أمرى . ومن تشبه بقوم فهو منهم » .

والمشركون من قريش وغيرهم — الذين أخبر القرآن بشركهم واستحل النبي صلى الله عليه وسلم دماءهم وأموالهم وسبي حريمهم وأوجب لهم النار — كانوا مقرين بأن الله وحده خلق السموات والأرض كما قال : (ولئن سألتهم : من خلق السموات والأرض ليقولن : الله ، قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون) وقال : (ولئن سألتهم : من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ؟ ليقولن الله ، فأنى يؤفكون ؟) وقال : (قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟ * سيقولون لله ، قل أفلا تذكرون ؟ * قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ؟ * سيقولون لله ، قل أفلا تتقون ؟ * قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ؟ * سيقولون لله ، قل فأنى تسحرون ؟ * بل أتيناهم بالحق وإنهم لكاذبون * ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله ، إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون) .

وكان المشركون الذين جعلوا معه آلهة أخرى مقرين بأن آلهتهم مخلوقة ، ولكنهم كانوا يتخذونهم شفعاء ويتقربون بعبادتهم إليه كما قال تعالى : (ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض ؟ سبحانه وتعالى عما يشركون)

وقال تعالى : (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم * إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين ألا لله الدين الخالص ، والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون . إن الله لا يهدى من هو كاذب كفار) وكانوا يقولون فى تلبيتهم :

لبيك لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك

وقال تعالى : (ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون * بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم ، فمن يهدى من أضل الله وما لهم من ناصرين * فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون * منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين * من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون) .

بين سبحانه بالمثل الذى ضربه لهم أنه لا ينبغى أن يجعل مملوكه شريكه فقال : (هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم؟ فأنتم فيه سواء) يخاف أحدكم مملوكه كما يخاف بعضكم بعضا ، فاذا كان أحدكم لا يرضى أن يكون مملوكه شريكه فكيف ترضونه لأنفسكم ؟ .

وهذا كما كانوا يقولون : له بنات ، فقال تعالى : (ويجعلون لله ما يكرهون وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى لا جرم أن لهم النار وأنهم مفرطون) وقد قال تعالى : (وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم * يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ،

ألا ساء ما يحكمون * للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم) .

والمشركون الذين وصفهم الله ورسوله بالشرك أصلهم صنفان :

قوم نوح . وقوم ابراهيم : فقوم نوح كان أصل شركهم العكوف على قبور الصالحين ، ثم صوروا تماثيلهم ، ثم عبدوهم .

وقوم ابراهيم كان أصل شركهم عبادة الكواكب والشمس والقمر .

وكل من هؤلاء يعبدون الجن ، فان الشياطين قد تخاطبهم وتعينهم على أشياء ، وقد يعتقدون أنهم يعبدون الملائكة وإن كانوا فى الحقيقة إنما يعبدون الجن فإن الجن هم الذين يعينونهم ويرضون بشركهم قال تعالى : (ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون * قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون) .

والملائكة لا تعينهم على الشرك لا فى المحيا ولا فى الممات ولا يرضون بذلك ، ولكن الشياطين قد تعينهم وتتصور لهم فى صور الآدميين فيرونهم بأعينهم ويقول أحدهم : أنا ابراهيم ، أنا المسيح ، أنا محمد ، أنا الخضر ، أنا أبو بكر ، أنا عمر ، أنا عثمان ، أنا على ، أنا الشيخ فلان . وقد يقول بعضهم عن بعض : هذا هو النبي فلان أو هذا هو الخضر ويكون أولئك كلهم جنا يشهد بعضهم لبعض . والجن كالإنس فنهم الكافر ومنهم الفاسق ومنهم العاصى وفيهم العابد الجاهل ، فمنهم من يحب شيخا فيتزيا فى صورته ويقول : أنا فلان . ويكون ذلك فى برية ومكان قفر فيطعم ذلك الشخص طعاما ويسقيه شرابا أو يدله على الطريق أو يخبره ببعض الأمور الواقعة الغائبة فيظن ذلك

الرجل أن نفس الشيخ الميت أو الحى فعل ذلك ، وقد يقول : هذا سر الشيخ وهذه رقيقته وهذه حقيقته أو هذا ملك جاء على صورته . وإنما يكون ذلك جنيا ، فان الملائكة لا تعين على الشرك والإفك والإثم والعدوان .

وقد قال الله تعالى : (قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا * أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ، إن عذاب ربك كان محذوراً) قال طائفة من السلف كان أقوام يدعون الملائكة والأنبياء كالعزير والمسيح فبين الله تعالى أن الملائكة والأنبياء عباد الله ، كما أن الذين يعبدونهم عباد الله ، وبين أنهم يرجون رحمته ويخافون عذابه ويتقربون إليه كما يفعل سائر عباده الصالحين .

والمشركون من هؤلاء قد يقولون : إنا نستشفع بهم أى نطلب من الملائكة والأنبياء أن يشفعوا ، فاذا أتينا قبر أحدهم طلبنا منه أن يشفع لنا ، فاذا صورنا تمثاله ـ والتماثيل إما مجسدة وإما تماثيل مصورة كما يصورها النصارى فى كنائسهم ـ قالوا : فمقصودنا بهذه التماثيل تذكر أصحابها وسيرهم ونحن نخاطب هذه التماثيل ومقصودنا خطاب أصحابها ليشفعوا لنا إلى الله . فيقول أحدهم : يا سيدى فلان أو يا سيدى جرجس أو بطرس أو يا ستى الحنونة مريم أو يا سيدى الخليل أو موسى بن عمران أو غير ذلك ، اشفع لى إلى ربك .

وقد يخاطبون الميت عند قبره : سل لى ربك . أو يخاطبون الحى وهو غائب كما يخاطبونه لو كان حاضرا حيا وينشدون قصائد يقول أحدهم فيها : يا سيدى فلان ! أنا فى حسبك ، أنا فى جوارك ، اشفع لى إلى الله ، سل الله لنا أن ينصرنا

على عدونا ، سل الله أن يكشف عنا هذه الشدة ، أشكو إليك كذا ، وكذا ، فسل الله أن يكشف هذه الكربة . أو يقول أحدهم : سل الله أن يغفر لى .

ومنهم من يتأول قوله تعالى: (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً) ويقولون: إذا طلبنا منه الاستغفار بعد موته كنا بمنزلة الذين طلبوا الاستغفار من الصحابة ، ويخالفون بذلك إجماع الصحابة والتابعين لهم بإحسان وسائر المسلمين ، فإن أحدا منهم لم يطلب من النبي صلى الله عليه وسلم بعد موته أن يشفع له ولا سأله شيئا ولا ذكر ذلك أحد من أئمة المسلمين فى كتبهم ، وإنما ذكر ذلك من ذكره من متأخرى الفقهاء وحكوا حكاية مكذوبة على مالك رضى الله عنه سيأتى ذكرها وبسط الكلام عليها ان شاء الله تعالى .

فهذه الأنواع من خطاب الملائكة والأنبياء والصالحين بعد موتهم عند قبورهم وفى مغيبهم ، وخطاب تماثيلهم ، هو من أعظم أنواع الشرك الموجود فى المشركين من غير أهل الكتاب ، وفى مبتدعة اهل الكتاب والمسلمين الذين أحدثوا من الشرك والعبادات ما لم يأذن به الله تعالى . قال الله تعالى : (أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله) .

فإن دعاء الملائكة والأنبياء بعد موتهم وفى مغيبهم وسؤالهم والاستغاثة بهم والاستشفاع بهم فى هذه الحال ونصب تماثيلهم - بمعنى طلب الشفاعة منهم - هو من الدين الذى لم يشرعه الله ولا ابتعث به رسولا ولا أنزل به كتاباً ، وليس هو واجباً ولا مستحباً باتفاق المسلمين ، ولا فعله أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، ولا أمر به إمام من أئمة المسلمين ، وإن كان ذلك مما يفعله كثير

من الناس ممن له عبادة وزهد ، ويذكرون فيه حكايات ومنامات ، فهذا كله من الشيطان .

وفيهم من ينظم القصائد فى دعاء الميت ، والاستشفاع به ، والاستغاثة ، أو يذكر ذلك فى ضمن مديح الانبياء والصالحين ، فهذا كله ليس بمشروع ، ولا واجب ، ولا مستحب باتفاق أئمة المسلمين ، ومن تعبد بعبادة ليست واجبة ولا مستحبة ، وهو يعتقدها واجبة أو مستحبة فهو ضال مبتدع : بدعة سيئة لا بدعة حسنة باتفاق أئمة الدين ، فان الله لا يعبد إلا بما هو واجب أو مستحب .

وكثير من الناس يذكرون فى هذه الانواع من الشرك منافع ومصالح ، ويحتجون عليها بحجج من جهة الرأى أو الذوق ، أو من جهة التقليد والمنامات ونحو ذلك .

وجواب هؤلاء من طريقين :

أحدهما الاحتجاج بالنص والإجماع .

والثانى القياس والذوق والاعتبار ببيان ما فى ذلك من الفساد ، فان فساد ذلك راجح على ما يظن فيه من المصلحة .

أما الاول فيقال : قد علم بالاضطرار والتواتر من دين الإسلام وبإجماع سلف الامة وأئمتها أن ذلك ليس بواجب ولا مستحب .

وعلم أنه لم يكن النبى صلى الله عليه وسلم بل ولا أحد من الانبياء قبله شرعوا للناس أن يدعوا الملائكة والانبياء والصالحين ولا يستشفعوا بهم ، لا بعد مماتهم ولا فى مغيبهم ، فلا يقول أحد : يا ملائكة الله اشفعوا لى عند الله ، سلوا الله لنا أن ينصرنا أو يرزقنا أو يهدينا .

وكذلك لا يقول لمن مات من الانبياء والصالحين : يا نبي الله ، يا رسول الله ! ادع الله لى ، سل الله لى ، استغفر الله لى ، سل الله لى أن يغفر لى أو يهديني أو ينصرنى أو يعافيني ، ولا يقول : أشكو إليك ذنوبى أو نقص رزقى أو تسلط العدو على ، أو أشكو إليك فلانا الذى ظلمنى ولا يقول : أنا نزيلك أنا ضيفك أنا جارك أو : أنت تجير من يستجير ، أو أنت خير معاذ يستعاذ به .

ولا يكتب أحد ورقة ويعلقها عند القبور ، ولا يكتب أحد محضراً أنه استجار بفلان ويذهب بالمحضر إلى من يعمل بذلك المحضر ، ونحو ذلك مما يفعله أهل البدع من أهل الكتاب والمسلمين ، كما يفعله النصارى فى كنائسهم ، وكما يفعله المبتدعون من المسلمين عند قبور الأنبياء والصالحين أو فى مغيبهم ، فهذا مما علم بالاضطرا من دين الإسلام وبالنقل المتواتر وبإجماع المسلمين أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يشرع هذا لأمته .

وكذلك الأنبياء قبله لم يشرعوا شيئا من ذلك ، بل أهل الكتاب ليس عندهم عن الأنبياء نقل بذلك كما أن المسلمين ليس عندهم عن نبيهم نقل بذلك ، ولا فعل هذا أحد من أصحاب نبيهم والتابعين لهم بإحسان ، ولا استحب ذلك أحد من أئمة المسلمين ، لا الأئمة الأربعة ولا غيرهم ، ولا ذكر أحد من الأئمة لا فى مناسك الحج ولا غيرها أنه يستحب لأحد أن يسأل النبى صلى الله عليه وسلم عند قبره أن يشفع له أو يدعو لأمته أو يشكو إليه مانزل بأمته من مصائب الدنيا والدين .

وكان أصحابه يبتلون بأنواع من البلاء بعد موته ، فتارة بالجدب ، وتارة بنقص الرزق ، وتارة بالخوف وقوة العدو ، وتارة بالذنوب والمعاصى ،

ولم يكن أحد منهم يأتى إلى قبر الرســـول صلى الله عليه وسلم ولا قبر الخليل ولا قبر أحد من الأنبياء فيقول : نشكوا اليك جدب الزمان أو قوة العدو أو كثرة الذنوب ، ولا يقول : سل الله لنا أو لأمتك أن يرزقهم أو ينصرهم أو يغفر لهم ، بل هذا وما يشبهه من البدع المحدثة التى لم يستحبها أحد من أئمة المسلمين ، فليست واجبة ولا مستحبة باتفاق أئمة المسلمين .

وكل بدعة ليست واجبة ولا مستحبة فهى بدعة سيئة وهى ضلالة باتفاق المسلمين ، ومن قال فى بعض البدع إنها بدعة حسنة فإنما ذلك اذا قام دليل شرعى أنها مستحبة ، فأما ما ليس بمستحب ولا واجب فلا يقول أحد من المسلمين انها من الحسنات التى يتقرب بها الى الله .

ومن تقرب الى الله بما ليس من الحسنات المأمور بها أمرَ ايجاب ولا استحباب فهو ضال متبع للشيطان ، وسبيله من سبيل الشيطان ، كما قال عبد الله ابن مسعود : خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطاً وخط خطوطاً عن يمينه وشماله ثم قال « هذا سبيل الله ، وهذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه » ثم قرأ : (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) .

فهذا أصل جامع يجب على كل من آمن بالله ورسوله أن يتبعه ، ولا يخالف السنة المعلومة ، وسبيل السابقين الاولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ، باتباع من خالف السنة والإجماع القديم ، لاسيما وليس معه فى بدعته إمام من أئمة المسلمين ، ولا مجتهد يعتمد على قوله فى الدين ، ولا من

يعتبر قوله فى مسائل الإجماع والنزاع فلا ينخرم الإجماع بمخالفته ، ولا يتوقف الإجماع على موافقته .

ولو قدر أنه نازع فى ذلك عالم مجتهد لكان مخصوماً بما عليه السنة المتواترة وباتفاق الأئمة قبله ، فكيف إذا كان المنازع ليس من المجتهدين ولا معه دليل شرعى ، وإنما اتبع من تكلم فى الدين بلا علم ، ويجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير .

بل إن النبي صلى الله عليه وسلم مع كونه لم يشرع هذا فليس هو واجباً ولا مستحباً ، فإنه قد حرَّم ذلك وحرَّم ما يفضى إليه كما حرَّم اتخـــاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد :

فى صحيح مسلم عن جندب بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم قال قبل أن يموت بخمس « إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإنى أنها كم عن ذلك » . وفى الصحيحين عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال قبل موته : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » يحذِّر ما فعلوا ، قالت عائشة : ولولا ذلك لأبرز قبره ، ولكن كره أن يتخذ مسجداً .

واتخاذ المكان مسجداً هو أن يتخذ للصلوات الخمس وغيرها كما تبنى المساجد لذلك ، والمكان المتخذ مسجداً إنما يقصد فيه عبادة الله ودعاؤه لا دعاء المخلوقين .

فحرم صلى الله عليه وسلم أن تتخذ قبورهم مساجد.بقصد الصلوات فيها كما تقصد المساجد وإن كان القاصد لذلك إنما يقصد عبادة الله وحده ، لأن ذلك

ذريعة إلا أن يقصدوا المسجد لأجل صاحب القبر ودعائه والدعاء به والدعاء عنده ، فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن اتخاذ هذا المكان لعبادة الله وحده لئلا يتخذ ذريعة الى الشرك بالله .

والفعل إذا كان يفضى إلا مفسدة وليس فيه مصلحة راجحة ينهى عنه ؛ كما نهى عن الصلاة فى الاوقات الثلاثة لما فى ذلك من المفسدة الراجحة : وهو التشبه بالمشركين الذى يفضى الى الشرك . وليس فى قصد الصلاة فى تلك الاوقات مصلحة راجحة لإمكان التطوع فى غير ذلك من الاوقات .

ولهذا تنازع العلماء فى ذوات الأسباب فسوغها كثير منهم فى هذه الاوقات ، وهو أظهر قولى العلماء لأن النهى إذا كان لسد الذريعة أبيح للمصلحة الراجحة ، وفعل ذوات الاسباب يحتاج اليه فى هذه الاوقات ويفوت إذا لم يفعل فيها فتفوت مصلحتها ، فأبيحت لما فيها من المصلحة الراجحة ؛ بخلاف مالا سبب له فانه يمكن فعله فى غير هذا الوقت فلا تفوت بالنهى عنه مصلحة راجحة ، وفيه مفسدة توجب النهى عنه .

فاذا كان نهيه عن الصلاة فى هذه الاوقات لسد ذريعة الشرك لئلا يفضى ذلك إلى السجود للشمس ودعائها وسؤالها - كما يفعله أهل دعوة الشمس والقمر والكواكب الذين يدعونها ويسألونها - كان معلوما أن دعوة الشمس ، والسجود لها هو محرم فى نفسه ، أعظم تحريما من الصلاة التى نهى عنها لئلا يفضى الى دعاء الكواكب .

كذلك لما نهى عن اتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد - فنهى عن

قصدها للصلاة عندها لئلا يفضى ذلك الى دعائهم والسجود لهم ـ كان دعاؤهم والسجود لهم أعظم تحريما من اتخاذ قبورهم مساجد .

ولهذا كانت زيادة قبور المسلمين على وجهين :

زيارة شرعية ، وزيارة بدعية .

فالزيارة الشرعية أن يكون مقصود الزائر الدعاء للميت ، كما يقصد بالصلاة على جنازته الدعاء له . فالقيام على قبره من جنس الصلاة عليه ، قال الله تعالى فى المنافقين : (ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره) فنهى نبيه عن الصلاة عليهم والقيام على قبورهم لأنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم كافرون . فلما نهى عن هذا وهذا لأجل هذه العلة وهى الكفر دل ذلك على انتفاء هذا النهى عند انتفاء هذه العلة .

ودل تخصيصهم بالنهى على أن غيرهم يصلى عليه ويقام على قبره ، إذ لو كان هذا غير مشروع فى حق أحد لم يخصوا بالنهى ولم يعلل ذلك بكفرهم . ولهذا كانت الصلاة على الموتى من المؤمنين والقيام على قبورهم من السنة المتواترة ، فكان النبى صلى الله عليه وسلم يصلى على موتى المسلمين وشرع ذلك لأمته ، وكان إذا دفن الرجل من أمته يقوم على قبره ويقول « سلوا له التثبيت فانه الآن يسئل » رواه أبو داود وغيره .

وكان يزور قبور أهل البقيع والشهداء بأحد ، ويعلم أصحابه إذا زاروا القبور أن يقول أحدهم « السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ، وإنا إن شاء الله تعالى بكم لاحقون ، ويرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين ، نسأل الله لنا ولكم العافية . اللهم لا تحرمنا أجرهم ولا تفتنا بعدهم » وفى صحيح

مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صل الله عليه وسلم خرج الى المقبرة فقال « السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وإنا إن شاء الله بكم لا حقون » والأحاديث فى ذلك صحيحة معروفة . فهذه الزيارة لقبور المؤمنين مقصودها الدعاء لهم .

وهذه غير الزيارة المشتركة التى تجوز فى قبور الكفار كما ثبت فى صحيح مسلم وأبى داود والنسائى وابن ماجه عن أبى هريرة أنه قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبر أمه فبكى وأبكى من حوله ثم قال « استأذنت ربى فى أن أستغفر لها فلم يأذن لى ، فاستأذنته أن أزور قبرها فأذن لى فزوروا القبور فانها تذكركم الآخرة » فهذه الزيارة التى تنفع فى تذكير الموت تشرع ولو كان المقبور كافراً ، بخلاف الزيارة التى يقصد بها الدعاء للميت فتلك لا تشرع إلا فى حق المؤمنين .

وأما الزيارة البدعية فهى التى يقصد بها أن يطلب من الميت الحوائج ، أو يطلب منه الدعاء والشفاعة ، أو يقصد الدعاء عند قبره لظن القاصد أن ذلك أجوب للدعاء . فالزيارة على هذه الوجوه كلها مبتدعة لم يشرعها النبى صلى الله عليه وسلم ولا فعلها الصحابة لا عند قبر النبى صلى الله عليه وسلم ولا عند غيره ، وهى من جنس الشرك وأسباب الشرك .

ولو قصد الصلاة عند قبور الأنبياء والصالحين من غير أن يقصد دعاءهم والدعاء عندهم مثل أن يتخذ قبورهم مساجد لكان ذلك محرما منهياً عنه ولكان صاحبه متعرضاً لغضب الله ولعنته كما قال النبى صلى الله عليه وسلم « اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » وقال « قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » يحذر ماصنعوا . وقال « ان من كان قبلكم كانوا

يتخذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإنى أنهاكم عن ذلك » .

فاذا كان هذا محرما ، وهو سبب لسخط الرب ولعنته ، فكيف بمن يقصد دعاء الميت والدعاء عنده وبه واعتقد أن ذلك من أسباب إجابة الدعوات ونيل الطلبات وقضاء الحاجات ! ؟ وهذا كان أول أسباب الشرك فى قوم نوح وعبادة الأوثان فى الناس ، قال ابن عباس : كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام ، ثم ظهر الشرك بسبب تعظيم قبور صالحيهم .

وقد استفاض عن ابن عباس وغيره فى صحيح البخارى وفى كتب التفسير وقصص الأنبياء فى قوله تعالى : (وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعا * ولا يغوث ويعوق ونسراً) ان هؤلاء كانوا قوما صالحين فى قوم نوح ، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم فعبدوهم ، قال ابن عباس : ثم صارت هذه الأوثان فى قبائل العرب .

وقد أحدث قوم من ملاحدة الفلاسفة الدهرية للشرك شيئاً آخر ذكروه فى زيارة القبور كما ذكر ذلك ابن سينا ومن أخذ عنه كصاحب الكتب المضنون بها وغيره ، ذكروا معنى الشفاعة على أصلهم ، فانهم لا يقرون بأن الله خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، ولا أنه يعلم الجزئيات ، ويسمع أصوات عباده ، ويجيب دعاءهم .

فشفاعة الأنبياء والصالحين على أصلهم ليست كما يعرفه أهل الإيمان من أنها دعاء يدعو به الرجل الصالح فيستجيب الله دعاءه ، كما أن ما يكون من إنزال المطر باستسقائهم ليس سببه عندهم إجابة دعائهم .

بل هم يزعمون أن المؤثر فى حوادث العالم هو قوى النفس أو الحركات

الفلكية أو القوى الطبيعية ، فيقولون : ان الإنسان اذا أحب رجلا صالحاً قد مات لا سيما إن زار قبره فانه يحصل لروحه اتصال بروح ذلك الميت فيما يفيض على تلك الروح المفارقة من العقل الفعال عندهم أو النفس الفلكية ، يفيض على هذه الروح الزائرة المستشفعة من غير ان يعلم الله بشيء من ذلك — بل وقد لا تعلم الروح المستشفع بها بذلك — ومثلوا ذلك بالشمس اذا قابلها مرآة فانه يفيض على المرآة من شعاع الشمس ، ثم اذا قابل المرآة مرآة أخرى فاض عليها من تلك المرآة ، وان قابل تلك المرآة حائط أو ماء فاض عليه من شعاع تلك المرآة ، فهكذا الشفاعة عندهم ، وعلى هذا الوجه ينتفع الزائر عندهم . وفى هذا القول من أنواع الكفر مالا يخفى على من تدبره .

ولا ريب ان الأوثان يحصل عندها من الشياطين وخطابهم وتصرفهم ما هو من أسباب ضلال بنى آدم ، وجعل القبور أوثانا هو أول الشرك ، ولهذا يحصل عند القبور لبعض الناس من خطاب يسمعه وشخص يراه وتصرف عجيب ما يظن أنه من الميت وقد يكون من الجن والشياطين ، مثل أن يرى القبر قد انشق وخرج منه الميت وكلمه وعانقه ، وهذا يرى عند قبور الانبياء وغيرهم ، وانما هو شيطان ، فان الشيطان يتصور بصور الإنس ويدعى أحدهم أنه النبي فلان أو الشيخ فلان ويكون كاذباً فى ذلك .

وفى هذا الباب من الوقائع ما يضيق هذا الموضع عن ذكره ، وهى كثيرة جداً ، والجاهل يظن ان ذلك الذى رآه قد خرج من القبر وعانقه أو كلمه هو المقبور أو النبي أو الصالح وغيرهما ، والمؤمن العظيم يعلم أنه شيطان ويتبين ذلك بأمور :

(أحدها) : أن يقرأ آية الكرسى بصدق ، فاذا قرأها تغيب ذلك الشخص أو ساخ فى الارض أو احتجب . ولو كان رجلا صالحاً أوملكا أو جنياً مؤمناً لم تضره آية الكرسى وانما تضر الشياطين ، كما ثبت فى الصحيح من حديث أبى هريرة لما قال له الجنى : اقرأ آية الكرسى اذا أويت الى فراشك فانه لا يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح . فقال النبى صلى الله عليه وسلم « صدقك وهو كذوب » .

و (منها) أن يستعيذ بالله من الشياطين .

و (منها) أن يستعيذ بالعوذ الشرعية ، فان الشياطين كانت تعرض للأنبياء فى حياتهم وتريد أن تؤذيهم وتفسد عبادتهم ، كما جاءت الجن الى النبى صلى الله عليه وسلم بشعلة من النار تريد أن تحرقه فأتاه جبريل بالعوذة المعروفة التى تضمنها الحديث المروى عن أبى التياح أنه قال سأل رجل عبد الرحمن بن حبيش وكان شيخاً كبيراً قد أدرك النبى صلى الله عليه وسلم : كيف صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين كادته الشياطين ؟ قال : تحدرت عليه من الشعاب والأودية ، وفيهم شيطان معه شعلة من نار يريد أن يحرق بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال فرعب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتاه جبريل عليه السلام فقال : يامحمد « قل » قال « ما أقول؟ » قال قل « أعوذ بكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر ، من شر ما خلق وذرأ وبرأ ، ومن شر ما ينزل من السماء ومن شر ما يعرج فيها ، ومن شر ما يخرج من الأرض ومن شر ما ينزل فيها ، ومن شر فتن الليل والنهار ، ومن شر كل طارق يطرق ، إلا طارقا يطرق بخير يارحمن » قال فطفئت نارهم وهزمهم الله عز وجل .

وثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان عفريتاً من الجن جاء يفتك بى البارحة ليقطع على صلاتى ، فأمكننى الله عز وجل منه فذعته فأردت أن آخذه فأربطه الى سارية من المسجد حتى تصبحوا فتنظروا اليه ، ثم ذكرت قول سليمان عليه السلام (رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى) فرده الله تعالى خاسئاً » .

وعن عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يصلى فأتاه الشيطان فأخذه صلى الله عليه وسلم فصرعه فخنقه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « حتى وجدت برد لسانه على يدى ، ولولا دعوة سليمان لأصبح موثقاً حتى يراه الناس » أخرجه النسائى واسناده على شرط البخارى كما ذكر ذلك أبو عبد الله المقدسى فى مختاره الذى هو خير من صحيح الحاكم . وعن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلى صلاة الصبح وهو خلفه ، فالتبست عليه القراءة ، فلما فرغ من صلاته قال « لو رأيتمونى وإبليس ، فأهويت بيدى فما زلت أخنقه حتى وجدت برد لعابه بين اصبعى هاتين — الإبهام والتى تليها — ولولا دعوة أخى سليمان لأصبح مربوطاً بسارية من سوارى المسجد يتلاعب به صبيان المدينة ، فمن استطاع أن لا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل » رواه الامام أحمد فى مسنده وأبو داود فى سننه .

وفى صحيح مسلم عن أبى الدرداء أنه قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى فسمعناه يقول « أعوذ بالله منك » ثم قال « ألعنك بلعنة الله ثلاثا » وبسط يده كأنه يتناول شيئاً ، فلما فرغ من صلاته قلنا : يا رسول الله سمعناك تقول شيئاً فى الصلاة لم نسمعك تقوله قبل ذلك ، ورأيناك بسطت يدك . قال « ان عدو الله

إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله فى وجهى ، فقلت : أعوذ بالله منك ثلاث مرات ، ثم قلت : ألعنك بلعنة الله التامة ، فاستأخر . ثم أردت أن آخذه ولولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقاً يلعب به ولدان المدينة » .

فاذا كانت الشياطين تأتى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لتؤذيهم وتفسد عبادتهم ، فيدفعهم الله تعالى بما يؤيد به الأنبياء من الدعاء والذكر والعبادة ومن الجهاد باليد ، فكيف من هو دون الأنبياء ؟.

فالنبي صلى الله عليه وسلم قمع شياطين الإنس والجن بما أيده الله تعالى من أنواع العلوم والاعمال ومن أعظمها الصلاة والجهاد . وأكثر أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم فى الصلاة والجهاد ، فمن كان متبعا للأنبياء نصره الله سبحانه بما نصر به الانبياء .

وأما من ابتدع دينا لم يشرعوه ، فترك ما أمروا به من عبادة الله وحده لا شريك له واتباع نبيه فيما شرعه لامته ، وإبتدع الغلو فى الانبياء والصالحين والشرك بهمفان هذا تتلعب به الشياطين ، قال تعالى : (إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون * إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون) وقال تعالى : (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين) .

و (منها) أن يدعو الرائى بذلك ربه تبارك وتعالى ليبين له الحال .

و (منها) أن يقول لذلك الشخص : أأنت فلان ؟ ويقسم عليه بالاقسام المعظمة ويقرأ عليه قوارع القرآن إلى غيرذلك من الاسباب التى تضر الشياطين .

وهذا كما ان كثيراً من العباد يرى الكعبة تطوف به ، ويرى عرشا عظيما

وعليه صورة عظيمة ، ويرى أشخاصاً تصعد وتنزل فيظنها الملائكة ويظن أن تلك الصورة هي الله ـ تعالى وتقدس ـ ويكون ذلك شيطانا .

وقد جرت هذه القصة لغير واحد من النـاس ، فمنهم من عصمه الله وعرف أنه الشيطان كالشيخ عبد القادر فى حكايته المشهورة حيث قال : كنت مرة فى العبادة فرأيت عرشا عظيما وعليه نور ، فقال لى : يا عبد القادر ! أنـا ربك وقد حللت لك ما حرمت على غيرك . قال : فقلت له أنت الله الذى لا إله إلا هو ؟ اخسأ يا عدو الله . قال : فتمزق ذلك النور وصار ظلمة ، وقال يا عبد القادر نجوت منى بفقهك فى دينك وعلمك وبمنازلاتك فى أحوالك . لقد فتنت بهذه القصة سبعين رجلا . فقيل له : كيف علمت أنه الشيطان ؟ قال بقوله لى « حللت لك ما حرمت على غيرك » وقد علمت أن شريعة محمد صلى الله عليه وسلم لا تنسخ ولا تبدل ، ولانه قال أنا ربك ، ولم يقدر أن يقول أنا الله الذى لا إله إلا أنا .

ومن هؤلاء من اعتقد أن المرئى هو الله ، وصار هو وأصحابه يعتقدون أنهم يرون الله تعالى فى اليقظة ، ومستندهم ما شاهدوه . وهم صادقون فيما يخبرون به ولـكن لم يعلموا أن ذلك هو الشيطان .

وهذا قد وقع كثيراً لطوائف من جهال العباد ، يظن أحدهم أنه يرى الله تعالى بعينه فى الدنيا لأن كثيراً منهم رأى ماظن أنه الله وانما هو شيطان .

وكثير منهم رأى من ظن أنه نبي أو رجل صالح أو الخضر وكان شيطاناً .

وقد ثبت فى الصحيح عن النبي صـلى الله عليه وسلم أنه قال « من رآنى فى

المنام فقد رآنى حقاً فإن الشيطان لا يتمثل فى صورتى » فهذا فى رؤية المنام لأن الرؤية فى المنام تكون حقاً وتكون من الشيطان فمنعه الله أن يتمثل به فى المنام ، وأما فى اليقظة فلا يراه أحد بعينه فى الدنيا .

فمن ظن أن المرئى هو الميت فإنما أتى من جهله ، ولهذا لم يقع مثل هذا لأحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان .

وبعض من رأى هذا — أو صدق من قال انه رآه — اعتقد أن الشخص الواحد يكون بمكانين فى حالة واحدة نخالف صريح المعقول .

ومنهم من يقول هذه رقيقة ذلك المرئى أو هذه روحانيته أو هذا معناه تشكل ، ولا يعرفون أنه جنى تصور بصورته .

ومنهم من يظن أنه ملك ، والملك يتميز عن الجنى بأمور كثيرة ، والجن فيهم الكفار والفساق والجهال وفيهم المؤمنون المتبعون لمحمد صلى الله عليه وسلم تسليما ، فكثير ممن لم يعرف أن هؤلاء جن وشياطين يعتقدهم ملائكة .

وكذلك الذين يدعون الكواكب وغيرها من الأوثان تتنزل على أحدهم روح يقول هى روحانية الكواكب ويظن بعضهم أنه من الملائكة وإنما هو من الجن والشياطين يغوون المشركين .

والشياطين يوالون من يفعل ما يحبونه من الشرك والفسوق والعصيان .

فتارة يخبرونه ببعض الأمور الغائبة ليكاشف بها .

وتارة يؤذون من يريد أذاه بقتل وتمريض ونحو ذلك .

وتارة يجلبون له من يريده من الإنس .

وتارة يسرقون له ما يسرقونه من أموال الناس من نقد وطعام وثياب وغير ذلك ، فيعتقد أنه من كرامات الأولياء وإنما يكون مسروقاً .

وتارة يحملونه فى الهواء فيذهبون به الى مكان بعيد . فنهم من يذهبون به إلى مكة عشية عرفة ويعودون به فيعتقد هذا كرامة ، مع أنه لم يحج حج المسلمين : لا أحرم ولا لبي ولا طاف بالبيت ولا بين الصفا والمروة ، ومعلوم أن هذا من أعظم الضلال .

ومنهم من يذهب الى مكة ليطوف بالبيت من غير عمرة شرعية فلا يحرم إذا حاذى الميقات . ومعلوم أن من أراد نسكاً بمكة لم يكن له أن يجاوز الميقات إلا محرماً ولو قصدها لتجارة أو لزيارة قريب له أو طلب علم كان مأموراً أيضاً بالإحرام من الميقات ، وهل ذلك واجب أو مستحب ؟ فيه قولان مشهوران للعلماء . وهذا باب واسع .

ومنه السحر والكهانة ، وقد بسط الكلام على هذا فى غير هذا الموضع .

وعند المشركين عباد الأوثان ومن ضاهاهم من النصارى ومبتدعة هذه الآمة فى ذلك من الحكايات ما يطول وصفه ، فإنه ما من أحد يعتاد دعاء الميت والاستغاثة به نبياً كان أو غير نبي إلا وقد بلغه من ذلك ما كان من أسباب ضلاله ؛ كما أن الذين يدعونهم فى مغيبهم ويستغيثون بهم فيرون من يكون فى صورتهم أو يظنون أنه فى صورتهم ويقول أنا فلان ويكلمهم ويقضى بعض حوائجهم ، فإنهم يظنون أن الميت المستغاث به هو الذى كلمهم وقضى مطلوبهم وإنما هو من الجن والشياطين .

ومنهم من يقول هو ملك من الملائكة ، والملائكة لا تعين المشركين وإنما هم شياطين أضلوهم عن سبيل الله .

وفى مواضع الشرك من الوقائع والحكايات التى يعرفها من هنالك ومن وقعت له ما يطول وصفه .

وأهل الجاهلية فيها نوعان :

نوع يكذب بذلك كله .

ونوع يعتقد ذلك كرامات لأولياء الله .

فالاول يقول إنما هذا خيال فى أنفسهم لا حقيقة له فى الخارج ، فإذا قالوا ذلك لجماعة بعد جماعة فمن رأى ذلك وعاينه موجوداً أو تواتر عنده ذلك عمن رآه موجوداً فى الخارج وأخبره به من لا يرتاب فى صدقه كان هذا من أعظم أسباب ثبات هؤلاء المشركين المبتدعين المشاهدين لذلك ، والعارفين به بالاخبار الصادقة .

ثم هؤلاء المكذبون لذلك متى عاينوا بعض ذلك خضعوا لمن حصل له ذلك وانقادوا له واعتقدوا أنه من أولياء الله ، مع كونهم يعلمون أنه لا يؤدى فرائض الله حتى ولا الصلوات الخمس ، ولا يجتنب محارم الله ، لا الفواحش ولا الظلم ؛ بل يكون من أبعد الناس عن الإيمان والتقوى التى وصف الله بها أولياءه فى قوله تعالى : (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولاهم يحزنون * الذين آمنوا وكانوا يتقون) .

فيرون من هو من أبعد الناس عن الإيمان والتقوى له من المكاشفات

والتصرفات الخارقات ما يعتقدون أنه من كرامات أولياء الله المتقين .

فنهم من يرتد عن الإسلام وينقلب على عقبيه ، ويعتقد فيمن لا يصلى ، بل ولا يؤمن بالرسل ؛ بل يسب الرسل ، وينتقص بهم أنه من أعظم أوليـاء الله المتقـــين .

ومنهم من يبقى حائراً متردداً شاكاً مرتاباً يقدم إلى الكفر رجلا وإلى الاسلام أخرى ، وربما كان إلى الكفر أقرب منه الى الإيمان .

وسبب ذلك أنهم استدلوا على الولاية بمـا لا يدل عليها ، فان الكفار والمشركين والسحرة والكهان معهم من الشياطين من يفعل بهم أضعاف أضعاف ذلك قال تعالى : (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ؟ تنزل على كل أفاك أثيم) .

وهؤلاء لا بد أن يكون فيهم كذب وفيهم مخالفة للشرع ، ففيهم من الإثم والإفك بحسب ما فارقوا أمر الله ونهيه الذى بعث به نبيه صلى الله عليه وسلم . وتلك الأحوال الشيطانية نتيجة ضلالهم وشركهم وبدعتهم وجهلهم وكفرهم وهى دلالة وعلامة على ذلك .

والجاهل الضال يظن أنها نتيجة إيمانهم وولايتهم لله تعالى ، وأنها علامة ودلالة على إيمانهم وولايتهم لله سبحانه ، وذلك أنه لم يكن عنده فرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان كما قد تكلمنا على ذلك فى مسئلة (الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان) ، ولم يعلم أن هذه الاحوال التى جعلها دليلا على الولاية تكون للكفار ـ من المشركين وأهل الكتاب ـ أعظم مما تكون للمنتسبين الى الاسلام ، والدليل مستلزم للمدلول مختص به لا يوجد بدون مدلوله ، فإذا

وجدت للكفار والمشركين وأهل الكتاب لم تكن مستلزمة للايمان فضلا عن الولاية ولا كانت مختصة بذلك، فامتنع أن تكون دليلا عليه .

وأولياء الله هم المؤمنون المتقون ، وكراماتهم ثمرة إيمانهم وتقواهم لا ثمرة الشرك والبدعة والفسق .

وأكابر الأولياء انما يستعملون هذه الكرامات بحجة للدين أو لحاجة للمسلمين .

والمقتصدون قد يستعملونها فى المباحات .

وأما من استعان بها فى المعاصى فهو ظالم لنفسه ، متعد حد ربه ، وان كان سببها الايمان والتقوى . فمن جاهد العدو فغنم غنيمة فأنفقها فى طاعة الشيطان فهذا المال وان ناله بسبب عمل صالح فاذا أنفقه فى طاعة الشيطان كان وبالا عليه ، فكيف اذا كان سبب الخوارق الكفر والفسوق والعصيان وهى تدعو الى كفر آخر وفسوق وعصيان .

ولهذا كان أئمة هؤلاء معترفين بأن أكثرهم يموتون على غير الإسلام . ولبسط هذه الأمور موضع آخر .

والمقصود هنا أن من أعظم أسباب ضلال المشركين ما يرونه أو يسمعونه عند الأوثان كإخبار عن غائب أو أمر يتضمن قضاء حاجة ونحو ذلك ، فاذا شاهد أحدهم القبر انشق وخرج منه شيخ بهى عانقه أو كلمه ظن أن ذلك هو النبي المقبور ، أو الشيخ المقبور ، والقبر لم ينشق ، وانما الشيطان مثل له ذلك ،

كما يمثل لأحدهم أن الحائط انشق وأنه خرج منه صورة إنسان ويكون هو الشيطان تمثل له فى صورة إنسان وأراه أنه خرج من الحائط .

ومن هؤلاء من يقول لذلك الشخص الذى رآه قد خرج من القبر : نحن لا نبقى فى قبورنا ، بل من حين يقبر أحدنا يخرج من قبره ويمشى بين الناس .

ومنهم من يرى ذلك الميت فى الجنازة يمشى ويأخذ بيده ، الى أنواع أخرى معروفة عند من يعرفها .

وأهل الضلال اما ان يكذبوا بها واما أن يظنوها من كرامات أولياء الله ، ويظنون أن ذلك الشخص هو نفس النبى أو الرجل الصالح أو ملك على صورته وربما قالوا هذه روحانيته أو رقيقته أو سره أو مثاله أو روحه تجسدت ، حتى قد يكون من يرى ذلك الشخص فى مكانين فيظن أن الجسم الواحد يكون فى الساعة الوحدة فى مكانين ، ولا يعلم أن ذلك حين تصور بصورته : ليس هو ذلك الإنسى .

وهذا ونحوه مما يبين أن الذين يدعون الأنبياء والصالحين بعد موتهم عند قبورهم وغير قبورهم : هم من المشركين الذين يدعون غير الله ، كالذين يدعون الكواكب والذين اتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً ، قال تعالى : (ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لى من دون الله ، ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ○ ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ؟) وقال تعالى : (قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون

كشف الضر عنكم ولا تحويلا * أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ، إن عذاب ربك كان محذوراً) ، وقال تعالى : (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير ، ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) .

ومثل هذا كثير فى القرآن : ينهى أن يدعى غير الله لا من الملائكة ولا الأنبياء ولا غيرهم ؛ فإن هذا شرك أو ذريعة إلى الشرك ؛ بخلاف ما يطلب من أحدهم فى حياته من الدعاء والشفاعة فإنه لا يفضى الى ذلك ؛ فإن أحداً من الأنبياء والصالحين لم يعبد فى حياته بحضرته ، فإنه ينهى من يفعل ذلك ؛ بخلاف دعائهم بعد موتهم فإن ذلك ذريعة الى الشرك بهم ' وكذلك دعاؤهم فى مغيبهم هو ذريعة الى الشرك .

فمن رأى نبياً أو ملكا من الملائكة وقال له « ادع لى » لم يفض ذلك الى الشرك به ، بخلاف من دعاه فى مغيبه فإن ذلك يفضى إلى الشرك به كما قد وقع ، فإن الغائب والميت لاينهى من يشرك ، بل إذا تعلقت القلوب بدعائه وشفاعته أفضى ذلك الى الشرك به فدعى وقصد مكان قبره أو تمثاله أو غير ذلك كما قد وقع فيه المشركون ومن ضاهاهم من أهل الكتاب ومبتدعة المسلمين .

ومعلوم أن الملائكة تدعوا للمؤمنين وتستغفر لهم كما قال تعالى : (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون

للذين آمنوا : ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ، ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم انك أنت العزيز الحكيم ، وقهم السيئات ، ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم) وقال تعالى : (تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض ألا إن الله هو الغفور الرحيم ، والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل) .

فالملائكة يستغفرون للمؤمنين من غير أن يسألهم أحد . وكذلك ما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم أو غيره من الأنبياء والصالحين يدعو ويشفع للأخيار من أمته هو من هذا الجنس ، هم يفعلون ما أذن الله لهم فيه بدون سؤال أحد .

واذا لم يشرع دعاء الملائكة لم يشرع دعاء من مات من الأنبياء والصالحين ولا أن نطلب منهم الدعاء والشفاعة وإن كانوا يدعون ويشفعون ، لوجهين :-

أحدهما : أن ما أمرهم الله به من ذلك هم يفعلونه وان لم يطلب منهم ، وما لم يؤمروا به لا يفعلونه ولو طلب منهم ، فلا فائدة فى الطلب منهم .

الثانى : أن دعاءهم وطلب الشفاعة منهم فى هذه الحال يفضى الى الشرك بهم ففيه هذه المفسدة . فلو قدّر أن فيه مصلحة لـ[illegible] هذه المفسدة راجحة ، فكيف ولا مصلحة فيه ، بخلاف الطلب منهم فى حياتهم وحضورهم فإنه لا مفسدة

فيه ؛ فإنهم ينهون عن الشرك بهم . بل فيه منفعة ، وهو أنهم يثابون ويؤجرون على ما يفعلونه حينئذ من نفع الخلق كلهم ، فإنهم فى دار العمل والتكليف ، وشفاعتهم فى الآخرة فيها إظهار كرامة الله لهم يوم القيامة .

وأصل سؤال الخلق الحاجات الدنيوية التى لا يجب عليهم فعلها ليس واجباً على السائل ولا مستحباً ، بل المأمور به سؤال الله تعالى والرغبة اليه والتوكل عليه . وسؤال الخلق فى الأصل محرم ، لكنه أبيح للضرورة ، وتركه توكلا على الله أفضل ، قال تعالى : (فإذا فرغت فانصب . والى ربك فارغب) أى ارغب الى الله لا الى غيره ، وقال تعالى : (ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله انا الى الله راغبون) فجعل الإيتاء لله والرسول لقوله تعالى : (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) فأمرهم بارضاء الله ورسوله .

وأما فى الحسب فأمرهم أن يقولوا (حسبنا الله) لا يقولوا : حسبنا الله ورسوله . ويقولوا : (إنا الى الله راغبون) لم يأمرهم أن يقولوا : إنا لله ورسوله راغبون ، فالرغبة الى الله وحده كما قال تعالى فى الآية الأخرى : (ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون) فجعل الطاعة لله والرسول ، وجعل الخشية والتقوى لله وحده .

وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم لابن عباس « ياغلام ! إنى معلمك كلمات : احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك ، تعرف الى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة ، اذا سألت فاسأل الله ، واذا استعنت فاستعن بالله ، جف القلم بما

أنت لاق ، فلو جهدت الخليقة على أن يضروك لم يضروك الا بشيء كتبه الله عليك ، فإن استطعت أن تعمل لله بالرضا مع اليقين فافعل ، فإن لم تستطع فان فى الصبر على ما تكره خيراً كثيراً » ، وهذا الحديث معروف مشهور ،ولكن قد يروى مختصراً.

وقوله « اذا سألت فاسأل الله ، واذا استعنت فاستعن بالله » هو من أصح ما روى عنه . وفى المسند لأحمد أن أبا بكر الصديق كان يسقط السوط من يده فلا يقول لأحد ناولنى اياه ، ويقول : إن خليلى أمرنى أن لا أسأل الناس شيئاً . وفى صحيح مسلم عن عوف بن مالك أن النبى صلى الله عليه وسلم بايع طائفة من من أصحابه وأسر اليهم كلمة خفية : أن لا تسألوا الناس شيئا . قال عوف : فقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط السوط من يده فلا يقول لأحد ناولنى إياه .

وفى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « يدخل من أمتى الجنة سبعون ألفاً بغير حساب » ، وقال : « هم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون » فمدح هؤلاء بأنهم لا يسترقون ، أى لا يطلبون من أحد أن يرقيهم . والرقية من جنس الدعاء فلا يطلبون من أحد ذلك .

وقد روى فيه « ولا يرقون » وهو غلط ، فإن رقياهم لغيرهم ولأنفسهم حسنة ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يرقى نفسه وغيره ولم يكن يسترقى ، فإن رقيته نفسه وغيره من جنس الدعاء لنفسه ولغيره ، وهذا مأمور به ، فإن الانبياء كلهم سألوا الله ودعوه كما ذكر الله ذلك فى قصة آدم وابراهيم وموسى وغيرهم .

وما يروى أن الخليل لما ألقى فى المنجنيق قال له جبريل : سل ، قال « حسبي من سؤالى علمه بحالى » ليس له اسناد معروف وهو باطل ، بل الذى ثبت فى الصحيح عن ابن عباس أنه قال « حسبي الله ونعم الوكيل » قال ابن عباس : قالها ابراهيم حين ألقى فى النار ، وقالها محمد حين : (قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم) وقد روى أن جبريل قال : هل لك من حاجة ؟ قال « أما اليك فلا » وقد ذكر هذا الإمام احمد وغيره .

وأما سؤال الخليل لربه عز وجل فهذا مذكور فى القرآن فى غير موضع فكيف يقول حسبي من سؤالى علمه بحالى ، والله بكل شيء عليم ، وقد أمر العباد بأن يعبدوه ويتوكلوا عليه ويسألوه ، لانه سبحانه جعل هذه الامور أسباباً لما يرتبه عليها من إثابة العابدين ، وإجابة السائلين . وهو سبحانه يعلم الأشياء على ماهى عليه ، فعلمه بأن هذا محتاج أو هذا مذنب لا ينافى أن يأمر هذا بالتوبة والاستغفار ، ويأمر هذا بالدعاء وغيره من الأسباب التى تقضى بها حاجته ، كما يأمر هذا بالعبادة والطاعة التى بها ينال كرامته .

ولكن العبد قد يكون مأموراً فى بعض الأوقات بما هو أفضل من الدعاء كما روى فى الحديث « من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » وفى الترمذى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من شغله قراءة القرآن عن ذكرى ومسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » قال الترمذى حديث حسن غريب .

وأفضل العبادات البدنية الصلاة ، وفيها القراءة والذكر والدعاء ، وكل

واحد فى موطنه مأمور به ، ففى القيام بعد الاستفتاح يقرأ القرآن ، وفى الركوع والسجود ينهى عن قراءة القرآن ويؤمر بالتسبيح والذكر وفى آخرها يؤمر بالدعاء كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو فى آخر الصلاة ويأمر بذلك والدعاء فى السجود حسن مأمور به ويجوز الدعاء فى القيام أيضاً وفى الركوع ، وإن كان جنس القراءة والذكر أفضل فالمقصود أن سؤال العبد لربه السؤال المشروع حسن مأمور به .

وقد سأل الخليل وغيره ، قال تعالى عنه : (ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ، ربنا إنك تعلم مانخفى وما نعلن ، وما يخفى على الله من شىء فى الأرض ولا فى السماء ، الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسمعيل وإسحق إن ربى لسميع الدعاء ، رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء ، ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب) وقال تعالى : (وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسمعيل : ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ، ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك أنت العزيز الحكيم) .

وكذلك دعاء المسلم لأخيه حسن مأمور به ، وقد ثبت فى الصحيح عن أبى الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما من رجل يدعو

لأخيه بظهر الغيب الا وكل الله به ملكا كلما دعا لأخيه بدعوة قال الملك الموكل به : آمين ولك بمثله » أى بمثل ما دعوت لأخيك به .

وأما سؤال المخلوق المخلوق أن يقضى حاجة نفسه أو يدعو له فلم يؤمر به ؛ بخلاف سؤال العلم فإن الله أمر بسؤال العلم كما فى قوله تعالى : (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون) ، وقال تعالى : (فإن كنت فى شك مما أنزلنا اليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك) ، وقال تعالى : (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا : أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون) وهذا لان العلم يجب بذله ، فمن سئل عن علم يعلمه فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة . وهو يزكو على التعليم ، لا ينقص بالتعليم كما تنقص الاموال بالبذل ، ولهذا يشبه بالمصباح .

وكذلك من له عند غيره حق من عين أو دين كالأمانات مثل الوديعة والمضاربة ، لصاحبها أن يسألها ممن هى عنده ، وكذلك مال الفيء وغيره من الأموال المشتركة التى يتولى قسمتها ولىُّ الأمر ، للرجل أن يطلب حقه منه كما يطلب حقه من الوقف والميراث والوصية ؛ لأن المستولى يجب عليه أداء الحق الى مستحقه .

ومن هذا الباب سؤال النفقة لمن تجب عليه ، وسؤال المسافر الضيافة لمن تجب عليه كما استطعم موسى والخضر أهل القرية . وكذلك الغريم له أن يطلب دينه ممن هو عليه . وكل واحد من المتعاقدين له أن يسأل الآخر أداء حقه اليه :

فالبائع يسأل الثمن ، والمشترى يسأل المبيع . ومن هذا الباب قوله تعالى : (واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام) .

ومن السؤال مالا يكون مأموراً به ، والمسئول مأمور باجابة السائل . قال تعالى : (وأما السائل فلا تنهر) وقال تعالى : (والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) وقال تعالى : (فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر) ومنه الحديث «ان أحدكم ليسألنى المسألة فيخرج بها يتأبطها نارا» وقوله «اقطعوا عنى لسان هذا»

وقد يكون السؤال منهياً عنه نهى تحريم أو تنزيه ، وإن كان المسئول مأمورا بإجابة سؤاله . فالنبى صلى الله عليه وسلم كان من كماله أن يعطى السائل ، وهذا فى حقه من فضائله ومناقبه ، وهو واجب أو مستحب ، وإن كان نفس سؤال السائل منهياً عنه . ولهذا لم يعرف قط أن الصديق ونحوه من أكابر الصحابة سألوه شيئاً من ذلك ، ولا سألوه أن يدعو لهم وإن كانوا يطلبون منه أن يدعو للمسلمين ، كما أشار عليه عمر فى بعض مغازيه لما استأذنوه فى نحر بعض ظهرهم فقال عمر : يارسول الله كيف بنا إذا لقينا العدو غداً رجالا جياعا ولكن إن رأيت أن تدعو الناس ببقايا أزوادهم فتجمعها ثم تدعو الله بالبركة فان الله يبارك لنا فى دعوتك . وفى رواية : فان الله سيغيثنا بدعائك . وانما كان سأله ذلك بعض المسلمين كما سأله الأعمى أن يدعو الله له ليرد عليه بصره ، وكما سألته أم سليم أن يدعو الله لخادمه أنس ، وكما سأله أبو هريرة أن يدعو الله أن يحببه وأمه الى عباده المؤمنين ، ونحو ذلك .

وأما الصديق فقد قال الله فيه وفى مثله : (وسيجنبها الأتقى الذى يؤتى ماله

يتزكى ، وما لأحد عنده من نعمة تجزى ' الا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى) وقد ثبت فى الصحاح عنه أنه قال صلى الله عليه وسلم « ان آمنَّ الناس علينا فى صحبته وذات يده أبو بكر ، ولو كنت متخـــذاً من أهل الارض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا » فلم يكن فى الصحابة أعظم منه من الصديق فى نفسه وماله .

وكان أبو بكر يعمل هذا ابتغاء وجه ربه الأعلى لا يطلب جزاءا من مخلوق ، فقال تعالى (وسيجنبها الأتقى الذى يؤتى ماله يتزكى وما لأحد عنده من نعمة تجزى . الا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى) فلم يكن لأحد عند الصديق نعمة تجزى ، فانه كان مستغنيا بكسبه وماله عن كل أحد ، والنبى صلى الله عليه وسلم كان له على الصديق وغيره نعمة الإيمان والعلم ، وتلك النعمة لا تجزى ، فإن أجر الرسول فيهـا على الله كما قال تعالى : (وما أسألـكم عليه من أجر ان أجرى الا على رب العالمين) .

وأما على وزيد وغيرهما فان النبى صلى الله عليه وسلم كان له عندهم نعمة تجزى ، فان زيداً كان مولاه فاعتقه . قال تعالى : (واذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك) وعلى كان فى عيال النبى صلى الله عليه وسلم لجدب أصاب أهل مكة فأراد النبى صلى الله عليه وسلم والعباس التخفيف عن أبى طالب من عياله ، فأخذ النبى صلى الله عليه وسلم علياً الى عياله واخذ العباس جعفراً الى عياله ، وهذا مبسوط فى موضع آخر .

والمقصود هنا أن الصديق كان أمنَّ الناس فى صحبته وذات يده لأفضل

الخلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لكونه كان ينفق ماله فى سبيل الله كاشترائه المعذبين . ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم محتاجاً فى خاصة نفسه لا الى أبى بكر ولا غيره ، بل لما قال له فى سفر الهجرة : ان عندي راحلتين فخذ احداهما ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « بالثمن » فهو أفضل صديق لأفضل نبى ، وكان من كماله أنه لا يعمل ما يعمله الا ابتغاء وجه ربه الأعلى لا يطلب جزاء من أحد من الخلق ، لا الملائكة ولا الانبياء ولا غيرهم .

ومن الجزاء أن يطلب الدعاء ، قال تعالى عمن أثنى عليهم : (انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا) والدعاء جزاء كما فى الحديث « من أسدى اليكم معروفا فكافئوه ، فان لم تجدوا ما تكافئونه به فادعوا له حتى تعلموا أن قد كافأتموه » . وكانت عائشة اذا أرسلت الى قوم بصدقة تقول للرسول : اسمع ما يدعون به لنا حتى ندعو لهم بمثل مادعوا لنا ويبقى أجرنا على الله .

وقال بعض السلف : اذا قال لك السائل : بارك الله فيك ، فقل : وفيك بارك الله ، فمن عمل خيراً مع المخلوقين سواء كان المخلوق نبياً أو رجلا صالحاً أو ملكا من الملوك أو غنياً من الاغنياء فهذا العامل للخير مأمور بأن يفعل ذلك خالصا لله يبتغى به وجه الله ، لا يطلب به من المخلوق جزاء ولا دعاء ولا غيره ، لا من نبي ولا رجل صالح ولا من الملائكة ، فإن الله أمر العباد كلهم أن يعبدوه مخلصين له الدين .

وهذا هو دين الإسلام الذى بعث الله به الاولين والآخرين من الرسل

فلا يقبل من أحد ديناً غيره ، قال تعالى : (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين) وكان نوح وابراهيم وموسى والمسيح وسائر أتباع الانبياء عليهم السلام على الإسلام ، قال نوح : (وأمرت أن أكون من المسلمين) وقال عن ابراهيم : (ومن يرغب عن ملة ابراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وانه فى الآخرة لمن الصالحين ، إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ، ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يا بنى ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون) ، : (وقال موسى يا قوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين) وقالت السحرة : (ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين) وقال يوسف : (توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين) ، وقال تعالى : (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا) وقال عن الحواريين : (وإذ أوحيت الى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون) .

ودين الإسلام مبنى على أصلين : أن نعبد الله وحده لا شريك له ، وأن نعبده بما شرعه من الدين وهو ما أمرت به الرسل أمر ايجاب أو أمر استحباب ، فيعبد فى كل زمان بما أمر به فى ذلك الزمان . فلما كانت شريعة التوراة محكمة كان العاملون بها مسلمين ، وكذلك شريعة الإنجيل .

وكذلك فى أول الإسلام لما كان النبى صلى الله عليه وسلم يصلى الى بيت المقدس كانت صلاته اليه من الإسلام ، ولما أمر بالتوجه الى الكعبة كانت الصلاة اليها من الإسلام ، والعدول عنها الى الصخرة خروجاً عن دين

الإسلام . فكل من لم يعبد الله بعد مبعث محمد صلى الله عليه وسلم بما شرعه الله من واجب ومستجب فليس بمسلم .

ولا بد فى جميع الواجبات والمستجبات أن تكون خالصة لله رب العالمين ، كما قال تعالى : (وما تفرق الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءتهم البينة ، وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة) وقال تعالى : (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ، انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين ألا لله الدين الخالص) .

فكل ما يفعله المسلم من القرَب الواجبة والمستحبة ، كالإيمان بالله ورسوله والعبادات البدنية والمالية ومحبة الله ورسوله والإحسان الى عباد الله بالنفع والمال : هو مأمور بأن يفعله خالصاً لله رب العالمين ، لا يطلب من مخلوق عليه جزاء : لا دعاء ولا غير دعاء ، فهذا مما لا يسوغ أن يطلب عليه جزاء ، لا دعاء ولا غيره .

وأما سؤال المخلوق غير هذا فلا يجب بل ولا يستحب الا فى بعض المواضع ، ويكون المسئول مأموراً بالإعطاء قبل السؤال ، واذا كان المؤمنون ليسوا مأمورين بسؤال المخلوقين فالرسول أولى بذلك صلى الله عليه وسلم . فإنه أجل قدراً وأغنى بالله عن غيره . فإن سؤال المخلوقين فيه ثلاث مفاسد : —

مفسدة الافتقار الى غير الله وهى من نوع الشرك .

ومفسدة إيذاء المسئول وهى من نوع ظلم الخلق .

وفيه ذل لغير الله وهو ظلم للنفس . فهو مشتمل على أنواع الظلم الثلاثة ، وقد نزه الله رسوله عن ذلك كله .

وحيث أمر الامة بالدعاء له فذاك من باب أمرهم بما ينتفعون به كما يأمرهم بسائر الواجبات والمستحبات ، وان كان هو ينتفع بدعائهم له فهو أيضاً ينتفع بما يأمرهم به من العبادات والاعمال الصالحة . فإنه ثبت عنه فى الصحيح أنه قال: « من دعا إلى هدى كان له من الاجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيء » ، ومحمد صلى الله عليه وسلم هو الداعى الى ما تفعله أمته من الخيرات ، فما يفعلونه له فيه من الأجر مثل أجورهم من غير أن ينقص من أجورهم شيء .

ولهذا لم تجرِ عادة السلف بأن يهدوا إليه ثواب الأعمال ، لأن له مثل ثواب أعمالهم بدون الإهداء من غير أن ينقص من ثوابهم شيء . وليس كذلك الأبوان ، فإنه ليس كل ما يفعله الولد يكون للوالد مثل أجره ، وإنما ينتفع الوالد بدعاء الولد ونحوه مما يعود نفعه الى الأب ، كما قال فى الحديث الصحيح: « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، وعلم ينتفع به ، وولد صالح يدعو له » . فالنبي صلى الله عليه وسلم — فيما يطلبه من أمته من الدعاء — طلبه طلب أمر وترغيب ليس بطلب سؤال . فمن ذلك أمره لنا بالصلاة والسلام عليه ، فهذا أمر الله به فى القرآن بقوله : (صلوا عليه وسلموا تسليما) .

والأحاديث عنه فى الصلاة والسلام معروفة .

ومن ذلك أمره بطلب الوسيلة والفضيلة والمقام المحمود كما ثبت فى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا علىّ ، فإنه من صلى على مرة صلى الله عليه عشراً ، ثم سلوا الله لى الوسيلة فإنها درجة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا ذلك العبد ، فمن سأل الله لى الوسيلة حلت عليه شفاعتى يوم القيامة » ، وفى صحيح البخارى عن جابر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من قال حين سمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة ، والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة ، وابعثه مقاماً محموداً الذى وعدته إنك لا تخلف الميعاد . حلت له شفاعتى يوم القيامة » فقد رغب المسلمين فى أن يسألوا الله له الوسيلة ، وبين أن من سألها له حلت له شفاعته يوم القيامة ؛ كما أنه من صلى عليه مرة صلى الله عليه عشراً ، فإن الجزاء من جنس العمل .

ومن هذا الباب الحديث الذى رواه أحمد وأبو داود والترمذى وصححه وابن ماجه أن عمر ابن الخطاب استأذن النبي صلى الله عليه وسلم فى العمرة فأذن له ثم قال « لا تنسنا يا أخى من دعائك » فطلب النبى صلى الله عليه وسلم من عمر أن يدعو له كطلبه أن يصلى عليه ، ويسلم عليه ، وأن يسأل الله له الوسيلة والدرجة الرفيعة ، وهو كطلبه أن يعمل سائر الصالحات ، فمقصوده نفع المطلوب منه والإحسان إليه . وهو صلى الله عليه وسلم أيضاً ينتفع بتعليمهم الخير وأمرهم به ، وينتفع أيضاً بالخير الذى يفعلو من الاعمال الصالحة ومن دعائهم له .

ومن هذا الباب قول القائل : إنى أكثر الصلاة عليك ، فكم أجعل لك من صلاتى ؟ قال « ما شئت » قال : الربع ؟ قال : « ماشئت ، وإن زدت فهو خير لك » قال : النصف ؟ قال « ما شئت ، وان زدت فهو خير لك » قال : الثلثين ؟ قال « ما شئت ، وان زدت فهو خير لك » قال : أجعل لك صلاتى كلها ؟ قال « اذاً تكفى همك ويغفر لك ذنبك » رواه أحمد فى مسنده والترمذى وغيرهما .

وقد بسط الكلام عليه فى (جواب المسائل البغدادية) . فان هذا كان له دعاء يدعو به ، فاذا جعل مكان دعائه الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم كفاه الله ما أهمه من أمر دنياه وآخرته ، فانه كلما صلى عليه مرة صلى الله عليه عشرا ، وهو لو دعا لآحاد المؤمنين لقالت الملائكة « آمين ، ولك بمثله » فدعاؤه للنبي صلى الله عليه وسلم أولى بذلك .

ومن قال لغيره من الناس : ادع لى - أو لنا - وقصده أن ينتفع ذلك المأمور بالدعاء وينتفع هو أيضا بأمره ويفعل ذلك المأمور به كما يأمره بسائر فعل الخير فهو مقتد بالنبي صلى الله عليه وسلم مؤتم به ليس هذا من السؤال المرجوح .

وأما إن لم يكن مقصوده إلا طلب حاجته لم يقصد نفع ذلك والاحسان اليه ، فهذا ليس من المقتدين بالرسول المؤتمين به فى ذلك ، بل هذا هو من السؤال المرجوح الذى تركه الى الرغبة الى الله ورسوله أفضل من الرغبة الى المخلوق وسؤاله . وهذا كله من سؤال الأحياء السؤال الجائز المشروع .

وأما سؤال الميت فليس بمشروع ، لا واجب ولا مستحب ؛ بل ولا مباح ، ولم يفعل هذا قط أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، ولا استحب ذلك أحد من سلف الأمة ، لأن ذلك فيه مفسدة راجحة وليس فيه مصلحة راجحة ، والشريعة إنما تأمر بالمصالح الخالصة أو الراجحة ، وهذا ليس فيه مصلحة راجحة بل اما ان يكون مفسدة محضة أو مفسدة راجحة ، وكلاهما غير مشروع .

فقد تبين أن ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم من طلب الدعاء من غيره : هو من باب الإحسان الى الناس الذى هو واجب أو مستحب .

وكذلك ما أمر به من الصلاة على الجنائز ومن زيارة قبور المؤمنين والسلام عليهم والدعاء لهم هو من باب الاحسان الى الموتى الذى هو واجب أو مستحب ، فان الله تعالى أمر المسلمين بالصلاة والزكاة ، فالصلاة حق الحق فى الدنيا والآخرة ، والزكاة حق الخلق ، فالرسول أمر الناس بالقيام بحقوق الله وحقوق عباده ، بأن يعبدوا الله لا يشركوا به شيئا .

ومن عبادته الإحسان الى الناس حيث أمرهم الله سبحانه به كالصلاة على الجنائز وكزيارة قبور المؤمنين ، فاستحوذ الشيطان على أتباعه فجعل قصدهم بذلك الشرك بالخالق وإيذاء المخلوق ، فإنهم اذا كانوا انما يقصدون بزيارة قبور الأنبياء والصالحين سؤالهم أو السؤال عندهم أو أنهم لا يقصدون السلام عليهم ولا الدعاء لهم كما يقصد بالصلاة على الجنائز كانوا بذلك مشركين ، مؤذين ظالمين لمن يسألونه ، وكانوا ظالمين لأنفسهم . فجمعوا بين أنواع الظلم الثلاثة .

فالذى شرعه الله ورسوله توحيد وعدل واحسان واخلاص وصلاح للعباد فى المعاش والمعاد ، وما لم يشرعه الله ورسوله من العبادات المبتدعة فيه شرك وظلم واساءة وفساد العباد فى المعاش والمعاد .

فإن الله تعالى أمر المؤمنين بعبادته والإحسان إلى عباده كما قال تعالى : (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذى القربى) وهذا أمر بمعالى الأخلاق ، وهو سبحانه يحب معالى الاخلاق ويكره سفسافها .

وقد روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » رواه الحاكم فى صحيحه ، وقد ثبت عنه فى الصحيح صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اليد العليا خير من اليد السفلى » ، وقال : « اليد العليا هى المعطية ، واليد السفلى السائلة » وهذا ثابت عنه فى الصحيح .

فأين الإحسان الى عباد الله من إيذائهم بالسؤال والشحاذة لهم ؟ وأين التوحيد للخالق بالرغبة إليه والرجاء له والتوكل عليه والحب له من الإشراك به بالرغبة الى المخلوق والرجاء له والتوكل عليه وأن يحب كما يحب الله ؟ وأين صلاح العبد فى عبودية الله والذل له والافتقار اليه من فساده فى عبودية المخلوق والذل له والافتقار اليه ؟ .

فالرسول صلى الله عليه وسلم أمر بتلك الأنواع الثلاثة الفاضلة المحمودة التى تصلح أمور أصحابها فى الدنيا والآخرة ، ونهى عن الأنواع الثلاثة التى تفسد أمور أصحابها .

ولكن الشيطان يأمر بخلاف ما يأمر به الرسول ، قال تعالى : (ألم أعهد إليكم يا بنى آدم ألا تعبدوا الشيطان انه لكم عدو مبين * وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم * ولقد أضل منكم جبلا كثيراً أفلم تكونوا تعقلون) وقال تعالى : (ان عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين) وقال تعالى : (فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ، انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون * انما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون) وقال تعالى : (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين * وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون) ،

وذكر الرحمن : هو الذكر الذى أنزل الله على رسوله الذى قال فيه : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) وقال تعالى : (فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى * ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى * قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) وقد قال تعالى : (المص . كتاب أنزل اليك فلا يكن فى صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين * اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ماتذكرون) وقد قال تعالى : (كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور بإذن ربهم الى صراط العزيز الحميد * الله الذى له ما فى السموات وما فى الارض وويل للكافرين من عذاب شديد) وقال تعالى : (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نوراً نهدى به

من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى الى صراط مستقيم * صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الارض ألا إلى الله تصير الامور) .

فالصراط المستقيم هو ما بعث الله به رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم بفعل ما أمر ، وترك ماحظر ، وتصديقه فيما أخبر ، ولا طريق الى الله إلا ذلك ، وهذا سبيل أولياء الله المتقين وحزب الله المفلحين وجند الله الغالبين .

وكل ما خالف ذلك فهو من طرق أهل الغى والضلال ، وقد نزه الله تعالى نبيه عن هذا وهذا فقال تعالى (والنجم إذا هوى * ما ضل صاحبكم وما غوى * وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحى يوحى) وقد أمرنا الله سبحانه أن نقول فى صلاتنا (اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) .

وقد روى الترمذى وغيره عن عدى بن حاتم عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « اليهود مغضوب عليهم ، والنصارى ضالون » قال الترمذى حديث صحيح . وقال سفيان بن عيينة : كانوا يقولون من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود ، ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى .

وكان غير واحد من السلف يقول : احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل ، فان فتنتهما فتنة لكل مفتون .

فمن عرف الحق ولم يعمل به أشبه اليهود الذين قال الله فيهم : (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون) .

ومن عبد الله بغير علم بل بالغلو والشرك أشبه النصارى الذين قال الله فيهم : (يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل) .

فالأول من الغاوين ، والثانى من الضالين .

فان الغى اتباع الهوى ، والضلال عدم الهدى . قال تعالى : (واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد الى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون) وقال تعالى : (سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها وان يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وان يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا ، ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين) .

ومن جمع الضلال والغى ففيه شبه من هؤلاء وهؤلاء . نسأل الله أن يهدينا وسائر اخواننا صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً .

فصـــــل

اذا عرف هذا فقد تبين أن لفظ « الوسيلة » و « التوسل » فيه اجمال واشتباه يجب أن تعرف معانيه ، ويعطى كل ذى حق حقه .

فيعرف ما ورد به الكتاب والسنة من ذلك ومعناه .

وما كان يتكلم به الصحابة ويفعلونه ومعنى ذلك .

ويعرف ما أحدثه المحدثون فى هذا اللفظ ومعناه .

فان كثيرا من اضطراب الناس فى هذا الباب هو بسبب ما وقع من الإجمال والاشتراك فى الألفاظ ومعانيها حتى تجد أكثرهم لا يعرف فى هذا الباب فصل الخطاب .

فلفظ الوسيلة مذكور فى القرآن فى قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة) وفى قوله تعالى : (قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا * أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا) .

فالوسيلة التى أمر الله أن تبتغى إليه وأخبر عن ملائكته وأنبيائه أنهم يبتغونها إليه هى ما يتقرب إليه من الواجبات والمستحبات . فهذه الوسيلة التى

أمر الله المؤمنين بابتغائها تتناول كل واجب ومستحب ، وما ليس بواجب ولا مستحب لا يدخل فى ذلك سواء كان محرما أو مكروها أو مباحا .

فالواجب والمستحب هو ما شرعه الرسول فأمر به أمر إيجاب أو استحباب وأصل ذلك الإيمان بما جاء به الرسول . فجماع الوسيلة التى أمر الله الخلق بابتغائها هو التوسل اليه باتباع ما جاء به الرسول ، لا وسيلة لأحد الى الله الا ذلك .

والثانى لفظ « الوسيلة » فى الأحاديث الصحيحة كقوله صلى الله عليه وسلم « سلوا الله لى الوسيلة فانها درجة فى الجنة لا تنبغى الا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا ذلك العبد . فمن سأل الله لى الوسيلة حلت عليه شفاعتى يوم القيامة » وقوله « من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة ، وابعثه مقاماً محموداً الذى وعدته إنك لا تخلف الميعاد ، حلت له الشفاعة » .

فهذه الوسيلة للنبى صلى الله عليه وسلم خاصة . وقد أمرنا أن نسأل الله له هذه الوسيلة ، وأخبر أنها لا تكون إلا لعبد من عباد الله وهو يرجو أن يكون ذلك العبد ، وهذه الوسيلة أمرنا أن نسألها للرسول وأخبر أن من سأل له هذه الوسيلة فقد حلت عليه الشفاعة يوم القيامة لأن الجزاء من جنس العمل ، فلما دعوا للنبى صلى الله عليه وسلم استحقوا أن يدعو لهم ، فإن الشفاعة نوع من الدعاء كما قال إنه من صلى عليه مرة صلى الله عليه بها عشرا .

وأما التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم والتوجه به فى كلام الصحابة فيريدون به التوسل بدعائه وشفاعته .

والتوسل به فى عرف كثير من المتأخرين يراد به الإقسام به والسؤال به كما يقسمون بغيره من الأنبياء والصالحين ومن يعتقدون فيه الصلاح .

وحينئذ فلفظ التوسل به يراد به معنيان صحيحان باتفاق المسلمين ، ويراد به معنى ثالث لم ترد به سنة .

فاما المعنيان الأولان — الصحيحان باتفاق العلماء : —

فأحدهما هو أصل الإيمان والإسلام وهو التوسل بالإيمان به وبطاعته .

والثانى دعاؤه وشفاعته كما تقدم :

فهذان جائزان بإجماع المسلمين ، ومن هذا قول عمر بن الخطاب : «اللهم إنا كنا إذا أجدبنا توسلنا إليك بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا» أى بدعائه وشفاعته وقوله تعالى : (وابتغوا إليه الوسيلة) أى القربة إليه بطاعته ، وطاعة رسوله طاعته قال تعالى : (من يطع الرسول فقد أطاع الله) .

فهذا التوسل الأول هو أصل الدين ، وهذا لا ينكره أحد من المسلمين .

وأما التوسل بدعائه وشفاعته - كما قال عمر - فانه توسل بدعائه لا بذاته ؛ ولهذا عدلوا عن التوسل به الى التوسل بعمه العباس ، ولو كان التوسل هو بذاته لكان هذا أولى من التوسل بالعباس ، فلما عدلوا عن التوسل به الى التوسل

بالعباس : علم أن ما يفعل فى حياته قد تعذر بموته ؛ بخلاف التوسل الذى هو الإيمان به والطاعة له فانه مشروع دائما .

فلفظ التوسل يراد به ثلاثة معان :ـ

(أحدها) التوسل بطاعته ، فهذا فرض لا يتم الإيمان إلا به .

و (الثانى) التوسل بدعائه وشفاعته ، وهذا كان فى حياته ، ويكون يوم القيامة يتوسلون بشفاعته .

و (الثالث) التوسل به بمعنى الإقسام على الله بذاته ، والسؤال بذاته ، فهذا هو الذى لم تكن الصحابة يفعلونه فى الاستسقاء ونحوه ، لا فى حياته ولا بعد مماته ، لا عند قبره ولا غير قبره ، ولا يعرف هذا فى شىء من الأدعية المشهورة بينهم ، وإنما ينقل شىء من ذلك فى أحاديث ضعيفة مرفوعة وموقوفة أو عن من ليس قوله حجة كما سنذكر ذلك ان شاء الله تعالى .

وهذا هو الذى قال أبو حنيفة وأصحابه: انه لا يجوز، ونهوا عنه حيث قالوا : لا يسأل بمخلوق ، ولا يقول أحد : أسألك بحق أنبيائك . قال أبو الحسين القدورى فى كتابه الكبير فى الفقه المسمى بشرح الكرخى فى باب الكراهة : وقد ذكر هذا غير واحد من أصحاب أبى حنيفة .

قال بشر بن الوليد حدثنا أبو يوسف قال أبو حنيفة : لا ينبغى لأحد أن يدعو الله إلا به . وأكره أن يقول « بمعاقد العز من عرشك » أو « بحق

خلقك » . وهو قول أبي يوسف قال أبو يوسف : بمعقد العز من عرشه هو الله فلا أكره هذا ، وأكره أن يقول بحق فلان أو بحق أنبيائك ورسلك وبحق البيت الحرام والمشعر الحرام .

قال القدورى : المسألة بخلقه لا تجوز لأنه لا حق للخلق على الخالق فلا تجوز وفاقا . وهذا الذى قاله أبو حنيفة وأصحابه من أن الله لا يسأل بمخلوق له معنيـــــان :

أحدهما هو موافق لسائر الأئمة الذين يمنعون أن يقسم أحـد بالمخلوق ، فانه إذا منع أن يقسم على مخلوق بمخلوق فلأن يمنع أن يقسم على الخالق بمخلوق أولى وأحرى .

وهذا بخلاف إقسامه سبحانه بمخلوقاته كالليل إذا يغشى ، والنهار إذا تجلى ، والشمس وضحاها ، والنازعات غرقا ، والصافات صفا ، فان اقسامه بمخلوقاته يتضمن من ذكر آياته الدالة على قدرته وحكمته ووحدانيته ما يحسن معه إقسامه ، بخلاف المخلوق فان اقسامه بالمخلوقات شرك بخالقها كما فى السنن عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « من حلف بغير الله فقد أشرك » وقد صححه الترمذى وغيره ، وفى لفظ « فقد كفر » وقد صححه الحاكم . وقد ثبت عنه فى الصحيحين أنه قال « من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت » وقال « لا تحلفوا بآبائكم فان الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم » وفى الصحيحين عنه أنه قال « من حلف باللات والعزى فليقل لا اله الا الله » .

وقد اتفق المسلمون على أنه من حلف بالمخلوقات المحترمة ، أو بما يعتقد هو حرمته كالعرش ، والكرسى ، والكعبة ، والمسجد الحرام ، والمسجد الأقصى ، ومسجد النبي صلى عليه وسلم ، والملائكة ، والصالحين ، والملوك ، وسيوف ، المجاهدين ، وترب الأنبياء والصالحين ، وأيمان البندق ، وسراويل الفتوة ، وغير ذلك،لا ينعقد يمينه، ولا كفارة فى الحلف بذلك .

والحلف بالمخلوقات حرام عند الجمهور وهو مذهب أبى حنيفة وأحد القولين فى مذهب الشافعى وأحمد، وقد حكى اجماع الصحابة على ذلك . وقيل هى مكروهة كراهة تنزيه ، والأول أصح حتى قال عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر : لأن أحلف بالله كاذبا أحب الى [من] أن أحلف بغير الله صادقا . وذلك لأن الحلف بغير الله شرك ، والشرك أعظم من الكذب .

وانما نعرف النزاع فى الحلف بالأنبياء ، فعن أحمد فى الحلف بالنبي صلى الله عليه وسلم روايتان .

احداهما لا ينعقد اليمين به كقول الجمهور مالك وأبى حنيفة والشافعى .

والثانية ينعقد اليمين به واختار ذلك طائفة من أصحابه كالقاضى وأتباعه ، وابن المنذر وافق هؤلاء . وقصر أكثر هؤلاء النزاع فى ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم خاصة، وعدّى ابن عقيل هذا الحكم الى سائر الأنبياء . وايجاب الكفارة بالحلف بمخلوق وان كان نبيا قول ضعيف فى الغاية مخالف للأصول والنصوص،

فالإقسام به على الله ـ والسؤال به بمعنى الإقسام ـ هو من هذا الجنس .

وأما السؤال بالمخلوق إذا كانت فيه باء السبب ليست باء القسم — وبينهما فرق — فإن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بإبرار القسم ، وثبت عنه فى الصحيحين أنه قال : « إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره » قال ذلك لما قال أنس ابن النضر : أتكسر ثنية الربيع ؟ قال : لا والذى بعثك بالحق لا تكسر سنها . فقال : « يا أنس كتاب الله القصاص » ، فرضى القوم وعفوا ، فقال صلى الله عليه وسلم : « ان من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره » وقال : « رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره رواه مسلم وغيره ، وقال : « ألا أخبركم بأهل الجنة ؟ كل ضعيف متضعف ، لو أقسم على الله لأبره . ألا أخبركم بأهل النار ؟ كل عتل جواظ مستكبر » وهذا فى الصحيحين .

وكذلك حديث أنس بن النضر والآخر من أفراد مسلم ، وقد روى وقد روى فى قوله : « إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره » أنه قال : « منهم البراء بن مالك » وكان البراء إذا اشتدت الحرب بين المسلمين والكفار يقولون : يا براء أقسم على ربك . فيقسم على الله فتنهزم الكفار . فلما كانوا على قنطرة بالسوس قالوا : يا براء أقسم على ربك . فقال : يا رب أقسمت عليك لما منحتنا أكتافهم وجعلتنى أول شهيد . فأبر الله قسمه فانهزم العدو واستشهد البراء بن مالك يومئذ . وهذا هو أخو أنس بن مالك ، قتل مائة رجل مبارزة غير من شرك فى دمه ، وحمل يوم مسيلمة على ترس ورمى به الى الحديقة حتى فتح الباب .

والإقسام به على الغير أن يحلف المقسم على غيره ليفعلن كذا فإن حنثه ولم يبر قسمه فالكفارة على الحالف لا على المحلوف عليه عند عامة الفقهاء ، كما لو حلف على عبده أو ولده أو صديقه ليفعلن شيئاً ولم يفعله فالكفارة على الحالف الحانث .

وأما قوله : « سألتك بالله أن تفعل كذا » فهذا سؤال وليس بقسم ، وفى الحديث « من سألكم بالله فأعطوه » ولا كفارة على هذا اذا لم يجب سؤاله . والخلق كلهم يسألون الله مؤمنهم وكافرهم ، وقد يجيب الله دعاء الكفار ، فإن الكفار يسألون الله الرزق فيرزقهم ويسقيهم ، واذا مسهم الضر فى البحر ضل من يدعون إلا اياه ، فلما نجاهم الى البر أعرضوا وكان الإنسان كفوراً .

وأما الذين يقسمون على الله فيبر قسمهم فإنهم ناس مخصوصون .

فالسؤال كقول السائل لله : أسألك بأن لك الحمد أنت الله المنان بديع السموات والأرض ياذا الجلال والإكرام . وأسألك بأنك أنت الله الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . وأسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته فى كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك .

فهذا سؤال الله تعالى بأسمائه وصفاته ، وليس ذلك إقساماً عليه ، فإن أفعاله هى مقتضى أسمائه وصفاته ، فمغفرته ورحمته من مقتضى اسمه الغفور الرحيم ، وعفوه من مقتضى اسمه العفو ؛ ولهذا لما قالت عائشة للنبى صلى الله عليه وسلم :

ان وافقت ليلة القدر ماذا أقول ؟ قال « قولى : اللهم انك عفو تحب العفو فاعف عنى » .

وهدايته ودلالته من مقتضى اسمه الهادى ، وفى الأثر المنقول عن أحمد ابن حنبل أنه أمر رجلا أن يقول : يادليل الحيارى دلنى على طريق الصادقين ، واجعلنى من عبادك الصالحين .

وجميع ما يفعل الله بعبده من الخير من مقتضى اسمه الرب ، ولهذا يقال فى الدعاء : يارب ! يارب ! كما قال آدم : (ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) ، وقال نوح : (رب انى أعوذ بك أن أسألك ماليس لى به علم والا تغفرلى وترحمنى أكن من الخاسرين) وقال ابراهيم : (ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع . . .) وكذلك سائر الأنبياء .

وقد كره مالك وابن أبى عمران من أصحاب أبى حنيفة وغيرهما أن يقول الداعى ياسيدى! ياسيدى! وقالوا : قل كما قالت الأنبياء : ربّ ! رب! واسمه الحى القيوم يجمع أصل معانى الأسماء والصفات كما قد بسط هذا فى غير هذا الموضع ، ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقوله اذا اجتهد فى الدعاء .

فاذا سئل المسئول بشىء — والباء للسبب — سئل بسبب يقتضى وجود المسئول .

فاذا قال : أسألك بان لك الحمد أنت الله المنان بديع السموات والارض كان كونه محموداً مناناً بديع السموات والارض يقتضى أن يمن على عبده السائل

وكونه محموداً هو يوجب أن يفعل ما يحمد عليه ، وحمد العبد له سبب إجابة دعائه ، ولهذا أمر المصلى أن يقول : «سمع الله لمن حمده » أى استجاب الله دعاء من حمده ، فالسماع هنا بمعنى الإجابة والقبول كقوله صلى الله عليه وسلم : « أعوذ بك من علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن دعاء لا يسمع » أى لا يستجاب .

ومنه قول الخليل فى آخر دعائه (إن ربى لسميع الدعاء) ومنه قوله تعالى : (وفيكم سماعون لهم) وقوله : (ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك) أى يقبلون الكذب ، ويقبلون من قوم آخرين لم يأتوك ولهذا أمر المصلىَ أن يدعو بعد حمد الله بعد التشهد المتضمن الثناء على الله سبحانه .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم لمن رآه يصلى ويدعو ولم يحمد ربه ولم يصل على نبيه فقال « عجل هذا » ثم دعاه فقال « إذا صلى أحدكم فليبدأ بحمد الله والثناء عليه وليصل على النبى صلى الله عليه وسلم وليدع بعد بما شاء » أخرجه أبو داود والترمذى وصححه .

وقال عبد الله بن مسعود : كنت أصلى والنبى صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر معه ، فلما جلست بدأت بالثناء على الله ثم بالصلاة على نبيه ثم دعوت لنفسى فقال النبى صلى الله عليه وسلم « سل تعطه » ؛ رواه الترمذى وحسنه .

فلفظ السمع يراد به إدراك الصوت ، ويراد به معرفة المعنى مع ذلك ،

ويراد به القبول والاستجابة مع الفهم . قال تعالى : (ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم) ثم قال (ولو أسمعهم) على هذه الحال التى هم عليها لم يقبلوا الحق ثم (لتولوا وهم معرضون) ، فذمهم بأنهم لا يفهمون القرآن ولو فهموه لم يعملوا به .

وإذا قال السائل لغيره : أسأل بالله فانما سأله بإيمانه بالله ، وذلك سبب لإعطاء من سأله به ، فانه سبحانه يحب الإحسان إلى الخلق ، لا سيما ان كان المطلوب كف الظلم ، فانه يأمر بالعدل وينهى عن الظلم ، وأمره أعظم الاسباب فى حض الفاعل ، فلا سبب أولى من أن يكون مقتضيا لمسببه من أمر الله تعالى .

وقد جاء فى حديث رواه أحمد فى مسنده وابن ماجه عن عطية العوفى عن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه علم الخارج الى الصلاة أن يقول فى دعائه : « واسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاى هذا فانى لم أخرج أشراً ولا بطرا ولا رياء ولا سمعة ، ولكن خرجت اتقاء سخطك ، وابتغاء مرضاتك » .

فان كان هذا صحيحاً فحق السائلين عليه أن يجيبهم ، وحق العابدين له ان يثيبهم ، وهو حق أوجبه على نفسه لهم ، كما يسأل بالإيمان والعمل الصالح الذى جعله سبباً لاجابة الدعاء كما فى قوله تعالى : (ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله) .

وكما يسأل بوعده لأن وعده يقتضى إنجاز ما وعده ، ومنه قول المؤمنين :

(ربنا إننا سمعنا منادياً ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار) وقوله : (انه كان فريق من عبادى يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين ＊ فاتخذتموهم سخرياً حتى أنسوكم ذكرى) .

ويشبه هذا مناشدة النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر حيث يقول : « اللهم أنجزلى ماوعدتنى » وكذلك مافى التوراة أن الله تعالى غضب على بنى إسرائيل فجعل موسى يسأل ربه ويذكر ماوعد به إبراهيم فإنه سأله بسابق وعده لإبراهيم .

ومن السؤال بالأعمال الصالحة سؤال الثلاثة الذين أووا إلى غار ، فسأل كل واحد منهم بعمل عظيم أخلص فيه لله ، لأن ذلك العمل مما يحبه الله ويرضاه محبة تقتضى إجابة صاحبه : هذا سأل ببره لوالديه ، وهذا سأل بعفته التامة ، وهذا سأل بأمانته وإحسانه .

وكذلك كان ابن مسعود يقول وقت السحر « اللهم أمرتنى فأطعتك ، ودعوتنى فأجبتك ، وهذا سَحر فاغفر لى » ، ومنه حديث ابن عمر أنه كان يقول على الصفا : « اللهم إنك قلت ، وقولك الحق (ادعونى أستجب لكم) ، وانك لاتخلف الميعاد » ثم ذكر الدعاء المعروف عن ابن عمر أنه كان يقوله على الصفا .

فقد تبين أن قول القائل « أسألك بكذا » نوعان : فإن الباء قد تكون

للقسم ، وقد تكون للسبب . فقد تكون قسما به على الله ، وقد تكون سؤالا بسببه .

فأما الأول : فالقسم بالمخلوقات لايجوز على المخلوق فكيف على الخالق ؟.

وأما الثانى وهو السؤال بالمعظم كالسؤال بحق الأنبياء فهذا فيه نزاع ، وقد تقدم عن أبى حنيفة وأصحابه أنه لا يجوز ذلك ، ومن الناس من يجوز ذلك ، فنقول : قول السائل لله تعالى : « أسألك بحق فلان وفلان من الملائكة والأنبياء والصالحين وغيرهم ، أو بجاه فلان أو بحرمة فلان » يقتضى أن هؤلاء لهم عند الله جاه ، وهذا صحيح .

فإن هؤلاء لهم عند الله منزلة وجاه وحرمة يقتضى أن يرفع الله درجاتهم ويعظم أقدارهم ويقبل شفاعتهم اذا شفعوا ، مع أنه سبحانه قال : (من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه) .

ويقتضى أيضاً أن من اتبعهم واقتدى بهم فيما سن له الاقتداء بهم فيه كان سعيداً ، ومن أطاع أمرهم الذى بلغوه عن الله كان سعيداً ، ولكن ليس نفس مجرد قدرهم وجاههم مما يقتضى اجابة دعائه اذا سأل الله بهم حتى يسأل الله بذلك ، بل جاههم ينفعه أيضاً اذا اتبعهم وأطاعهم فيما أمروا به عن الله ، أو تاسى بهم فيما سنوه للمؤمنين ، وينفعه أيضاً اذا دعوا له وشفعوا فيه .

فأما اذا لم يكن منهم دعاء ولا شفاعة ، ولا منه سبب يقتضى الإجابة ، لم يكن متشفعاً بجاههم ولم يكن سؤاله بجاههم نافعاً له عند الله ، بل يكون قد سأل

بأمر أجنبي عنه ليس سبباً لنفعه . ولو قال الرجل لمطاع كبير : « أسألك بطاعة فلان لك ، وبحبك له على طاعتك ، وبجاهه عندك الذى أوجبته طاعته لك لكان قد سأله بأمر أجنبي لاتعلق له به ، فكذلك احسان الله الى هؤلاء المقربين ومحبته لهم وتعظيمه لأقدارهم مع عبادتهم له وطاعتهم اياه ليس فى ذلك مايوجب اجابة دعاء من يسأل بهم ، وانما يوجب اجابة دعائه بسبب منه لطاعته لهم ، أو سبب منهم لشفاعتهم له ، فإذا انتفى هذا وهذا فلا سبب .

نعم لو سأل الله بإيمانه بمحمد صلى الله عليه وسلم ومحبته له وطاعته له واتباعه لكان قد سأله بسبب عظيم يقتضى اجابة الدعاء بل هذا أعظم الاسباب والوسائل . والنبي صلى الله عليه وسلم بين أن شفاعته فى الآخرة تنفع أهل التوحيد لا أهل الشرك ، وهى مستحقة لمن دعا له بالوسيلة كما فى الصحيح أنه قال « اذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا عليَّ فإنه من صلى على مرة صلى الله عليه عشراً ، ثم سلوا الله لى الوسيلة فإنها درجة فى الجنة لاتنبغى الا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو ذلك العبد . فمن سأل الله لى الوسيلة حلت عليه شفاعتى يوم القيامة » وفى الصحيح أن أبا هريرة قال له : أى الناس أسعد بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال « من قال لا اله الا الله خالصاً من قلبه » .

فبين صلى الله عليه وسلم أن أحق الناس بشفاعته يوم القيامة من كان أعظم توحيداً وإخلاصاً ، لأن التوحيد جماع الدين والله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، فهو سبحانه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه ، فإذا شفع محمدا صلى الله عليه وسلم حد له ربه حداً فيدخلهم الجنة ، وذلك بحسب

ما يقوم بقلوبهم من التوحيد والإيمان. وذكر صلى الله عليه وسلم أنه من سأل الله له الوسيلة حلت عليه شفاعته يوم القيامة، فبين أن شفاعته تنال باتباعه بما جاء به من التوحيد والإيمان، وبالدعاء الذى سن لنا أن ندعو له به.

وأما السؤال بحق فلان فهو مبنى على أصلين:

أحدهما ما له من الحق عند الله، والثانى هل نسأل الله بذلك كما نسأل بالجاه والحرمة؟.

أما الأول فمن الناس من يقول: للمخلوق على الخالق حق يعلم بالعقل، وقاس المخلوق على الخالق، كما يقول ذلك من يقوله من المعتزلة وغيرهم.

ومن الناس من يقول: لا حق للمخلوق على الخالق بحال، لكن يعلم ما يفعله بحكم وعده وخبره، كما يقول ذلك من يقوله من أتباع جهم والأشعرى وغيرهما ممن ينتسب إلى السنة.

ومنهم من يقول: بل كتب الله على نفسه الرحمة، وأوجب على نفسه حقاً لعباده المؤمنين كما حرم الظلم على نفسه، لم يوجب ذلك مخلوق عليه ولا يقاس بمخلوقاته، بل هو بحكم رحمته وحكمته وعدله كتب على نفسه الرحمة وحرم على نفسه الظلم كما قال فى الحديث الصحيح الإلهى: «ياعبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا». وقال تعالى: (كتب ربكم على نفسه الرحمة). وقال تعالى: (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) وفى الصحيحين عن معاذ عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: «يامعاذ، أتدرى ماحق الله على

عباده ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً . يامعاذ ، أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ قلت الله ورسوله أعلم قال : حقهم عليه أن لا يعذبهم » فعلى هذا القول لأنبيائه وعباده الصالحين عليه سبحانه حق أوجبه على نفسه مع إخباره ، وعلى الثانى يستحقون ما أخبر بوقوعه وإن لم يكن ثم سبب يقتضيه.

فمن قال ليس للمخلوق على الخالق حق يسأل به — كما روى أن الله تعالى قال لداود : وأى حق لآبائك على ؟ — فهو صحيح إذا أريد بذلك أنه ليس للمخلوق عليه حق بالقياس والاعتبار على خلقه كما يجب للمخلوق على المخلوق ، وهذا كما يظنه جهال العباد من أن لهم على الله سبحانه حقاً بعبادتهم .

وذلك أن النفوس الجاهلية تتخيل أن الإنسان بعبادته وعلمه يصير له على الله حق من جنس ما يصير للمخلوق على المخلوق كالذين يخدمون ملوكهم وملاكهم فيجلبون لهم منفعة ويدفعون عنهم مضرة ويبقى أحدهم يتقاضى العوض والمجازاة على ذلك ، ويقول له عند جفاء أو إعراض يراه منه : ألم أفعل كذا ؟ يمن عليه بما يفعله معه ، وإن لم يقله بلسانه كان ذلك فى نفسه .

وتخيل مثل هذا فى حق الله تعالى من جهل الإنسان وظلمه ، ولهذا بين سبحانه أن عمل الإنسان يعود نفعه عليه وأن الله غنى عن الخلق كما فى قوله تعالى : (إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وان أسأتم فلها) وقوله تعالى : (من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد) وقوله تعالى : (إن تكفروا

فإن الله غنى عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم) وقوله تعالى : (ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم) وقال تعالى : فى قصة موسى عليه السلام : (لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد * وقال موسى ان تكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعاً فإن الله لغنى حميد) وقال تعالى : (ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر إنهم لن يضروا الله شيئا) وقال تعالى : (ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ، ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين).

وقد بين سبحانه أنه المان بالعمل فقال تعالى : (يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا على إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين) وقال تعالى : (واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم ، ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون . فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم).

وفى الحديث الصحيح الإلهى : « يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى . يا عبادى انكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً ولا أبالى ، فاستغفرونى أغفر لكم . يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئاً . يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً . يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل انسان منهم

مسألته ما نقص ذلك مما عندى الا كما ينقص المخيط اذا أدخل البحر » .

وبين الخالق تعالى والمخلوق من الفروق ما لا يخفى على من له أدنى بصيرة .

(منها) أن الرب تعالى غنى بنفسه عما سواه ، ويمتنع أن يكون مفتقراً الى غيره بوجه من الوجوه . والملوك وسادة العبيد محتاجون الى غيرهم حاجة ضرورية .

و (منها) أن الرب تعالى وان كان يحب الأعمال الصالحة ويرضى ويفرح بتوبة التائبين فهو الذى يخلق ذلك وييسره فلم يحصل ما يحبه ويرضاه الا بقدرته ومشيئته . وهذا ظاهر على مذهب أهل السنة والجماعة الذين يقرون بأن الله هو المنعم على عباده بالإيمان ، بخلاف القدرية . والمخلوق قد يحصل له ما يحبه بفعل غيره .

و (منها) أن الرب تعالى أمر العباد بما يصلحهم ونهاهم عما يفسدهم كما قال قتادة : ان الله لم يأمر العباد بما أمرهم به لحاجته اليهم ، ولا ينهاهم عما نهاهم عنه بخلا عليهم ، بل أمرهم بما ينفعهم ونهاهم عما يضرهم . بخلاف المخلوق الذى يأمر غيره بما يحتاج اليه وينهاه عما ينهاه بخلا عليه . وهذا أيضا ظاهر على مذهب السلف وأهل السنة الذين يثبتون حكمته ورحمته ويقولون : انه لم يأمر العباد الا بخير ينفعهم ، ولم ينههم الا عن شر يضرهم ؛ بخلاف المجبرة الذين يقولون : انه قد يأمرهم بما يضرهم وينهاهم عما ينفعهم .

و (منها) أنه سبحانه هو المنعم بإرسال الرسل وانزال الكتب ، وهو المنعم بالقدرة والحواس وغير ذلك مما به يحصل العلم والعمل الصالح ، وهو الهادى لعباده ، فلا حول ولا قوة الا به . ولهذا قال أهل الجنة : (الحمد لله الذى هدانا

لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، لقد جاءت رسل ربنا بالحق) وليس يقدر المخلوق على شيء من ذلك .

و (منها) أن نعمه على عباده أعظم من أن تحصى . فلو قدر أن العبادة جزاء النعمة لم تقم العبادة بشكر قليل منها ، فكيف والعبادة من نعمته أيضاً .

و (منها) أن العباد لا يزالون مقصرين محتاجين الى عفوه ومغفرته ، فلن يدخل أحد الجنة بعمله ، وما من أحد الا وله ذنوب يحتاج فيها الى مغفرة الله لها : (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة) وقوله صلى عليه وسلم « لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله » لا يناقض قوله تعالى : (جزاء بما كانوا يعملون) .

فإن المنفى نفى بياء المقابلة والمعاوضة كما يقال بعت هذا بهذا ، وما أثبت أثبت بياء السبب ، فالعمل لا يقابل الجزاء وإن كان سببا للجزاء ، ولهذا من ظن أنه قام بما يجب عليه وأنه لا يحتاج إلى مغفرة الرب تعالى وعفوه فهو ضال ، كما ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لن يدخل أحد الجنة بعمله ، قالوا : ولا أنت يارسول الله؟ قال ولا أنا ، إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل » وروى « بمغفرته » ومن هذا أيضاً الحديث الذى فى السنن عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم . ولو رحمهم لكانت رحمته لهم خيراً من أعمالهم » الحديث .

ومن قال : بل للمخلوق على الله حق فهو صحيح إذا أراد به الحق الذى اخبر

الله بوقوعه ، فان الله صادق لا يخلف الميعاد ، وهو الذى أوجبه على نفسه بحكمته وفضله ورحمته ، وهذا المستحق لهذا الحق اذا سأل الله تعالى به يسأل الله تعالى انجاز وعده ، أو يسأله بالاسباب التى علق الله بها المسببات كالأعمال الصالحة ، فهذا مناسب ، وأما غير المستحق لهذا الحق اذا سأله بحق ذلك الشخص فهو كما لو سأله بجاه ذلك الشخص ، وذلك سؤال بأمر أجنبي عن هذا السائل لم يسأله بسبب يناسب اجابة دعائه .

وأما سؤال الله بأسمائه وصفاته التى تقتضى ما يفعـــله بالعباد من الهدى والرزق والنصر . فهذا أعظم ما يسأل الله تعالى به . فقول المنازع : لا يسأل بحق الأنبياء ، فإنه لا حق للمخلوق على الخالق : ممنوع ، فانه قد ثبت فى الصحيحين حديث معاذ الذى تقدم ايراده ، وقال تعالى : (كتب ربكم على نفسه الرحمة) ، (٣٠ : ٤٧) : (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) .

فيقال للمنازع : الـكلام فى هذا فى مقامين : —

أحدهما فى حق العباد على الله .

والثانى فى سؤاله بذلك الحق .

أما الأول فلا ريب أن الله تعالى وعد المطيعين بأن يثيبهم ووعد السائلين بأن يجيبهم ، وهو الصادق الذى لا يخلف الميعاد ، قال الله تعالى : (وعد الله حقاً ومن أصدق من الله قيلا) ، (وعد الله لا يخلف الله وعده ولـكن أكثر الناس لا يعلمون) : فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله) فهذا مما يجب وقوعه

بحكم الوعد باتفاق المسلمين . وتنازعوا : هل عليه واجب بدون ذلك ؟ على ثلاثة أقوال — كما تقدم .

قيل : لا يجب لأحد عليه حق بدون ذلك .

وقيل : بل يجب عليه واجبات ويحرم عليه محرمات بالقياس على عباده .

وقيل : هو أوجب على نفسه وحرم على نفسه ، فيجب عليه ما أوجبه على نفسه ، ويحرم عليه ما حرمه على نفسه ، كما ثبت فى الصحيح من حديث أبى ذر كما تقدم .

والظلم ممتنع منه باتفاق المسلمين ، لكن تنازعوا فى الظلم الذى لا يقع فقيل : هو الممتنع وكل ممكن يمكن أن يفعله لا يكون ظلما ، لأن الظلم إما التصرف فى ملك الغير ، وإما مخالفة الأمر الذى يجب عليه طاعته وكلاهما ممتنع منه .

وقيل : بل ما كان ظلما من العباد فهو ظلم منه :

وقيل : الظلم وضع الشيء فى غير موضعه فهو سبحانه لا يظلم الناس شيئا قال تعالى : (ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضما) قال المفسرون : هو أن يحمل عليه سيئات غيره ويعاقب بغير ذنبه ، والهضم أن يهضم من حسناته . وقال تعالى : (إن الله لا يظلم مثقال ذرة ، وإن تلك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيما) ، : (وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم) .

وأما المقام الثانى فانه يقال : ما بين الله ورسوله أنه حق للعباد على الله فهو

حق ؛ لكن الكلام فى السؤال بذلك ، فيقال : ان كان الحق الذى سأل به سببا لإجابة السؤال حسن السؤال به كالحق الذى يجب لعابديه وسائليه .

وأما إذا قال السائل : بحق فلان وفلان ، فأولئك إذا كان لهم عند الله حق أن لا يعذبهم وأن يكرمهم بثوابه ويرفع درجاتهم - كما وعدهم بذلك وأوجبه على نفسه - فليس فى استحقاق أولئك ما استحقوه من كرامة الله ما يكون سبباً لمطلوب هذا السائل ، فان ذلك استحق ما استحقة بما يسره الله له من الإيمان والطاعة . وهذا لا يستحق ما استحقه ذلك . فليس فى إكرام الله لذلك سبب يقتضى اجابة هذا .

وان قال : السبب هو شفاعته ودعاؤه فهذا حق اذا كان قد شفع له ودعا له ، وان لم يشفع له ولم يدع له لم يكن هناك سبب .

وان قال : السبب هو محبتى له وايمانى به وموالاتى له ، فهذا سبب شرعى وهو سؤال الله وتوسل اليه بإيمان هذا السائل ومحبته لله ورسوله ؛ وطاعته لله ورسوله لكن يجب الفرق بين المحبة لله والمحبة مع الله : فمن أحب مخلوقا كما يحب الخالق فقد جعله نداً لله ، وهذه المحبة تضره ولا تنفعه ، وأما من كان الله تعالى أحب اليه مما سواه ، وأحب أنبياءه وعباده الصالحين له فحبه لله تعالى هو أنفع الأشياء ، والفرق بين هذين من أعظم الأمور .

فإن قيل : اذا كان التوسل بالإيمان به ومحبته وطاعته على وجهين — تارة يتوسل بذلك الى ثوابه وجنته (وهذا أعظم الوسائل) ، وتارة يتوسل بذلك

فى الدعاء كما ذكرتم نظائره — فيحمل قول القائل : أسألك بنبيك محمد ، على أنه أراد: انى أسألك بإيمانى به وبمحبته ، وأتوسل اليك بإيمانى به ومحبته ، ونحو ذلك ، وقد ذكرتم أن هذا جائز بلا نزاع . قيل : من أراد هذا المعنى فهو مصيب فى ذلك بلا نزاع ، واذا حمل على هذا المعنى كلام من توسل بالنبى صلى الله عليه وسلم بعد مماته من السلف ـ كما نقل عن بعض الصحابة والتابعين وعن الإمام أحمد وغيره كان هذا حسنا . وحينئذ فلا يكون فى المسألة نزاع .

ولكن كثير من العوام يطلقون هذا اللفظ ولا يريدون هذا المعنى ، فهؤلاء الذين أنكر عليهم من أنكر .

وهذا كما أن الصحابة كانوا يريدون بالتوسل به التوسل بدعائه وشفاعته وهذا جائز بلا نزاع ، ثم إن أكثر الناس فى زماننا لا يريدون هذا المعنى بهذا اللفظ .

فان قيل : فقد يقول الرجل لغيره بحق الرحم ، قيل : الرحم توجب على صاحبها حقا لذى الرحم كما قال الله تعالى : (واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام) وقال النبى صلى عليه وسلم « الرحم شجنة من الرحمن من وصلها وصله الله ومن قطعها قطعه الله » وقال « لما خلق الله الرحم تعلقت بحقوى الرحمن وقالت : هذام مقام العائذ بك من القطيعة ، فقال : ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك ؟ قالت: بلى قد رضيت » وقال صلى الله عليه وسلم « يقول الله تعالى : أنا الرحمن ، خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمى ، فمن وصلها وصلته ومن قطعها بتته » .

وقد روى عن على أنه كان إذا سأله ابن أخيه بحق جعفر أبيه أعطاه لحق جعفر على على . وحق ذى الرحم باق بعد موته كما فى الحديث أن رجلا قال : يا رسول الله ! هل بقى من بر أبوى شىء أبرهما به بعد موتهما ؟ قال « نعم ! الدعاء لهما والاستغفار لهما ، وانفاذ وعدهما من بعدهما ، وصلة رحمك التى لا رحم لك إلا من قبلهما » ، وفى الحديث الآخر حديث ابن عمر « من أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه بعد أن يولى » . فصلة أقارب الميت وأصدقائه بعد موته هو من تمام بره .

والذى قاله أبو حنيفة وأصحابه وغيرهم من العلماء — من أنه لا يجوز أن يسأل الله تعالى بمخلوق : لا بحق الأنبياء ولا غير ذلك — يتضمن شيئين كما تقدم .

(أحدهما) الإقسام على الله سبحانه وتعالى به ، وهذا منهى عنه عند جماهير العلماء كما تقدم ، كما ينهى أن يقسم على الله بالكعبة والمشاعر باتفاق العلماء .

و (الثانى) السؤال به ، فهذا يجوزه طائفة من الناس ، ونقل فى ذلك آثار عن بعض السلف ، وهو موجود فى دعاء كثير من الناس ، لكن ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم فى ذلك كله ضعيف بل موضوع . وليس عنه حديث ثابت قد يظن أن لهم فيه حجة ، إلا حديث الأعمى الذى علمه أن يقول : « أسألك وأتوجه اليك بنبيك محمد نبى الرحمة » ، وحديث الأعمى لا حجة لهم فيه ، فإنه صريح فى أنه إنما توسل بدعاء النبى صلى الله عليه وسلم وشفاعته ، وهو

طلب من النبي صلى الله عليه وسلم الدعاء، وقد أمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يقول: « اللهم شفعه فى » ولهذا رد الله عليه بصره لما دعا له النبي صلى الله عليه وسلم، وكان ذلك مما يعد من آيات النبي صلى الله عليه وسلم. ولو توسل غيره من العميان الذين لم يدع لهم النبي صلى الله عليه وسلم بالسؤال به لم تكن حالهم كحاله.

ودعاء أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فى الاستسقاء المشهور بين المهاجرين والانصار وقوله: « اللهم إنا كنا اذا أجدبنا نتوسل اليك بنبينا فتسقينا، وانا نتوسل اليك بعم نبينا »: يدل على أن التوسل المشروع عندهم هو التوسل بدعائه وشفاعته لا السؤال بذاته ؛ اذ لو كان هذا مشروعاً لم يعدل عمر والمهاجرون والانصار عن السؤال بالرسول الى السؤال بالعباس.

وشاع النزاع فى السؤال بالانبياء والصالحين ؛ دون الإقسام بهم ؛ لان بين السؤال والإقسام فرقاً: فان السائل متضرع ذليل يسأل بسبب يناسب الإجابة، والمقسم أعلى من هذا فإنه طالب مؤكد طلبه بالقسم، والمقسم لايقسم الا على من يرى أنه يبر قسمه، فابرار القسم خاص ببعض العباد.

وأما اجابة السائلين فعام ؛ فإن الله يجيب دعوة المضطر ودعوة المظلوم وان كان كافراً، وفى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: « ما من داع يدعو الله بدعوة ليس فيها اثم ولا قطيعة رحم الا أعطاه الله بها احدى خصال ثلاث: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخر له من الخير مثلها،

وإما أن يصرف عنه من الشر مثلها » قالوا : يا رسول الله اذاً نكثر . قال « الله أكثر » .

وهذا التوسل بالانبياء بمعنى السؤال بهم — وهو الذى قال أبو حنيفة وأصحابه وغيرهم انه لا يجوز — ليس فى المعروف من مذهب مالك ما يناقض ذلك فضلا أن يجعل هذا من مسائل السب ؛ فمن نقل عن مذهب مالك أنه جوّز التوسل به بمعنى الإقسام به أو السؤال به : فليس معه فى ذلك نقل عن مالك وأصحابه ، فضلا عن أن يقول مالك : ان هذا سب للرسول أو تنقص له . بل المعروف عن مالك أنه كره للداعى أن يقول : ياسيدى سيدى ، وقال : قل كما قالت الانبياء : يارب يارب يا كريم . وكره أيضاً أن يقول : يا حنان يا منان . فإنه ليس بمأثور عنه .

فإذا كان مالك يكره مثل هذا الدعاء إذ لم يكن مشروعا عنده فكيف يجوز عنده أن يسأل الله بمخلوق نبياً كان أو غيره ؛ وهو يعلم أن الصحابة لما أجدبوا عام الرمادة لم يسألوا الله بمخلوق ، لا نبي ولا غيره ، بل قال عمر : اللهم إنا كنا اذا أجدبنا نتوسل اليك بنبينا فتسقينا ، وانا نتوسل اليك بعم نبينا فاسقنا . فيسقون .

وكذلك ثبت فى صحيح مسلم عن ابن عمر وأنس وغيرهما أنهم كانوا اذا أجدبوا انما يتوسلون بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم واستسقائه ، لم ينقل عن أحد منهم أنه كان فى حياته صلى الله عليه وسلم سأل الله تعالى بمخلوق ،

لا به ولا بغيره ، لا فى الاستسقاء ولا غيره ، وحديث الأعمى سنتكلم عليه إن شاء الله تعالى ؛ فلو كان السؤال به معروفاً عند الصحابة لقالوا لعمر : ان السؤال والتوسل به أولى من السؤال والتوسل بالعباس ، فلمَ نعدل عن الامر المشروع الذى كنا نفعله فى حياته وهو التوسل بأفضل الخلق الى أن نتوسل ببعض أقاربه ، وفى ذلك ترك السنة المشروعة وعدول عن الافضل وسؤال الله تعالى بأضعف السببين مع القدرة على أعلاهما ؟ — ونحن مضطرون غاية الاضطرار فى عام الرمادة الذى يضرب به المثل فى الجدب .

والذى فعله عمر فعل مثله معاوية بحضرة من معه من الصحابة والتابعين ، فتوسلوا بيزيد بن الأسود الجرشى كما توسل عمر بالعباس ؛ وكذلك ذكر الفقهاء من أصحاب الشافعى وأحمد وغيرهم أنه يتوسل فى الاستسقاء بدعاء أهل الخير والصلاح ، قالوا : وإن كانوا من أقارب رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو أفضل ، اقتداء بعمر ، ولم يقل أحد من أهل العلم إنه يسأل الله تعالى فى ذلك لا بنبى ولا بغير نبى .

وكذلك من نقل عن مالك أنه جوز سؤال الرسول أو غيره بعد موتهم أو نقل ذلك عن إمام من أئمة المسلمين — غير مالك — كالشافعى وأحمد وغيرهما فقد كذب عليهم ، ولكن بعض الجهال ينقل هذا عن مالك ويستند إلى حكاية مكذوبة عن مالك ، ولو كانت صحيحة لم يكن التوسل الذى فيها هو هذا ؛ بل هو التوسل بشفاعته يوم القيامة ، ولكن من الناس من يحرف نقلها ، وأصلها ضعيف كما سنبينه ان شاء الله تعالى ،

والقاضي عياض لم يذكرها في كتابه في باب زيارة ؛ قبره ، بل ذكر هناك ما هو المعروف عن مالك وأصحابه ، وانما ذكرها في سياق أن حرمة النبي صلى الله عليه وسلم بعد موته ، وتوقيره وتعظيمه لازم ؛ كما كان حال حياته ، وكذلك عند ذكره وذكر حديثه ، وسنته ، وسماع اسمه . وذكر عن مالك أنه سئل عن أيوب السختياني فقال : ما حدثتكم عن أحد الا وأيوب أفضل منه . قال : وحج حجتين فكنت أرمقه فلا أسمع منه غير أنه كان اذا ذكر النبي صلى الله عليه وسلم بكى حتى أرحمه ، فلما رأيت منه ما رأيت واجلاله للنبي صلى الله عليه وسلم كتبت عنه .

وقال مصعب بن عبد الله : كان مالك اذا ذكر النبي صلى الله عليه وسلم يتغير لونه وينحنى حتى يصعب ذلك على جلسائه . فقيل له يوماً في ذلك فقال : لو رأيتم ما رأيت لما أنكرتم عليّ ما ترون ، لقد كنت أرى محمد بن المنكدر — وكان سيد القراء — لا نكاد نسأله عن حديث أبداً الا يبكى حتى نرحمه .

ولقد كنت أرى جعفر بن محمد — وكان كثير الدعابة والتبسم — فإذا ذكر عنده النبي صلى الله عليه وسلم اصفر لونه ، وما رأيته يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الا على طهارة . ولقد اختلفت اليه زماناً فما كنت أراه الا على ثلاث خصال : اما مصلياً ، واما صامتاً ، واما يقرأ القرآن . ولا يتكلم فيما لا يعنيه ،وكان من العلماء والعباد الذين يخشون الله .

ولقد كان عبد الرحمن بن القاسم يذكر النبي صـــلى الله عليه وسلم فينظر إلى لونه كأنه نزف منه الدم ، وقد جف لسانه فى فمه هيبة لرسـول الله صلى الله عليه وسلم .

ولقد كنت آتى عامر بن عبد الله بن الزبير فإذا ذكر عنده النبي صلى الله عليه وسلم بكى حتى لا يبقى فى عينيه دموع .

ولقد رأيت الزهرى — وكان لمِنْ أهنأ الناس وأقربهم — فإذا ذكر عنده النبي صلى الله عليه وسلم فكأنه ما عرفك ولا عرفته .

ولقد كنت آتى صفوان بن سليم وكان من المتعبدين المجتهدين ، فإذا ذكر النبي صلى الله عليه وسلم بكى فلا يزال يبكى حتى يقوم الناس عنه ويتركوه .

فهذا كله نقله القاضى عياض من كتب أصحاب مالك المعروفة ، ثم ذكر حكاية بإسناد غريب منقطع رواها عن غير واحد إجازة ، قالوا : حدثنا أبو العباس أحمد بن عمر بن دلهات ، قال : حدثنا أبو الحسن على بن فهر ، حدثنا أبو بكر محمد بن أحمد بن الفرج ، حدثنـا أبو الحسن عبد الله بن المنتاب ، حدثنا يعقوب بن إسحاق بن أبى إسرائيل ، حدثنا ابن حميـد قال : ناظر أبو جعفر أمير المؤمنين مالكا فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له مالك . يا أمير المؤمنين ، لا ترفع صوتك فى هـذا المسجد ، فإن الله أدب قوماً فقال : (لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى) الآية ، ومدح قوماً فقال : (إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله) الآية ، وذم قوماً فقال : (ان الذين ينادونك

من وراء الحجرات) الآية ، وإن حرمته ميتاً كحرمته حياً . فاستكان لها أبو جعفر ، فقال : يا أبا عبد الله ، استقبل القبلة وأدعو ؟ أم أستقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى الله يوم القيامة ؟ بل استقبله واستشفع به فيشفعك الله ، قال الله تعالى : (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيما) .

قلت وهذه الحكاية منقطعة، فإن محمدبن حميدالرازى لم يدرك مالكا ، لاسيما فى زمن أبى جعفر المنصور ، فإن أبا جعفر توفى بمكة سنة ثمان وخمسين ومائة ، وتوفى مالك سنة تسع وسبعين ومائة . وتوفى محمد بن حميد الرازى سنة ثمان وأربعين ومائتين ، ولم يخرج من بلده حين رحل فى طلب العلم إلا وهو كبير مع أبيه ، وهو مع هذا ضعيف عند أكثر أهل الحديث ، كذبه أبو زرعة ، وابن وارة ، وقال صالح بن محمد الأسدى : مارأيت أحداً أجرأ على الله منه وأحذق بالكذب منه . وقال يعقوب بن شيبة : كثير المناكير . وقال النسائى : ليس بثقة . وقال ابن حبان : ينفرد عن الثقات بالمقلوبات . وآخر من روى الموطأ عن مالك هو أبو مصعب وتوفى سنة اثنتين وأربعين ومائتين . وآخر من روى عن مالك على الإطلاق هو أبو حذيفة أحمد بن إسماعيل السهمى توفى سنة تسع وخمسين ومائتين . وفى الإسناد أيضاً من لاتعرف حاله .

وهذه الحكاية لم يذكرها أحد من أصحاب مالك المعروفين بالأخذ عنه ،

ومحمد بن حميد ضعيف عند أهل الحديث إذا أسند ، فكيف إذا أرسل حكاية لا تعرف إلا من جهته؟! هذا إن ثبت عنه ، وأصحاب مالك متفقون على أنه بمثل هذا النقل لا يثبت عن مالك قول له فى مسألة فى الفقه ، بل إذا روى عنه الشاميون كالوليد بن مسلم ، ومروان بن محمد الطاطرى ضعفوا رواية هؤلاء ، وإنما يعتمدون على رواية المدنيين والمصريين ، فكيف بحكاية تناقض مذهبه المعروف عنه من وجوه رواها واحد من الخراسانيين لم يدركه وهو ضعيف عند أهل الحديث ؟.

مع أن قوله « وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى الله يوم القيامة » إنما يدل على توسل آدم وذريته به يوم القيامة ، وهذا هو التوسل بشفاعته يوم القيامة ، وهذا حق ؛ كما جاءت به الأحاديث الصحيحة حين تأتى الناس يوم القيامة آدم ليشفع لهم ، فيردهم آدم إلى نوح، ثم يردهم نوح الى ابراهيم، وابراهيم الى موسى ، وموسى الى عيسى، ويردهم عيسى الى محمد صلى الله عليه وسلم فانه كما قال « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، آدم فمن دونه تحت لوائى يوم القيامة ولا فخر » ولكنها مناقضة لمذهب مالك المعروف من وجوه :-

(أحدها) قوله « أستقبل القبلة وأدعو ، أم أستقبل رسول الله وأدعو ؟ » فقال « ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم » . فان المعروف عن مالك وغيره من الأئمة وسائر السلف من الصحابة والتابعين أن الداعى إذا سلم على النبى صلى الله عليه وسلم ثم أراد أن يدعو لنفسه فانه يستقبل القبلة ويدعو فى مسجده ، ولا يستقبل القبر ويدعو لنفسه ، بل انما يستقبل

القبر عند السلام على النبي صلى الله عليه وسلم والدعاء له . هذا قول أكثر العلماء كمالك فى احدى الروايتين والشافعي وأحمد وغيرهم .

وعند أصحاب أبى حنيفة لا يستقبل القبر وقت السلام عليه أيضاً .

ثم منهم من قال : يجعل الحجرة على يساره ـ وقد رواه ابن وهب عن مالك ـ ويسلم عليه .

ومنهم من قال : بل يستدبر الحجرة ويسلم عليه ، وهذا هو المشهور عندهم ، ومع هذا فكره مالك أن يطيل القيام عند القبر لذلك . قال القاضى عياض فى المبسوط عن مالك قال « لا أرى أن يقف عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم يدعو ، ولكن يسلم ويمضى » قال : وقال نافع : كان ابن عمر يسلم على القبر، رأيته مائة مرة أو أكثر يجيء الى القبر فيقول : السلام على النبي صلى الله عليه وسلم، السلام على أبى بكر، السلام على أبى . ثم ينصرف . ورؤى واضعا يده على مقعد النبي صلى الله عليه وسلم من المنبر ثم وضعها على وجهه . قال: وعن ابن أبى قسيط والقعنبي كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إذا خلا المسجد جسوا برمانة المنبر التى تلقاء القبر بميامنهم ، ثم استقبلوا القبلة يدعون . قال : وفى الموطأ من رواية يحي بن يحي الليثي أنه كان ـ يعنى ابن عمر ـ يقف على قبر النبي صلى الله عليه وسلم فيصلى على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى أبى بكر وعمر ، وعند ابن القاسم والقعنبي : ويدعو لأبى بكر وعمر . قال مالك فى رواية ابن وهب : يقول السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته . وقال فى المبسوط : ويسلم على أبى بكر وعمر .

قال أبو الوليد الباجي : وعندى أن يدعو للنبي صلى الله عليه وسلم بلفظ الصلاة ولأبى بكر وعمر [بلفظ السلام] لما فى حديث ابن عمر من الخلاف . وهذا الدعاء يفسر الدعاء المذكور فى رواية ابن وهب ، قال مالك فى رواية ابن وهب : إذا سلم على النبي صلى الله عليه وسلم ودعا يقف ووجهه إلى القبر لا إلى القبلة ويدنو ويسلم ولا يمس القبر . فهذا هو السلام عليه والدعاء له بالصلاة عليه كما تقدم تفسيره .

وكذلك كل دعاء ذكره أصحابه كما ذكر ابن حبيب فى الواضحة وغيره قال : وقال مالك فى المبسوط : وليس يلزم من دخل المسجد وخرج من أهل المدينة الوقوف بالقبر ، وإنما ذلك للغرباء . وقال فيه أيضا : ولا بأس لمن قدم من سفر أو خرج الى سفر أن يقف على قبر النبي صلى الله عليه وسلم فيصلى عليه ويدعو له ولأبى بكر وعمر . قيل له : فان ناساً من أهل المدينة لا يقدمون من سفر ولا يريدونه يفعلون ذلك فى اليوم مرة أو أكثر ، وربما وقفوا فى الجمعة أو الأيام المرة والمرتين أو أكثر عند القبر فيسلمون ويدعون ساعة . فقال مالك : لم يبلغنى هذا عن أهل الفقه ببلدنا ، وتركه واسع ، ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها ، ولم يبلغنى عن أول هذه الأمة وصدرها أنهم كانوا يفعلون ذلك ، ويكره الا لمن جاء من سفر أو أراده .

قال ابن القاسم : ورأيت أهل المدينة إذا خرجوا منها ، أو دخلوا أتوا القبر فسلموا قال ولذلك رأى[1] .

(١) بياض بالاصل .

قال أبو الوليد الباجي : ففرق بين أهل المدينة والغرباء لأن الغرباء قصدوا لذلك وأهل المدينة مقيمون بها لم يقصدوها من أجل القبر والتسليم .

قال : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد» « اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » قال : وقال النبي صلى الله عليه وسلم «لا تجعلوا قبري عيدا» . قال ومن كتاب أحمد بن شعبة فيمن وقف بالقبر لا يلتصق به ولا يمسه ولا يقف عنده طويلا ، وفى (العتبية) يعنى عن مالك : يبدأ : بالركوع قبل السلام فى مسجد النبي صلى الله عليه وسلم [1] ، وأحب مواضع التنفل فيه مصلى النبي صلى عليه وسلم حيث العمود المخلق ، وأما فى الفريضة فالتقدم إلى الصفوف . قال : والتنفل فيه للغرباء أحب الى من التنفل فى البيوت .

فهذا قول مالك وأصحابه وما نقلوه عن الصحابة يبين أنهم لم يقصدوا القبر إلا للسلام على النبي صلى الله عليه وسلم والدعاء له . وقد كره مالك إطالة القيام لذلك ، وكره ان يفعله أهل المدينة كلما دخلوا المسجد وخرجوا منه ، وإنما يفعل ذلك الغرباء ومن قدم من سفر أو خرج له ، فانه تحية للنبي صلى الله عليه وسلم .

فأما اذا قصد الرجل الدعاء لنفسه فانما يدعو فى مسجده مستقبل القبلة كما ذكروا ذلك عن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم ينقل عن أحد من الصحابة أنه فعل ذلك عند القبر ، بل ولا أطال الوقوف عند القبر للدعاء للنبي صلى الله عليه وسلم ، فكيف بدعائه لنفسه .

---

(١) أي يقدم صلاة تحية المسجد على السلام على الرسول صلى الله عليه وسلم

وأما دعاء الرسول وطلب الحوائج منه وطلب شفاعته عند قبره أو بعد موته فهذا لم يفعله أحدمن السلف، ومعلوم أنه لوكان قصد الدعاء عندالقبر مشروعا لفعله الصحابة والتابعون، وكذلك السؤال به، فكيف بدعائه وسؤاله بعد موته؟ .

فدل ذلك على أن ما فى الحكاية المنقطعة من قوله «استقبله واستشفع به» كذب على مالك، مخالف لأقواله وأقوال الصحابة والتابعين وأفعالهم التى يفعلها مالك وأصحابه ونقلها سائر العلماء ، إذ كان أحد منهم لم يستقبل القبر للدعاء لنفسه فضلا عن أن يستقبله ويستشفع به يقول له يا رسول الله اشفع لى أو ادع لى، أو يشتكى إليه مصائب الدين والدنيا، أو يطلب منه أو من غيره من الموتى من الأنبياء والصالحين أو من الملائكة الذين لا يراهم أن يشفعوا له، أو يشتكى اليهم المصائب، فان هذا كله من فعل النصارى وغيرهم من المشركين ومن ضاهاهم من مبتدعة هذه الأمة، ليس هذا من فعل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، ولا مما أمر به أحد من أئمة المسلمين، وإن كانوا يسلمون عليه إذ كان يسمع السلام عليه من القريب ويُبَلَّغُ سلام البعيد .

وقد احتج أحمد وغيره بالحديث الذى رواه أحمد وأبو داود بإسناد جيد من حديث حيوة بن شريح المصرى حدثنا أبو صخر عن يزيد بن قسيط عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : «ما من أحد يسلم على إلا رد الله على روحى حتى أرد عليه السلام» .

وعلى هذا الحديث اعتمد الأئمة فى السلام عليه عند قبره صلوات الله

وسلامه عليه ، فإن أحاديث زيارة قبره كلها ضعيفة لا يعتمد على شيء منها في الدين. ولهذا لم يرو أهل الصحاح والسنن شيئاً منها ، وانما يرويها من يروى الضعاف كالدار قطني والبزار وغيرهما.

وأجود حديث فيها ما رواه عبد الله بن عمر العمرى ـ وهو ضعيف والكذب ظاهر عليه ـ مثل قوله : « من زارنى بعد مماتى فكأنما زارنى فى حياتى » فإن هذا كذبه ظاهر مخالف لدين المسلمين » فإن من زاره فى حياته وكان مؤمناً به كان من أصحابه لاسيما إن كان من المهاجرين اليه المجاهدين معه ، وقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « لا تسبوا أصحابى ، فوالذى نفسى بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه » اخرجاه فى الصحيحين .

والواحد من بعد الصحابة لا يكون مثل الصحابة بأعمال مأمور بها واجبة كالحج والجهاد والصلوات الخمس والصلاة عليه ، فكيف بعمل ليس بواجب باتفاق المسلمين ؟ بل ولا شرع السفر إليه ، بل هو منهى عنه .

وأما السفر الى مسجده للصلاة فيه والسفر الى المسجد الأقصى للصلاة فيه فهو مستحب ، والسفر الى الكعبة للحج فواجب . فلو سافر أحد السفر الواجب والمستحب لم يكن مثل واحد من الصحابة الذين سافروا اليه فى حياته ، فكيف بالسفر المنهى عنه ؟ وقد اتفق الأئمة على أنه لو نذر أن يسافر إلى قبره صلوات الله وسلامه عليه ، أو قبر غيره من الأنبياء والصالحين ، لم يكن عليه

أن يوفى بنذره ، بل ينهى عن ذلك . ولو نذر السفر الى مسجده أو المسجد الأقصى للصلاة ففيه قولان للشافعى :

أظهرهما عنه يجب ذلك وهو مذهب مالك وأحمد .

والثانى لا يجب وهو مذهب أبى حنيفة ، لأن من أصله أنه لا يجب من النذر الا ما كان واجباً بالشرع ، وإتيان هذين المسجدين ليس واجباً بالشرع فلا يجب بالنذر عنده .

وأما الأكثرون فيقولون هو طاعة لله ، وقد ثبت فى صحيح البخارى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه » .

وأما السفر الى زيارة قبور الأنبياء والصالحين فلا يجب بالنذر عند أحد منهم لأنه ليس بطاعة ، فكيف يكون من فعل هذا كواحد من أصحابه ؟ وهذا مالك كره أن يقول الرجل : زرت قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستعظمه . وقد قيل إن ذلك ككراهية زيارة القبور ، وقيل لأن الزائر أفضل من المزور ، وكلاهما ضعيف عند أصحاب مالك .

والصحيح أن ذلك لأن لفظ زيارة القبر مجمل يدخل فيها الزيارة البدعية التى هى من جنس الشرك ، فإن زيارة قبور الأنبياء وسائر المؤمنين على وجهين كما تقدم ذكره :

زيارة شرعية ، وزيارة بدعية .

فالزيارة الشرعية يقصد بها السلام عليهم والدعاء لهم كما يقصد الصلاة على أحدهم إذا مات فيصلى عليه صلاة الجنازة ، فهذه الزيارة الشرعية .

والثانى : أن يزورها كزيارة المشركين وأهل البدع لدعاء الموتى وطلب الحاجات منهم ؛ أو لاعتقاده أن الدعاء عند قبر أحدهم أفضل من الدعاء فى المساجد والبيوت ؛ أو أن الإقسام بهم على الله وسؤاله سبحانه بهم أمر مشروع يقتضى إجابة الدعاء ، فمثل هذه الزيارة بدعة منهى عنها .

فإذا كان لفظ « الزيارة » مجملا يحتمل حقاً وباطلا عدل عنه إلى لفظ لا لبس فيه كلفظ « السلام » عليه ، ولم يكن لأحد أن يحتج على مالك بما روى فى زيارة قبره أو زيارته بعد موته ، فان هذه كلها أحاديث ضعيفة بل موضوعة ، لا يحتج بشىء منها فى أحكام الشريعة .

والثابت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة » ، هذا هو الثابت فى الصحيح ، ولكن بعضهم رواه بالمعنى فقال قبرى . وهو صلى الله عليه وسلم حين قال هذا القول لم يكن قد قبر بعد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ولهذا لم يحتج بهذا أحد من الصحابة ، لما تنازعوا فى موضع دفنه ، ولو كان هذا عندهم لكان نصا فى محل النزاع . ولكن دفن فى حجرة عائشة فى الموضع الذى مات فيه ، بأبى هو وأمى صلوات الله عليه وسلامه .

ثم لما وسع المسجد فى خلافة الوليد بن عبد الملك وكان نائبه على المدينة

عمر بن عبد العزيز أمره أن يشترى الحجر ويزيدها فى المسجد ، وكانت الحجر من جهة المشرق والقبلة فزيدت فى المسجد ودخلت حجرة عائشة فى المسجد من حينئذ ، وبنوا الحائط البرانى مسنما محرفا ، فانه ثبت فى صحيح مسلم من حديث أبى مرثد الغنوى أنه قال صلى الله عليه وسلم « لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا اليها » لأن ذلك يشبه السجود لها ، وإن كان المصلى انما يقصد الصلاة لله تعالى . وكما نهى عن اتخاذها مساجد ونهى عن قصد الصلاة عندها ، وان كان المصلى انما يقصد الصلاة لله سبحانه والدعاء له . فمن قصد قبور الأنبياء والصالحين لأجل الصلاة والدعاء عندها فقد قصد نفس المحرم الذى سد الله ورسوله ذريعته ، وهذا بخلاف السلام المشروع حسبما تقدم .

وقد روى سفيان الثورى عن عبد الله بن السائب عن زاذان عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن لله ملائكة سياحين فى الأرض يبلغونى عن أمتى السلام » رواه النسائى وأبو حاتم فى صحيحه ، وروى نحوه عن أبى هريرة . فهذا فيه أن سلام البعيد تبلغه الملائكة .

وفى الحديث المشهور الذى رواه أبو الأشعث الصنعانى عن أوس بن أوس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أكثروا على من الصلاة فى كل يوم جمعة ، فان صلاة أمتى تعرض على يومئذ ، فمن كان أكثرهم على صلاة كان أقربهم منى منزلة » .

وفى مسند الإمام أحمد : حدثنا شريح حدثنا عبد الله بن نافع عن ابن أبى

ذئب عن المقبرى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تتخذوا قبرى عيدا ، ولا تجعلوا بيوتكم قبورا ، وصلوا على حيثما كنتم فان صلاتكم تبلغنى » ورواه أبو داود . قال القاضى عياض وروى أبو بكر بن أبى شيبة عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صلى على عند قبرى سمعته . ومن صلى على نائياً أبلغته » . وهذا قد رواه محمد بن مروان السدى عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة ، وهذا هو السدى الصغير وليس بثقة ، وليس هذا من حديث الأعمش .

وروى أبو يعلى الموصلى فى مسنده عن موسى بن محمد بن حبان عن أبى بكر الحنفى : حدثنا عبد الله بن نافع ، حدثنا العلاء بن عبد الرحمن ، سمعت الحسن بن على قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « صلوا فى بيوتكم ولا تتخذوها قبورا ، ولا تتخذوا بيتى عيدا . صلوا على وسلموا فإن صلاتكم وسلامكم يبلغنى » .

وروى سعيدبن منصور فى سننه أن عبد الله بن حسن بن حسن بن على بن أبى طالب رأى رجلا يكثر الاختلاف إلى قبر النبى صلى الله عليه وسلم قال له: يا هذا ! إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا تتخذوا قبرى عيدا ، وصلوا على حيثما كنتم فان صلاتكم تبلغنى » فما أنت ورجل بالأندلس منه إلا سواء .

وروى هذا المعنى عن على بن الحسين زين العابدين عن أبيه عن على بن أبى طالب ، ذكره أبو عبد الله محمد بن الواحد المقدسى الحافظ فى مختاره الذى

هو أصح من صحيح الحاكم . وذكر القاضى عيـــاض عن الحسن بن على قال : إذا دخلت فسلم على النبي صلى الله عليه وسلم فان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا تتخذوا بيتى عيدا ، ولا تتخذوا بيوتكم قبورا ، وصلوا على حيث كنتم فان صلاتكم تبلغنى حيث كنتم » .

ومما يوهن هذه الحكاية أنه قال فيها « ولم تصرف وجهك عنه وهو سيلتك ووسيلة أبيك آدم إلى الله يوم القيامة » إنما يدل على أنه يوم القيامة تتوسل الناس بشفاعته وهذا حق كما تواترت به الأحاديث ، لكن إذا كان الناس يتوسلون بدعائه وشفاعته يوم القيامة كما كان أصحابه يتوسلون بدعائه وشفاعته فى حياته ، فانما ذاك طلب لدعائه وشفاعته، فنظيرهذا ـ لو كانت الحكاية صحيحة ـ أن يطلب منه الدعاء والشفاعة فى الدنيا عند قبره .

ومعلوم أن هذا لم يأمر به النبي صلى الله عليه وسلم ولا سنه لأمته ، ولا فعله أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، ولا استحبه أحد من أئمة المسلمين لا مالك ولا غيره من الأئمة ، فكيف يجوز أن ينسب إلى مالك مثل هذا الكلام الذى لا يقوله إلا جاهل لا يعرف الأدلة الشرعية ولا الأحكام المعلومة أدلتها الشرعية ، مع علو قدر مالك وعظم فضيلته وإمامته ، وتمام رغبته فى اتباع السنة وذم البدع وأهلها ، ؟ وهل يأمر بهذا أو يشرعه إلا مبتدع ؟ فلو لم يكن عن مالك قول يناقض هذا لعلم أنه لا يقول مثل هذا .

ثم قال فى الحكاية : « استقبله واستشفع به فيشفعك الله » والاستشفاع به

معناه فى اللغة أن يطلب منه الشفاعة كما يستشفع الناس به يوم القيامة ، وكما كان أصحابه يستشفعون به . ومنه الحديث الذى فى السنن أن أعرابياً قال : يارسول الله جهدت الأنفس وجاع العيال ، وهلك المال ، فادع الله لنا فانا نستشفع بالله عليك ونستشفع بك على الله . فسبح رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى عرف ذلك فى وجوه أصحابه وقال « ويحك أتدرى ما تقول ؟ شأن الله أعظم من ذلك ، إنه لا يستشفع به على أحد من خلقه » وذكر تمام الحديث .

فأنكر قوله « نستشفع بالله عليك » ومعلوم أنه لا ينكر أن يسأل المخلوق بالله أو يقسم عليه بالله ، وإنما أنكر أن يكون الله شافعا إلى المخلوق ولهذا لم ينكر قوله «نستشفع بك على الله » فانه هو الشافع المشفع .

وهم — لو كانت الحكاية صحيحة — انما يجيئون اليه لأجل طلب شفاعته صلى الله عليه وسلم ولهذا قال فى تمام الحكاية : (ولو أنهم اذ ظلموا أنفسهم جاءوك) الآية ، وهؤلاء اذا شرع لهم أن يطلبوا منه الشفاعة والاستغفار بعد موته فاذا أجابهم فانه يستغفر لهم ، واستغفاره لهم دعاء منه وشفاعة أن يغفر الله لهم .

واذا كان الاستشفاع منه طلب شفاعته فانما يقال فى ذلك « استشفع به فيشفعه الله فيك » لا يقال : فيشفعك الله فيه . وهذا معروف الكلام ، ولغة النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه وسائر العلماء ، يقال : شفع فلان فى فلان فشفع فيه . فالمشفع الذى يشفعه المشفوع اليه هو الشفيع المستشفع به .

لا السائل الطالب من غيره أن يشفع له ، فان هذا ليس هو الذى شفع ، فمحمد صلى الله عليه وسلم هو الشفيع المشفع ، ليس المشفع الذى يستشفع به . ولهـذا يقول فى دعائه : يارب شفعنى ، فيشفعه الله ، فيطلب من الله سبحانه أن يشفعه لا أن يشفع طالبي شفاعته ، فكيف يقول : واستشفع به فيشفعك الله ؟

وأيضاً فان طلب شفاعته ودعائه واستغفاره بعد موته وعند قبره ليس مشروعا عند أحد من أئمة المسلمين ، ولا ذكر هذا أحـــد من الأئمة الأربعة وأصحابهم القدماء ، وانمـا ذكر هذا بعض المتأخرين : ذكروا حكاية عن العتبى أنه رأى أعرابياً أتى قبره وقرأ هذه الآية وأنه رأى فى المنـام أن الله غفر له . وهذا لم يذكره أحد من المجتهدين من أهل المذاهب المتبوعين . الذين يقتى الناس بأقوالهم ، ومن ذكرها لم يذكر عليها دليلا شرعياً .

ومعلوم أنه لو كان طلب دعائه وشفاعته واستغفاره عند قبره مشروعا لـكان الصحابة والتابعون لهم باحسان أعلم بذلك وأسبق اليه من غيرهم ، ولكان أئمة المسلمين يذكرون ذلك ، وما أحسن ما قال مالك « لا يصلح آخر هذه الأمة الا ما أصلح أولها » قال : ولم يبلغنى عن أول هذه الامة وصدرها أنهم كانوا يفعلون ذلك .

فمثل هذا الامام كيف يشرع دينا لم ينقل عن أحد السلف ، ويأمر الأمة أن يطلبوا الدعاء والشفاعة والاستغفار — بعد موت الأنبياء والصالحين — منهم عند قبورهم ، وهو أمر لم يفعله أحد من سلف الأمة ؟

ولـكن هذا اللفظ الذى فى الحكاية يشبه لفظ كثير من العامة الذين يستعملون لفظ الشفاعة فى معنى التوسـل ، فيقول أحدهم : اللهم إنا نستشفع إليك بفلان وفلان أى نتوسـل به . ويقولون لمن توسل فى دعائه بنبي أو غيره « قد تشـفع به » من غير أن يكون المستشفع به شفع له ولا دعا له ، بل وقد يكون غائباً لم يسمع كلامه ولا شفع له ، وهذا ليس هو لغة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وعلماء الامة ؛ بل ولا هو لغة العرب ، فإن الاستشفاع طلب الشفاعة . والشافع هو الذى يشفع السائل فيطلب له ما يطلب من المسئول المدعو المشفوع إليه .

وأما الاستشفاع بمن لم يشفع للسـائل ولا طلب له حاجة بل وقد لا يعلم بسؤاله ، فليس هذا اسـتشفاعاً لا فى اللغة ولا فى كلام من يدرى ما يقول : نعم هذا سـؤال به ، ودعاؤه ليس هو استشفاعاً به . ولـكن هؤلاء لـمـا غيروا اللغة – كما غيروا الشريعة — وسموا هذا اسـتشفاعاً أى سؤالا بالشـافع صاروا يقولون « استشفع به فيشفعك » أى يجيب سـؤالك به ، وهذا مما يبين أن هذه الحكاية وضعها جاهل بالشرع واللغة وليس لفظها من ألفاظ مالك .

نعم قد يكون أصلها صحيحاً ويكون مالك قد نهى عن رفع الصوت فى مسجد الرسول اتباعاً للسنة كما كان عمر ينهى عن رفع الصوت فى مسجده ، ويكون مالك أمر بمـا أمر الله به من تعزيره وتوقيره ونحو ذلك مما يليق بمالك أن يأمر به .

ومن لم يعرف لغة الصحابة التى كانوا يتخاطبون بها ويخاطبهم بها النبى صلى الله عليه وسلم ، وعادتهم فى الكلام ، وإلا حرف الكلم عن مواضعه ، فان كثيراً من الناس ينشأ على اصطلاح قومه وعادتهم فى الالفاظ ثم يجد تلك الألفاظ فى كلام الله أو رسوله أو الصحابة فيظن أن مراد الله أو رسوله أو الصحابة بتلك الألفاظ ما يريده بذلك أهل عادته واصطلاحه ، ويكون مراد الله ورسوله والصحابة خلاف ذلك .

وهذا واقع لطوائف من الناس من أهل الكلام والفقه والنحو والعامة وغيرهم ، وآخرون يتعمدون وضع ألفاظ الأنبياء وأتباعهم على معانى أخر مخالفة لمعانيهم ، ثم ينطقون بتلك الألفاظ مريدين بها ما يعنونه هم ، ويقولون : إنا موافقون للأنبياء ! وهذا موجود فى كلام كثير من الملاحدة المتفلسفة والاسماعيلية ومن ضاهاهم من ملاحدة المتكلمة والمتصوفة ، مثل من وضع « المحدث » و « المخلوق » و « المصنوع » على ما هو معلول وإن كان عنده قديما أزلياً ، ويسمى ذلك « الحدوث الذاتى » ثم يقول : نحن نقول إن العالم محدث ، وهو مراده . ومعلوم أن لفظ المحدث بهذا الاعتبار ليس لغة أحد من الأمم ، وإنما المحدث عندهم ما كان بعد أن لم يكن .

وكذلك يضعون لفظ « الملائكة » على ما يثبتونه من العقول والنفوس وقوى النفس . ولفظ « الجن » و « الشياطين » على بعض قوى النفس ، ثم يقولون : نحن نثبت ما أخبرت به الأنبياء وأقر به جمهور الناس من الملائكة والجن والشياطين .

ومن عرف مراد الأنبياء ومرادهم علم بالاضطرار أن هذا ليس هو ذاك ، مثل أن يعلم مرادهم بالعقل الأول وأنه مقارن عندهم لرب العالمين أزلا وأبداً ، وأنه مبدع لكل ما سواه ، أو بتوسطه حصل كل ما سواه . والعقل الفعال عندهم عنه يصدر كل ما تحت فلك القمر ، ويعلم بالاضطرار من دين الأنبياء أنه ليس من الملائكة عندهم من هو رب كل ما سوى الله ، ولا رب كل ما تحت فلك القمر ، ولا من هو قديم أزلى أبدى لم يزل ولا يزال .

ويعلم أن الحديث الذى يروى «أول ما خلق الله العقل» حديث باطل عن النبي صلى الله عليه وسلم مع أنه لو كان حقاً لكان حجة عليهم فإن لفظه « أول ما خلق الله العقل » بنصب الاول على الظرفية « فقال له : أقبل ، فأقبل . ثم قال له : أدبر ، فأدبر . فقال : وعزتى ما خلقت خلقاً أكرم علىَّ منك ، فبك آخذ ، وبك أعطى ، وبك الثواب ، وبك العقاب » وروى « لما خلق الله العقل » فالحديث لو كان ثابتاً كان معناه أنه خاطب العقل فى أول أوقات خلقه ، وأنه خلق قبل غيره ، وأنه تحصل به هذه الامور الاربعة لا كل المصنوعات .

و « العقل » فى لغة المسلمين مصدر عقل يعقل عقلا ، يراد به القوة التى بها يعقل ، وعلوم وأعمال تحصل بذلك ، لا يراد بها قط فى لغة : جوهر قائم بنفسه ، فلا يمكن أن يراد هـذا المعنى بلفظ العقل . مع أنا قد بينا فى مواضع أخر فساد ما ذكروه من جهة العقل الصريح ، وأن ما ذكروه من المجردات والمفارقات ينتهى أمرهم فيه إلى إثبات النفس التى تفارق البدن بالموت ، والى إثبات ما تجرده النفس من المعقولات القائمة بها ؛ فهذا منتهى ما يثبتونه من الحق فى هذا الباب .

والمقصود هنا أن كثيراً من كلام الله ورسوله يتكلم به من يسلك مسلكهم، ويريد مرادهم لا مراد الله ورسوله، كما يوجد فى كلام صاحب (الكتب المضنون بها) وغيره، مثل ما ذكره فى « اللوح المحفوظ » حيث جعله النفس الفلكية، ولفظ « القلم » حيث جعله العقل الأول، ولفظ « الملكوت » و « الجبروت » و « الملك » حيث جعل ذلك عبارة عن النفس والعقل، ولفظ « الشفاعة » حيث جعل ذلك فيضا يفيض من الشفيع على المستشفع وإن كان الشفيع قد لا يدرى، وسلك فى هذه الأمور ونحوها مسالك ابن سينا كما قد بسط فى موضع آخر.

والمقصود هنا ذكر من يقع ذلك منه من غير تدبر منه للغة الرسول صلى الله عليه وسلم كلفظ القديم، فانه فى لغة الرسول التى جاء بها القرآن خلاف الحديث وإن كان مسبوقا بغيره كقوله تعالى : (حتى عاد كالعرجون القديم) وقال تعالى عن إخوة يوسف : (تالله إنك لفى ضلالك القديم) وقوله تعالى : (أفرأيتم ما كنتم تعبدون، أنتم وآباؤكم الأقدمون).

وهو عند أهل الكلام عبارة عما لم يزل أو عما لم يسبقه وجود غيره إن لم يكن مسبوقا بعدم نفسه، ويجعلونه — إذا أريد به هذا — من باب المجاز، ولفظ « المحدث » فى لغة القرآن يقابل للفظ « القديم » فى القرآن.

وكذلك لفظ « الكلمة » فى القرآن والحديث وسائر لغة العرب إنما يراد به الجملة التامة، كقوله صلى الله عليه وسلم « كلمتان حبيبتان إلى الرحمن،

خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى الميزان سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم » وقوله « إن أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل » ، ومنه قوله تعالى : (كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا) ، وقوله تعالى : (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم) الآية وقوله تعالى : (وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا) وأمثال ذلك ؛ ولا يوجد لفظ الكلام فى لغة العرب الا بهذا المعنى .

والنحاة اصطلحوا على أن يسموا (الاسم) وحده (والفعل) (والحرف) كلمة، ثم يقول بعضهم: وقد يراد بالكلمة الكلام؛ فيظن من اعتاد هذا أن هذا هو لغة العرب، وكذلك لفظ «ذوى الأرحام » فى الكتاب والسنة يراد به الاقارب من جهة الأبوين فيدخل فيهم العصبة وذوو الفروض ، وان شمل ذلك من لا يرث بفرض ولا تعصيب ، ثم صار ذلك فى اصطلاح الفقهاء اسما لهؤلاء دون غيرهم ، فيظن من لا يعرف الا ذلك أن هذا هو المراد بهذا اللفظ فى كلام الله ورسوله وكلام الصحابة ، ونظائر هذا كثيرة .

ولفظ « التوسل » و « الاستشفاع » ونحوهما دخل فيها من تغيير لغة الرسول وأصحابه ما أوجب غلط من غلط عليهم فى دينهم ولغتهم .

والعلم يحتاج الى نقل مصدق ونظر محقوق .

والمنقول عن السلف والعلماء يحتاج الى معرفة بثبوت لفظه ومعرفة دلالته ، كما يحتاج الى ذلك المنقول عن الله ورسوله . فهذا ما يتعلق بهذه الحكاية .

ونصوص الكتاب والسنة متظاهرة بأن الله أمرنا أن نصلى على النبى ونسلم عليه فى كل مكان ؛ فهذا مما اتفق عليه المسلمون ، وكذلك رغبنا وحضنا فى الحديث الصحيح على أن نسأل الله له الوسيلة والفضيلة وأن يبعثه مقاما محمودا الذى وعده .

فهذه الوسيلة التى شرع لنا أن نسألها الله تعالى — كما شرع لنا أن نصلى عليه ونسلم عليه — هى حق له ، كما أن الصلاة عليه والسلام حق له صلى الله عليه وسلم .

والوسيلة التى أمرنا الله أن نبتغيها اليه هى التقرب الى الله بطاعته ، وهذا يدخل فيه كل ما أمرنا الله به ورسوله .

وهذه الوسيلة لا طريق لنا اليها الا باتباع النبى صلى الله عليه وسلم بالإيمان به وطاعته ، وهذا التوسل به فرض على كل أحد .

وأما التوسل بدعائه وشفاعته — كما يسأله الناس يوم القيامة أن يشفع لهم، وكما كان الصحابة يتوسلون بشفاعته فى الاستسقاء وغيره، مثل توسل الأعمى بدعائه حتى رد الله عليه بصره بدعائه وشفاعته — فهذا نوع ثالث هو من باب قبول الله دعاءه وشفاعته لكرامته عليه ، فمن شفع له الرسول صلى عليه وسلم ودعا له فهو بخلاف من لم يدع له ولم يشفع له .

ولكن بعض الناس ظن أن توسل الصحابة به كان بمعنى أنهم يقسمون به ويسألون به ، فظن هذا مشروعا مطلقا لكل أحد فى حياته ومماته ، وظنوا

أن هذا مشروع فى حق الأنبياء والملائكة بل وفى الصالحين وفيمن يظن فيهم الصلاح ، وإن لم يكن صالحا فى نفس الأمر .

وليس فى الأحاديث المرفوعة فى ذلك حديث فى شىء من دواوين المسلمين التى يعتمد عليها فى الأحاديث — لا فى الصحيحين ولا كتب السنن ولا المسانيد المعتمدة كمسند الإمام أحمد وغيره — وإنما يوجد فى الكتب التى عرف أن فيها كثيرا من الأحاديث الموضوعة المكذوبة التى يختلقها الكذابون ، بخلاف من قد يغلط فى الحديث ولا يتعمد الكذب ، فان هؤلاء توجد الرواية عنهم فى السنن ومسند الإمام أحمد ونحوه ، بخلاف من يتعمد الكذب فان أحمد لم يرو فى مسنده عن أحد من هؤلاء .

ولهذا تنازع الحافظ أبو العلاء الهمدانى والشيخ أبو الفرج ابن الجوزى : هل فى المسند حديث موضوع ؟ فأنكر الحافظ أبو العلاء أن يكون فى المسند حديث موضوع ، وأثبت ذلك أبو الفرج وبين أن فيه أحاديث قد علم أنها باطلة ، ولا منافاة بين القولين .

فان الموضوع فى اصطلاح أبى الفرج هو الذى قام دليل على أنه باطل وإن كان المحدث به لم يتعمد الكذب بل غلط فيه، ولهذا روى فى كتابه فى الموضوعات أحاديث كثيرة من هذا النوع ، وقد نازعه طائفة من العلماء فى كثير مما ذكره وقالوا إنه ليس مما يقوم دليل على أنه باطل ، بل بينوا ثبوت بعض ذلك ، لكن الغالب على ما ذكره فى الموضوعات أنه باطل باتفاق العلماء .

وأما الحافظ أبو العلاء وأمثاله فانما يريدون بالموضوع المختلق المصنوع الذى تعمد صاحبه الكذب ، والكذب كان قليلا فى السلف .

أما الصحابة فلم يعرف فيهم — ولله الحمد — من تعمد الكذب على النبى صلى الله عليه وسلم ، كما لم يعرف فيهم من كان من أهل البدع المعروفة كبدع الخوارج والرافضة والقدرية والمرجئة ، فلم يعرف فيهم أحد من هؤلاء الفرق .

ولا كان فيهم من قال إنه أتاه الخضر ، فإن خضر موسى مات كما بين هذا فى غير هذا الموضع ، والخضر الذى يأتى كثيرا من الناس إنما هو جنى تصور بصورة إنسى أو إنسى كذاب ، ولا يجوز أن يكون ملكا مع قوله أنا الخضر ، فإن الملك لا يكذب وإنما يكذب الجنى والإنسى . وأنا أعرف ممن أتاه الخضر وكان جنيا مما يطول ذكره فى هذا الموضع . وكان الصحابة أعلم من أن يروج عليهم هذا التلبيس .

وكذلك لم يكن فيهم من حملته الجن إلى مكة وذهبت به الى عرفات ليقف بها كما فعلت ذلك بكثير من الجهال والعباد وغيرهم ، ولا كان فيهم من تسرق الجن أموال الناس وطعامهم وتأتيه به فيظن أن هذا من باب الكرامات كما قد بسط الكلام على ذلك فى مواضع .

وأما التابعون فلم يعرف تعمد الكذب فى التابعين من أهل مكة والمدينة والشام والبصرة ، بخلاف الشيعة فان الكذب معروف فيهم ، وقد عرف الكذب بعد هؤلاء فى طوائف .

وأما الغلط فلا يسلم منه أكثر الناس ، بل فى الصحابة من قد يغلط أحيانا وفيمن بعدهم .

ولهذا كان فيما صنف فى الصحيح أحاديث يعلم أنها غلط وإن كان جمهور متون الصحيحين مما يعلم أنه حق .

فالحافظ أبو العلاء يعلم أنها غلط ، والإمام أحمد نفسه قد بين ذلك و بين أنه رواها لتعرف ، بخلاف ما تعمد صاحبه الكذب ؛ ولهذا نزه أحمد مسنده عن أحاديث جماعة يروى عنهم أهل السنن كأبى داود والترمذى مثل مشيخة كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزنى عن أبيه عن جده ، وان كان أبو داود يروى فى سننه منها ، فشرط أحمد فى مسنده أجود من شرط أبى داود فى سننه .

والمقصود أن هذه الأحاديث التى تروى فى ذلك من جنس أمثالها من الأحاديث الغريبة المنكرة بل الموضوعة التى يرويها من يجمع فى الفضائل والمناقب الغث والسمين ، كما يوجد مثل ذلك فيما يصنف فى فضائل الاوقات ، وفضائل العبادات، وفضائل الأنبياء والصحابة، وفضائل البقاع، ونحوذلك ، فان هذه الأبواب فيها أحاديث صحيحة وأحاديث حسنة وأحاديث ضعيفة وأحاديث كذب موضوعة ؛ ولا يجوز أن يعتمد فى الشريعة على الأحاديث الضعيفة التى ليست صحيحة ولا حسنة ، لكن أحمد بن حنبل وغيره من العلماء جوزوا أن يروى فى فضائل الأعمال ما لم يعلم أنه ثابت إذا لم يعلم أنه كذب .

وذلك أن العمل إذا علم أنه مشروع بدليل شرعى وروى فى فضله حديث لا يعلم أنه كذب جاز أن يكون الثواب حقا ، ولم يقل أحد من الأئمة إنه يجوز أن يجعل الشيء واجبا أو مستحبا بحديث ضعيف ، ومن قال هذا فقد خالف الإجمـــاع .

وهذا كما أنه لا يجوز أن يحرم شيء إلا بدليل شرعى ، لكن إذا علم تحريمه، وروى حديث فى وعيد الفاعل له ، ولم يعلم أنه كذب جاز أن يرويه ، فيجوز أن يروى فى الترغيب والترهيب ما لم يعلم أنه كذب ، لكن فيما علم أن الله رغب فيه أو رهب منه بدليل آخر غير هذا الحديث المجهول حاله .

وهذا كالإسرائيليات : يجوز أن يروى منها ما لم يعلم أنه كذب للترغيب والترهيب فيما علم أن الله تعالى أمر به فى شرعنا ونهى عنه فى شرعنا . فأما أن يثبت شرعا لنا بمجرد الإسرائيليات التى لم تثبت فهذا لا يقوله عالم ، ولا كان أحمد ابن حنبل ولا أمثاله من الأئمة يعتمدون على مثل هذه الاحاديث فى الشريعة .

ومن نقل عن أحمد أنه كان يحتج بالحديث الضعيف الذى ليس بصحيح ولا حسن فقد غلط عليـه ، ولكن كان فى عرف أحمد بن حنبل ومن قبله من العلماء أن الحديث ينقسم إلى نوعين : صحيـح ، وضعيف . والضعيف عندهم ينقسم إلى ضعيف متروك لا يحتج به ، والى ضعيف حسن ؛ كما أن ضعف الإنسان بالمرض ينقسم الى مرض مخوف يمنع التبرع من رأس المـال والى ضعيف خفيف لا يمنع من ذلك .

وأول من عرف أنه قسم الحديث ثلاثة أقسام ـ صحيح ، وحسن ، وضعيف ـ هو أبو عيسى الترمذى فى جامعه . والحسن عنده ماتعددت طرقه ولم يكن فى رواته متهم وليس بشاذ . فهذا الحديث وأمثاله يسميه أحمد ضعيفاً ويحتج به ، ولهذا مثل أحمد الحديث الضعيف الذى يحتج به بحديث عمرو ابن شعيب وحديث إبراهيم الهجرى ونحوهما . وهذا مبسوط فى موضعه .

والاحاديث التى تروى فى هذا الباب ـ وهو السؤال بنفس المخلوقين ـ هى من الاحاديث الضعيفة الواهية بل الموضوعة ، ولا يوجد فى أئمة الإسلام من احتج بها ولا اعتمد عليها ، مثل الحديث الذى يروى عن عبد الملك ابن هارون بن عنترة عن أبيه عن جده أن أبا بكر الصديق أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : انى أتعلم القرآن ويتفلت منى . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: « قل :اللهم إنى أسألك بمحمد نبيك ، وبإبراهيم خليلك ، وبموسى نجيك ، وعيسى روحك وكلمتك ، وبتوراة موسى وإنجيل عيسى وزبور داود وفرقان محمد ، وبكل وحى أوحيته وقضاء قضيته » وذكر تمام الحديث .

وهذا الحديث ذكره رزين بن معاوية العبدرى فى جامعه ونقله ابن الاثير فى جامع الاصول ولم يعزه لا هذا ولا هذا الى كتاب من كتب المسلمين ، لكنه قد رواه من صنف فى عمل (اليوم والليلة) كابن السنى وأبى نعيم ، وفى مثل هذه الكتب أحاديث كثيرة موضوعة لا يجوز الاعتماد عليها فى الشريعة باتفاق العلماء .

وقد رواه أبو الشيخ الاصبهانى فى كتاب فضائل الاعمال ، وفى هذا

الكتاب أحاديث كثيرة كذب موضوعة . ورواه أبو موسى المدينى من حديث زيد بن الحباب عن عبد الملك بن هارون بن عنترة وقال هذا حديث حسن مع أنه ليس بالمتصل ، قال أبو موسى : ورواه محرز بن هشام عن عبد الملك عن أبيه عن جده عن الصديق رضى الله عنه ، وعبد الملك ليس بذاك القوى وكان بالرى ، وأبوه وجده ثقتان .

قلت : عبد الملك بن هارون بن عنترة من المعروفين بالكذب . قال يحي ابن معين : هو كذاب . وقال السعدى : دجال كذاب . وقال أبو حاتم بن حبان : يضع الحديث . وقال النسائى : متروك . وقال البخارى : منكر الحديث . وقال أحمد بن حنبل : ضعيف . وقال ابن عدى : له أحاديث لا يتابعه عليها أحد . وقال الدار قطنى : هو وأبوه ضعيفان. وقال الحاكم فى (كتاب المدخل) : عبدالملك ابن هارون بن عنترة الشيبانى روى عن أبيه أحاديث موضوعة : وأخرجه أبو الفرج بن الجوزى فى كتاب (الموضوعات) وقول الحافظ أبى موسى « هو منقطع » يريد أنه لو كان رجاله ثقات فإن إسناده منقطع .

وقد روى عبد الملك هذه الأحاديث الأخر المناسبة لهذا فى استفتاح أهل الكتاب به كما سيأتى ذكره وخالف فيه عامة مانقله المفسرون وأهل السير وما دل عليه القرآن ، وهذا يدل على ما قاله العلماء فيه : من أنه متروك إما لتعمده الكذب وإما لسوء حفظه ، وتبين أنه لا حجة لا فى هذا ولا فى ذاك .

ومثل ذلك الحديث الذى رواه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه

عن جده عن عمر بن الخطاب مرفوعا وموقوفاً عليه « انه لما اقترف آدم الخطيئة قال : يارب أسألك بحق محمد لما غفرت لى ، قال : وكيف عرفت محمداً ؟ قال : لأنك لما خلقتنى بيــدك ونفخت فىّ من روحك رفعت رأسى فرأيت على قوائم العرش مكتوباً : لا اله الا الله محمد رسول الله ، فعلمت أنك لم تضف الى اسمك إلا أحب الخلق اليك . قال : صدقت يا آدم ، ولو لا محمد ماخلقتك » وهذا الحديث رواه الحاكم فى مستدركه من حديث عبد الله بن مسلم الفهرى عن اسماعيل بن سلمة عنه . قال الحاكم : وهو أول حديث ذكرته لعبد الرحمن فى هذا الكتاب ، وقال الحاكم : هو صحيح .

ورواه الشيخ أبو بكر الآجرى فى كتاب الشريعة موقوفاً على عمر من حديث عبد الله بن اسماعيل بن أبى مريم عن عبد الرحمن بن زيد بن أســلم موقوفاً ، ورواه الآجرى أيضاً من طريق آخر من حديث عبد الرحمن بن أبى الزناد عن أبيه موقوفاً عليه ، وقال حدثنا هارون بن يوسف التاجر ، حدثنا أبو مروان العثمانى ، حدثنى أبو عثمان بن خالد عن عبـد الرحمن بن أبى الزناد عن أبيه أنه قال : « من الكلمات التى تاب الله بها على آدم قال : اللهم انى أسـألك بحق محمد عليك . قال الله تعالى : وما يدريك ما محمد ؟ قال : يارب رفعت رأسى فرأيت مكتوباً على عرشك : لا إله الا الله محمد رسول الله ، فعلمت أنه أكرم خلقك » .

قلت : ورواية الحاكم لهذا الحديث مما أنكر عليه ، فإنه نفسه قد قال فى (كتاب المدخل الى معرفة الصحيح من السقيم) : عبد الرحمن بن زيد بن أسلم

روى عن أبيه أحاديث موضوعة لاتخفى على من تأملها من أهل الصنعة أن الحمل فيها عليه .

قلت : وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ضعيف باتفاقهم يغلط كثيراً ، ضعفه أحمد بن حنبل وأبو زرعة وأبو حاتم والنسائى والدا قطنى وغيرهم ، وقال أبو حاتم بن حبان : كان يقلب الأخبار وهو لايعلم ، حتى كثر ذلك من روايته من رفع المراسيل واسناد الموقوف فاستحق الترك .

وأما تصحيح الحا كم لمثل هذا الحديث وأمثاله فهذا مما أنكره عليه أئمة العلم بالحديث وقالوا : ان الحا كم يصحح أحاديث وهى موضوعة مكذوبة عند أهل المعرفة بالحديث ، كما صحح حديث زريب بن بر ثملى : الذى فيه ذكر وصى المسيح وهو كذب باتفاق أهل المعرفة كما بين ذلك البيهقى وابن الجوزى وغيرهما ، وكذلك أحاديث كثيرة فى مستدركه يصححها وهى عند أئمة أهل العلم بالحديث موضوعة ، ومنها ما يكون موقوفا يرفعه .

ولهذا كان أهل العلم بالحديث لا يعتمدون على مجرد تصحيح الحاكم وإن كان غالب ما يصححه فهو صحيح ، لكن هو فى المصححين بمنزلة الثقة الذى يكثر غلطه وإن كان الصواب أغلب عليه . وليس فيمن يصحح الحديث أضعف من تصحيحه ، بخلاف أبى حاتم بن حبان البستى فان تصحيحه فوق تصحيح الحاكم وأجل قدرا ، وكذلك تصحيح الترمذى والدار قطنى وابن خزيمة وابن منده وأمثالهم فيمن يصحح الحديث .

فان هؤلاء وإن كان فى بعض ما ينقلونه نزاع فهم أتقن فى هذا الباب من الحاكم ، ولا يبلغ تصحيح الواحد من هؤلاء مبلغ تصحيح مسلم ، ولا يبلغ تصحيح مسلم مبلغ تصحيح البخارى ، بل كتاب البخارى أجل ما صنف فى هذا الباب ، والبخارى من أعرف خلق الله بالحديث وعلله مع فقهه فيه ، وقد ذكر الترمذى أنه لم ير أحدا أعلم بالعلل منه ، ولهذا كان من عادة البخارى إذا روى حديثا اختلف فى إسناده أو فى بعض ألفاظه أن يذكر الاختلاف فى ذلك لئلا يغتر بذكره له بأنه إنما ذكره مقرونا بالاختلاف فيه .

ولهذا كان جمهور ما أنكر على البخارى مما صححه يكون قوله فيه راجحا على قول من نازعه . بخلاف مسلم بن الحجاج فانه نوزع فى عدة أحاديث مما خرجها وكان الصواب فيها مع من نازعه ، كما روى فى حديث الكسوف أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى بثلاث ركوعات وبأربع ركوعات كما روى أنه صلى بركوعين .

والصواب أنه لم يصل إلا بركوعين ، وأنه لم يصل الكسوف إلا مرة واحدة يوم مات ابراهيم ، وقد بين ذلك الشافعى ، وهو قول البخارى وأحمد ابن حنبل فى احدى الروايتين عنه ، والأحاديث التى فيها الثلاث والأربع فيها أنه صلاها يوم مات ابراهيم . ومعلوم أنه لم يمت فى يومى كسوف ، ولا كان له ابراهيمان . ومن نقل أنه مات عاشر الشهر فقد كذب ،وكذلك روى مسلم « خلق الله التربة يوم السبت » ونازعه فيه من هو أعلم منه كيحي ابن معين والبخارى وغيرهما فبينوا أن هذا غلط ليس هذا من كلام النبي صلى الله عليه وسلم .

والحجة مع هؤلاء، فإنه قد ثبت بالكتاب والسنة والإجماع أن الله تعالى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وأن آخر ما خلقه هو آدم وكان خلقه يوم الجمعة ، وهذا الحديث المختلف فيه يقتضى أنه خلق ذلك فى الأيام السبعة ، وقد روى اسناد أصح من هذا أن أول الخلق كان يوم الأحد ، وكذلك روى أن أبا سفيان لما أسلم طلب من النبي صلى الله عليه وسلم أن يتزوج بأم حبيبة وأن يتخذ معاوية كاتباً . وغلطه فى ذلك طائفة من الحفاظ .

ولكن جمهور متون الصحيحين متفق عليها بين أئمة الحديث تلقوها بالقبول وأجمعوا عليها وهم يعلمون علماً قطعياً أن النبي صلى الله عليه وسلم قالها . وبسط الكلام فى هذا له موضع آخر .

وهذا الحديث المذكور فى آدم يذكره طائفة من المصنفين بغير اسناد وما هو من جنسه مع زيادات أخر ، كما ذكر القاضى عياض قال : وحكى أبو محمد المكى وأبو الليث السمرقندى وغيرهما « أن آدم عند معصيته قال : اللهم بحق محمد اغفر لى خطيئتى — قال ويروى تقبل توبتى — فقال الله له : من أين عرفت محمداً؟ قال رأيت فى كل موضع من الجنة مكتوباً : لا اله الا الله محمد رسول الله» قال ويروى: «محمد عبدى ورسولى ، فعلمت أنه أكرم خلقك عليك ، فتاب عليه وغفر له » .

ومثل هذا لا يجوز أن تبنى عليه الشريعة ولا يحتج به فى الدين باتفاق المسلمين ، فإن هذا من جنس الإسرائيليات ونحوها التى لا تعلم صحتها الا بنقل

ثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وهذه لو نقلها مثل كعب الأحبار ووهب ابن منبه وأمثالهما ممن ينقل أخبار (المبتدأ ، وقصص المتقدمين) عن أهل الكتاب لم يجزأن يحتج بها فى دين المسلمين باتفاق المسلمين ، فكيف إذا نقلها من لا ينقلها لا عن أهل الكتاب ولا عن ثقات علماء المسلمين ؟ بل انما ينقلها عمن هو عند المسلمين مجروح ضعيف لا يحتج بحديثه ، واضطرب عليه فيها اضطراباً يعرف به أنه لم يحفظ ذلك .

ولا ينقل ذلك ولا ما يشبهه أحد من ثقات علماء المسلمين الذين يعتمد على نقلهم ، وانما هى من جنس ماينقله اسحاق بن بشر وأمثاله فى(كتب المبتدأ)، وهذه لو كانت ثابتة عن الأنبياء لكانت شرعا لهم ، وحينئذ فكان الاحتجاج بها مبنياً على أن شرع من قبلنا هل هو شرع لنا أم لا ؟ والنزاع فى ذلك مشهور . لكن الذى عليه الأئمة وأكثر العلماء أنه شرع لنا مالم يرد شرعنا بخلافه ، وهذا انما هو فيما ثبت أنه شرع لمن قبلنا من نقل ثابت عن نبينا صلى الله عليه وسلم ، أو بما تواتر عنهم لا بما يروى على هذا الوجه فإن هذا لا يجوز أن يحتج به فى شرع المسلمين أحد من المسلمين .

ومن هذا الباب حديث ذكره موسى بن عبد الرحمن الصنعانى صاحب التفسير بإسناده عن ابن عباس مرفوعا أنه قال : « من سره أن يوعيه الله حفظ القرآن وحفظ أصناف العلم فليكتب هذا الدعاء فى اناء نظيف أو فى صحف قوارير بعسل وزعفران وماء مطر وليشربه على الريق، وليصم ثلاثة أيام وليكن افطاره عليه، ويدعو به فى ادبار صلواته : اللهم انى أسألك بأنك مسئول لم يسأل

مثلك ولا يسأل ، وأسألك بحق محمد نبيك وابراهيم خليلك وموسى نجيك وعيسى روحك وكلمتك ووجهك » وذكر تمام الدعاء .

وموسى بن عبد الرحمن هذا من الكذابين ، قال أبو أحمد بن عدى فيه : منكر الحديث . وقال أبو حاتم بن حبان : دجال يضع الحديث ، وضع على ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس كتاباً فى التفسير جمعه من كلام الكلبي ومقاتل ، ويروى نحو هذا — دون الصوم — عن ابن مسعود من طريق موسى بن ابراهيم المروزى حدثنا وكيع عن عبيدة عن شقيق عن ابن مسعود وموسى بن ابراهيم هذا قال فيه يحي بن معين : كذاب ، وقال الدار قطنى : متروك ، وقال ابن حبان : كان مغفلا يلقن فيتلقن فاستحق الترك . ويروى هذا عن عمر ابن عبد العزيز عن مجاهد بن جبر عن ابن مسعود بطريق أضعف من الاول .

ورواه أبو الشيخ الاصبهانى من حديث أحمد بن إسحاق الجوهرى : حدثنا أبو الأشعث ، حدثنا زهير بن العلاء العتبي حدثنا يوسف بن يزيد عن الزهرى ورفع الحديث قال « من سره أن يحفظ فليصم سبعة أيام وليكن إفطاره فى آخر الأيام السبعة على هؤلاء الكلمات » . قلت : وهذه أسانيد مظلمة لا يثبت بها شيء .

وقد رواه أبو موسى المدينى فى أماليه وأبو عبد الله المقدسى على عادة أمثالهم فى رواية ما يروى فى الباب سواء كان صحيحاً أو ضعيفاً كما اعتاده أكثر المتأخرين من المحدثين أنهم يروون ما روى به الفضائل ويجعلون العهدة

فى ذلك على الناقل كما هى عادة المصنفين فى فضائل الأوقات والأمكنة والأشخاص والعبادات .

كما يرويه أبو الشيخ الأصبهانى فى فضائل الأعمال وغيره حيث يجمع أحاديث كثيرة لكثرة روايته ، وفيها أحاديث كثيرة قوية صحيحة وحسنة ، وأحاديث كثيرة ضعيفة موضوعة وواهية .

وكذلك ما يرويه خيثمة بن سليمان فى فضائل الصحابة ، وما يرويه أبو نعيم الأصبهانى فى (فضائل الخلفاء) فى كتاب مفرد وفى أول (حلية الأولياء) ، وما يرويه أبو الليث السمرقندى وعبد العزيز الكنانى ، وأبو على بن البناء وأمثالهم من الشيوخ ، وما يرويه أبو بكر الخطيب ، وأبو الفضل بن ناصر ، وأبو موسى المدينى ، وأبو القاسم بن عساكر ، والحافظ عبد الغنى ، وأمثالهم ممن لهم معرفة بالحديث ؛ فانهم كثيراً ما يروون فى تصانيفهم ما روى مطلقاً على عادتهم الجارية ؛ ليعرف ما روى فى ذلك الباب لا ليحتج بكل ما روى ، وقد يتكلم أحدهم على الحديث ويقول : غريب ، ومنكر ، وضعيف ؛ وقد لا يتكلم .

وهذا بخلاف أئمة الحديث الذين يحتجون به ، ويبنون عليه دينهم ؛ مثل مالك بن أنس ، وشعبة بن الحجاج ، ويحيى بن سعيد القطان ، وعبد الرحمن بن مهدى ، وسفيان بن عيينة ، وعبد الله بن المبارك ، ووكيع بن الجراح ، والشافعى وأحمد بن حنبل ، واسحاق بن راهويه ، وعلى بن المدينى ، والبخارى ، وأبى زرعة وأبى حاتم ، وأبى داود ، ومحمد بن نصر المروزى ، وابن خزيمة وابن المنذر ، وداود بن على ، ومحمد بن جرير الطبرى ، وغير هؤلاء ؛ فإن هؤلاء الذين

يبنون الأحكام على الأحاديث يحتاجون أن يجتهدوا فى معرفة صحيحها وضعيفها وتمييز رجالها .

وكذلك الذين تكلموا فى الحديث والرجال ؛ ليميزوا بين هذا وهذا لأجل معرفة الحديث ؛ كما يفعل أبو أحمد بن عدى ، وأبو حاتم البستى ، وأبو الحسن الدار قطنى ، وأبو بكر الإسماعيلى وكما قد يفعل ذلك أبو بكر البيهق ، وأبو إسماعيل الانصارى ، وأبو القاسم الزنجانى ، وأبو عمر بن عبد البر ، وأبو محمد ابن حزم ، وأمثال هؤلاء ؛ فإن بسط هذه الامور له موضع آخر . ولم نذكر من لا يروى بإسناد ـ مثل كتاب (وسيلة المتعبدين) لعمر الملا الموصلى وكتاب (الفردوس) لشهريار الديلمى ، وأمثال ذلك ـ فان هؤلاء دون هؤلاء الطبقات ؛ وفيما يذكرونه من الاكاذيب أمر كبير .

والمقصود هنا : أنه ليس فى هذا الباب حديث واحد مرفوع إلى النبى صلى الله عليه وسلم يعتمد عليه فى مسألة شرعية باتفاق أهل المعرفة بحديثه ؛ بل المروى فى ذلك إنما يعرف أهل المعرفة بالحديث أنه من الموضوعات إما تعمداً من واضعه وإما غلطاً منه .

وفى الباب آثار عن السلف أكثرها ضعيفة .

فنها حديث الاربعة الذين اجتمعوا عند الكعبة وسألوا ؛ وهم عبد الله ومصعب ابنا الزبير وعبد الله بن عمر وعبد الملك بن مروان ، وذكره ابن أبى الدنيا فى كتاب (مجابى الدعاء) ورواه من طريق إسماعيل بن أبان الغنوى

عن سفيان الثورى عن طارق بن عبد العزيز عن الشعبى أنه قال : « لقد رأيت عجباً ! كنا بفناء الكعبة أنا وعبدالله بن عمر وعبد الله بن الزبير ومصعب بن الزبير وعبد الملك بن مروان ؛ فقال القوم بعد أن فرغوا من حديثهم : ليقم كل رجل منكم فليأخذ بالركن اليمانى ، وليسأل الله حاجته فإنه يعطى من سعة . ثم قالوا : قم ياعبد الله بن الزبير فإنك أول مولود فى الإسلام بعد الهجرة ، فقام فأخذ بالركن اليمانى ثم قال : اللهم إنك عظيم ترجى لكل عظيم ؛ أسألك بحرمة وجهك وحرمة عرشك وحرمة نبيك أن لا تميتنى من الدنيا حتى توليني الحجاز ، ويسلم على بالخلافة ؛ ثم جاء فجلس .

ثم قام مصعب فأخذ بالركن اليمانى ثم قال : اللهم إنك رب كل شىء ، واليك يصير كل شىء ، أسألك بقدرتك على كل شىء ، ألا تميتنى من الدنيا حتى توليني العراق ، وتزوجنى بسكينة بنت الحسين .

ثم قام عبد الملك بن مروان فأخذ بالركن اليمانى ثم قال : اللهم رب السموات السبع ، ورب الأرض ذات النبت بعد القفر ، أسألك بما سألك به عبادك المطيعون لأمرك ، وأسألك بحقك على خلقك وبحق الطائفين حول عرشك » إلى آخره.

قلت : واسماعيل بن أبان الذى روى هذا عن سفيان الثورى كذاب ، قال أحمد بن حنبل : كتبت عنه ، ثم حدث بأحاديث موضوعة فتركناه . وقال يحيى ابن معين : وضع حديثا على السابع من ولد العباس يلبس الخضرة يعنى المأمون

وقال البخارى ومسلم وأبو زرعة والدر قطنى : متروك . وقال الجوزجانى : ظهر منه على الكذب . وقال أبو حاتم : كذاب . وقال ابن حبان : يضع على الثقات . وطارق بن عبدالعزيز الذى ذكر أن الثورى روى عنه لا يعرف من هو . قال : فان طارق بن عبد العزيز المعروف الذى روى عنه ابن عجلان ليس من هذه الطبقة .

وقد خولف فيها فرواها أبو نعيم عن الطبرانى : حدثنا أحمد بن زيد بن الجريش ، حدثنا أبو حاتم السجستانى ، حدثنا الأصمعى قال : حدثنا عبد الرحمن ابن أبى الزناد عن أبيه قال : « اجتمع فى الحجر مصعب وعروة وعبد الله أبناء الزبير وعبد الله بن عمر فقالوا : تمنوا . فقال عبد الله بن الزبير : اما أنا فأتمنى الخلافة ، وقال عروة : أما أنا فأتمنى أن يؤخذ عنى العلم ، وقال مصعب : أما أنا فأتمنى إمرة العراق ، والجمع بين عائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين ، وقال عبد الله بن عمر : أما أنا فأتمنى المغفرة . قال : فنال كلهم ما تمنوا ، ولعل ابن عمر قد غفر له » .

قلت : وهذا إسناد خير من ذاك الإسناد باتفاق أهل العلم ، وليس فيه سؤال بالمخلوقات .

وفى الباب حكايات عن بعض الناس أنه رأى مناما قيل له فيه : ادع بكذا وكذا ، ومثل هذا لا يجوز أن يكون دليلا باتفاق العلماء ، وقد ذكر بعض هذه الحكايات من جمع الأدعية ، وروى فى ذلك أثر عن بعض السلف مثل ما رواه

ابن أبي الدنيا فى كتاب (مجابى الدعاء) ، قال: حدثنا أبو هاشم، سمعت كثير بن محمد ابن كثير بن رفاعة يقول : جاء رجل إلى عبد الملك بن سعيد بن أبجر فجس بطنه فقال : بك داء لا يبرأ . قال : ما هو ؟ قال : الدبيلة . قال فتحول الرجل فقال : الله ، الله ، الله ربى لا أشرك به شيئا ، اللهم إنى أتوجه اليك بنبيك محمد نبي الرحمة صلى الله عليه وسلم تسليما ، يا محمد إنى أتوجه بك الى ربك وربى يرحمنى مما بى . قال فجس بطنه فقال : قد برئت ، ما بك علة .

قلت : فهذا الدعاء ونحوه قد روى أنه دعا به السلف ، ونقل عن أحمد بن حنبل فى منسك المروذى التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم فى الدعاء ، ونها عنه آخرون . فان كان مقصود المتوسلين التوسل بالإيمان به وبمحبته وبموالاته وبطاعته فلا نزاع بين الطائفتين ، وإن كان مقصودهم التوسل بذاته فهو محل النزاع ، وما تنازعوا فيه يرد إلى الله والرسول .

وليس مجرد كون الدعاء حصل به المقصود ما يدل على أنه سائغ فى الشريعة ، فان كثيرا من الناس يدعون من دون الله من الكواكب والمخلوقين ويحصل ما يحصل من غرضهم ، وبعض الناس يقصدون الدعاء عند الأوثان والكنائس وغير ذلك ، ويدعو التماثيل التى فى الكنائس ويحصل ما يحصل من غرضه ، وبعض الناس يدعو بأدعية محرمة باتفاق المسلمين ويحصل ما يحصل من غرضهم .

فحصول الغرض ببعض الأمور لا يستلزم إباحته ، وإن كان الغرض مباحا

فان ذلك الفعل قد يكون فيه مفسدة راجحة على مصلحته ، والشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفاسد وتقليلها ، وإلا فجميع المحرمات من الشرك والخمر والميسر والفواحش والظلم قد يحصل لصاحبه به منافع ومقاصد ، لكن لما كانت مفاسدها راجحة على مصالحها نهى الله ورسوله عنها كما أن كثيرا من الأمور كالعبادات والجهاد وإنفاق الأموال قد تكون مضرة ، لكن لما كانت مصلحته راجحة على مفسدته أمر به الشارع .

فهذا أصل يجب اعتباره ، ولا يجوز أن يكون الشيء واجبا أو مستحبا إلا بدليل شرعي يقتضي ايجابه أو استحبابه . والعبادات لا تكون الا واجبة أو مستحبة ، فما ليس بواجب ولا مستحب فليس بعبادة . والدعاء لله تعالى عبادة ان كان المطلوب به أمرا مباحا .

وفى الجملة فقد نقل عن بعض السلف والعلماء السؤال به ، بخلاف دعاء الموتى والغائبين من الأنبياء والملائكة والصالحين والاستغاثة بهم والشكوى اليهم ، فهذا مما لم يفعله أحد من السلف من الصحابة والتابعين لهم باحسان ، ولا رخص فيه أحد من أئمة المسلمين .

وحديث الأعمى الذى رواه الترمذى والنسائى هو من القسم الثانى من التوسل بدعائه ، فان الأعمى قد طلب من النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعو له بأن يرد الله عليه بصره . فقال له « ان شئت صبرت وان شئت دعوت لك » فقال . بل ادعه ، فأمره أن يتوضأ ويصلى ركعتين ويقول : « اللهم انى أسألك

بنبيك نبي الرحمة ، يا محمد يا رسول الله ، انى أتوجه بك الى ربى فى حاجتى هذه ليقضيها ، اللهم فشفعه فى » فهذا توسل بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم وشفاعته ، ودعا له النبي صلى الله عليه وسلم ، ولهذا قال : « وشفعه فى » فسأل الله أن يقبل شفاعة رسوله فيه وهو دعاؤه .

وهذا الحديث ذكره العلماء فى معجزات النبي صلى الله عليه وسلم ودعائه المستجاب ، وما أظهر الله ببركة دعائه من الخوارق والإبراء من العاهات ، فانه صلى الله عليه وسلم ببركة دعائه لهذا الأعمى أعاد الله عليه بصره .

وهذا الحديث — حديث الأعمى — قد رواه المصنفون فى دلائل النبوة كالبيهقى وغيره: رواه البيهقى من حديث عثمان بن عمر عن شعبة عن أبى جعفر الخطمى ، قال : سمعت عمارة بن خزيمة بن ثابت يحدث عن عثمان بن حنيف أن رجلا ضريرا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ادع الله أن يعافينى ، فقال له « إن شئت أخرت ذلك فهو خير لك ، وإن شئت دعوت » قال فادعه « فأمره أن يتوضأ فيحسن الوضوء ويصلى ركعتين ويدعو بهذا الدعاء : اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبى الرحمة ، يا محمد انى أتوجه بك الى ربى فى حاجتى هذه فيقضيها لى ، اللهم فشفعه فى وشفعنى فيه » قال فقام وقد أبصر ، ومن هذا الطريق رواه الترمذى من حديث عثمان بن عمر .

ومنهاما رواه النسائى وابن ماجه أيضا وقال الترمذى هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه الا من هذا الوجه من حديث أبى جعفر وهو غير الخطمى ، هكذا وقع فى الترمذى، وسائر العلماء قالوا هو أبو جعفر الخطمى وهو الصواب ،

وأيضا فالترمذى ومن معه لم يستوعبوا لفظه كما استوعبه سائر العلماء بل رووه الى قوله « اللهم شفعه فى » .

قال الترمذى : حدثنا محمود بن غيلان ، حدثنا عثمان بن عمر ، حدثنا شعبة عن أبى جعفر عن عمارة بن خزيمة بن ثابت عن عثمان بن حنيف أن رجلا ضرير البصر أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ادع الله أن يعافينى قال « ان شئت صبرت فهو خير لك » قال فادعه ، قال «فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء : اللهم انى أسألك وأتوجه اليك بنبيك محمد نبي الرحمة ، يا محمد انى توجهت بك الى ربى فى حاجتى هذه لتقضى ، اللهم شفعه فى» . قال البيهقى : رويناه فى (كتاب الدعوات) بإسناد صحيح عن روح بن عبادة عن شعبة، قال : ففعل الرجل فبرأ ، قال : وكذلك رواه حماد بن سلمة عن أبى جعفر الخطمى .

قلت : ورواه الإمام أحمد فى مسنده عن روح بن عبادة كما ذكره البيهقى ، قال أحمد : حدثنا روح بن عبادة حدثنا شعبة عن أبى جعفر المدينى : سمعت عمارة بن خزيمة بن ثابت يحدث عن عثمان بن حنيف أن رجلا ضريرا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا نبي الله ادع الله أن يعافينى ، قال « ان شئت أخرت ذلك فهو خير لآخرتك ، وان شئت دعوت لك » قال : لا بل ادع الله لى «فأمره أن يتوضأ وأن يصلى ركعتين وأن يدعو بهذا الدعاء : اللهم انى أسألك وأتوجه اليك بنبيك محمد نبي الرحمة ، يا محمد انى أتوجه بك الى الله فى حاجتى هذه ، فتقضى لى وتشفعنى فيه وتشفعه فى » قال ففعل الرجل فبرىء .

رواه البيهقي أيضاً من حديث شيب بن سعيد الحبطي عن روح ابن القاسم عن أبي جعفر المديني - وهو الخطمي - عن أبي أمامة سهل بن حنيف عن عثمان ابن حنيف قال : سمعت رسـول الله صلى الله عليه وسلم وجاءه رجل ضرير يشتكي إليـه ذهاب بصره فقال يا رسول الله ليس : لي قائد وقد شق علي ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ائت الميضأة فتوضأ ثم صـل ركعتين ثم قل : اللهم إني أسـألك وأتوجه اليك بنبيك نبي الرحمة ، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي فيجلي عن بصري ، اللهم فشفعه فيَّ وشفعني في نفسي » قال عثمان ابن حنيف : والله ما تفرقنا ولا طال الحديث بنا حتى دخل الرجل كأنه لم يكن به ضر قط .

فرواية شيب عن روح عن أبي جعفر الخطمي خالفت رواية شعبة وحماد ابن سلمة في الإسناد والمتن ؛ فإن في تلك أنه رواه أبو جعفر عن عمارة بن خزيمة وفي هذه أنه رواه عن أبي أمامة سهل ، وفي تلك الرواية أنه قال : فشـفعه فيَّ وشفعني فيه ، وفي هذه وشفعني في نفسي . لـكن هذا الإسناد له شاهد آخر من رواية هشام الدستوائي عن أبي جعفر .

ورواه البيهقي من هـذا الطريق وفيه قصة قد يحتج بها من توسل به بعد موته — إن كانت صحيحة — رواه من حديث اسماعيل بن شيب بن سـعيد الحبطي عن شيب بن سعيد عن روح بن القاسم عن أبي جعفر المديني عن أبي أمامة سهل بن حنيف أن رجلا كان يختلف الى عثمان بن عفان في حاجة له وكان عثمان لا يلتفت إليـه ولا ينظر في حاجته ، فلقي الرجل عثمان بن حنيف

فشكا إليه ذلك فقال له عثمان بن حنيف : ائت الميضأة فتوضأ ثم ائت المسجد فصل ركعتين ثم قل : اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبينا محمد نبي الرحمة ، يا محمد إنى أتوجه بك الى ربى فيقضى لى حاجتى ، ثم اذكر حاجتك ثم رح حتى أروح معك . قال فانطلق الرجل فصنع ذلك ، ثم أتى بعد عثمان بن عفان فجاء البواب فأخذ بيـــده فأدخله على عثمان فأجلسه معه على الطنفسة وقال : انظر ما كانت لك من حاجة . فذكر حاجته فقضاها له .

ثم إن الرجل خرج من عنده فلقى عثمان بن حنيف فقال له : جزاك الله خيراً ما كان ينظر فى حاجتى ولا يلتفت إلى حتى كلمته فى : فقال عثمان ابن حنيف : ما كلمته ولكن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : وجاءه ضرير فشكا إليه ذهاب بصره فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « أو تصبر ؟ » فقال له : يا رسول الله ليس لى قائد وقد شق علىَّ ، فقال « ائت الميضأة فتوضأ وصل ركعتين ثم قل : اللهم انى أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة ، يا محمد انى أتوجه الى ربى فيجلى لى عن بصرى ، اللهم فشفعه فى وشفعنى فى نفسى» قال عثمان بن حنيف فوالله ماتفرقنا وما طال بنا الحديث حتى دخل علينا الرجل كأنه لم يكن به ضر قط .

قال البيهقى : ورواه أحمد بن شبيب بن سعيد عن أبيه بطوله وساقه من رواية يعقوب بن سفيان عن أحمد بن شبيب بن سعيد . قال : ورواه أيضاً هشام الدستوائى عن أبى جعفر عن أبى أمامة بن سهل عن عمه ـ وهو عثمان ابن حنيف ـ ولم يذكر إسناد هذه الطرق .

قلت : وقد رواه النسائى فى كتاب (عمل اليوم والليلة) من هذه الطريق من حديث معاذ بن هشام عن أبيه عن أبى جعفر عن أبى أمامة بن سهل بن حنيف عن عمه عثمان بن حنيف . ورواه أيضاً من حديث شعبة وحماد بن سلمة كلاهما عن أبى جعفر عن عمارة بن خزيمة ، ولم يروه أحد من هؤلاء — لا الترمذى ولا النسائى ولا ابن ماجه — من تلك الطريق الغريبة التى فيها الزيادة : طريق شبيب بن سعيد عن روح بن القاسم .

لكن رواه الحاكم فى مستدركه من الطريقين فرواه من حديث عثمان بن عمر : حدثنا شعبة عن أبى جعفر المدنى سمعت عمارة بن خزيمة يحدث عن عثمان ابن حنيف أن رجلا ضريرا أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : ادع الله أن يعافينى فقال : « إن شئت أخرت ذلك فهو خير لك ، وإن شئت دعوت » قال : فادعه . فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويصلى ركعتين ويدعو بهذا الدعاء : « اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبى الرحمة ، يا محمد إنى توجهت بك إلى ربى فى حاجتى هذه ، اللهم فشفعه فى وشفعنى فيه » قال الحاكم على شرطهما .

ثم رواه من طريق شبيب بن سعيد الحبطى وعون بن عمارة عن روح ابن القاسم عن أبى جعفر الخطمى المدنى عن أبى أمامة بن سهل بن حنيف عن عمه عثمان بن حنيف أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم وجاءه ضرير فشكا إليه ذهاب بصره وقال : يا رسول الله ليس لى قائد وقد شق على ، فقال : « ائت الميضأة فتوضأ ثم صل ركعتين ثم قل : اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك

محمد نبي الرحمة ، يا محمد إنى أتوجه بك الى ربى فيجلى لى عن بصرى ، اللهم فشفعه فىّ وشفعنى فى نفسى » قال عثمان فوالله ! تفرقنا ولا طال بنا الحديث حتى دخل الرجل وكأن لم يكن به ضر قط . قال الحاكم : على شرط البخارى .

وشبيب هذا صدوق روى له البخارى ، ولكنه قد روى له عن روح بن الفرج أحاديث مناكير رواها ابن وهب، وقد ظن أنه غلط عليه. ولكن قد يقال مثل هذا إذا انفرد عن الثقات الذين هم أحفظ منه مثل شعبة وحماد بن سلمة وهشام الدستوائى بزيادة كان ذلك عليه فى الحديث ، لا سيما وفى هذه الرواية أنه قال « فشفعه فى وشفنى فى نفسى » وأولئك قالوا « فشفعه فى وشفعنى فيه » ومعنى قوله « وشفعنى فيه » أى فى دعائه وسؤاله لى فيطابق قوله « وشفعه فى » .

قال أبو احمد بن عدى فى كتابه المسمى (بالكامل فى أسماء الرجال) ـ ولم يصنف فى فنه مثله ـ : شبيب بن سعيد الحبطى أبو سعيد البصرى التميمى حدث عنه ابن وهب بالمناكير ، وحـــدث عن يونس عن الزهرى بنسخة الزهرى أحاديث مستقيمة ، وذكر عن على بن المدينى أنه قال : هو بصرى ثقة كان من أصحاب يونس ، كان يختلف فى تجارة الى مصر وجاء بكتاب صحيح ، قال : وقد كتبها عنه ابنه احمد ابن شبيب . وروى عن عدى حديثين عن ابن وهب عن شبيب هذا عن روح بن الفرج :

أحدهما : عن ابن عقيل عن سابق بن ناجية عن ابن سلام قال : مر بنا رجل فقالوا إن هذا قد خدم النبى صلى الله عليه وسلم .

والثانى عنه عن روح بن الفرج عن عبد الله بن الحسين عن أمه فاطمة حديث دخول المسجد ، قال ابن عدى : كذا قيل فى الحديث عن عبد الله بن الحسين عن أمه فاطمة بنت الحسين عن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال ابن عدى . ولشيب بن سعيد نسخة الزهرى عنده عن يونس عن الزهرى وهى أحاديث مستقيمة . وحدث عنه ابن وهب بأحاديث مناكير .

وحدثنى روح بن الفرج اللذين أمليتهما يرويهما ابن وهب عن شبيب ، وكان شبيب بن سعيد إذا روى عنه ابنه أحمد ابن شبيب نسخة الزهرى : ليس هو شبيب بن سعيد الذى يحدث عنه ابن وهب بالمناكير التى يرويها عنه ، ولعل شبيبا بمصر فى تجارته اليها كتب عنه ابن وهب من حفظه فيغلط ويهم ، وأرجو أن لا يتعمد شيب هذا الكذب .

قلت : هذان الحديثان اللذان أنكرهما ابن عدى عليه : رواهما عن روح ابن القاسم وكذلك هذا الحديث حديث الأعمى رواه عن روح بن القاسم . وهذا الحديث مما رواه عنه ابن وهب أيضاً كما رواه عنه ابناه ، لكنه لم يتقن لفظه كما أتقنه ابناه .

وهذا يصحح ما ذكره ابن عدى فعلم أنه محفوظ عنه ، وابن عدى أحال الغلط عليه لا على ابن وهب ، وهذا صحيح إن كان قد غلط ، وإذا كان قد غلط على روح بن القاسم فى ذينك الحديثين أمكن أن يكون غلط عايه فى هذا الحديث ، وروح بن القاسم ثقة مشهور روى له الجماعة فلهذا لم يحيارا الغلط عايه .

والرجل قد يكون حافظا لما يرويه عن شيخ ؛ غير حافظ لما يرويه عن آخر : مثل إسماعيل بن عياش فيما يرويه عن الحجازيين ، فإنه يغلط فيه ، بخلاف ما يرويه عن الشاميين . ومثل سفيان بن حسين فيما يرويه عن الزهرى . ومثل هذا كثير ، فيحتمل أن يكون هذا يغلط فيما يرويه عن روح بن القاسم — إن كان الأمر كما قاله ابن عدى — وهذا محل نظر .

وقد روى الطبرانى هذا الحديث فى المعجم من حديث ابن وهب عن شبيب بن سعيد : ورواه من حديث أصبغ بن الفرج : حدثنا عبد الله بن وهب عن شبيب بن سعيد المكى عن روح بن القاسم عن أبى جعفر الخطمى المدنى عن أبى أمامة بن سهل بن حنيف عن عمه عثمان بن حنيف أن رجلا كان يختلف إلى عثمان بن عفان فى حاجة له، فلقى عثمان بن حنيف فشكا اليه ذلك، فقال له عثمان ابن حنيف : ائت الميضأة فتوضأ ثم ائت المسجد فصل فيه ركعتين ثم قل : اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم نبى الرحمة ، يا محمد إنى أتوجه بك الى ربك عز وجل فيقضى لى حاجتى ! وتذكر حاجتك ، ورح حتى أروح معك ، فانطلق الرجل فصنع ما قال له ، ثم أتى باب عثمان بن عفان فأجلسه معه على الطنفسة ، وقال : حاجتك ، فذكر حاجته فقضاها له ، ثم قال له : ما ذكرت حاجتك حتى كانت هذه الساعة ، وقال : ما كانت لك من حاجة فائتنا .

ثم إن الرجل خرج من عنده فلقى عثمان بن حنيف فقال له جزاك الله خيرا ما كان ينظر فى حاجتى ولا يلتفت الى حتى كلمته فى . فقال له عثمان بن حنيف :

والله ما كلمته ، ولكن شهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتاه ضرير فشكا اليه ذهاب بصره فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : أفتصبر ؟ فقال : يا رسول الله انه ليس لى قائد وقد شق على ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « ائت الميضأة فتوضأ ثم صل ركعتين ثم ادع بهذه الدعوات » فقال عثمان بن حنيف : فوالله ما تفرقنا ولا طال بنا الحديث حتى دخل علينا الرجل كأنه لم يكن به ضر قط .

قال الطبرانى روى هذا الحديث شعبة عن أبى جعفر واسمه عمر بن يزيد وهو ثقة تفرد به عثمان بن عمر عن شعبة ، قال أبو عبد الله المقدسى : والحديث صحيح .

قلت والطبرانى ذكر تفرده بمبلغ علمه ولم تبلغه رواية روح بن عبادة عن شعبة وذلك اسناد صحيح : يبين أنه لم ينفرد به عثمان بن عمر ، وطريق ابن وهب هذه تؤيد ما ذكره ابن عدى ، فانه لم يحرر لفظ الرواية كما حررها ابناه ؛ بل ذكر فيها أن الأعمى دعا بمثل ما ذكره عثمان بن حنيف ، وليس كذلك بل فى حديث الأعمى أنه قال « اللهم فشفعه فى وشفعنى فيه ـ أو قال ـ فى نفسى » .

وهذه لم يذكرها ابن وهب فى روايته ، فيشبه أن يكون حدث ابن وهب من حفظه كما قال ابن عدى فلم يتقن الرواية . وقد روى أبو بكر ابن أبى خيثمة فى تاريخه حديث حماد بن سلمة فقال : حدثنا مسلم بن ابراهيم حدثنا حماد بن سلمة ، أنا أبو جعفر الخطمى عن عمارة بن خزيمة عن عثمان بن حنيف أن

رجلا أعمى أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إنى أصبت فى بصرى فادع الله لى قال «اذهب فتوضأ وصل ركعتين ثم قل : اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبي محمد نبي الرحمة . يامحمد أستشفع بك على ربى فى رد بصرى، اللهم فشفعنى فى نفسى وشفع نبيى فى رد بصرى، وان كانت حاجة فافعل مثل ذلك» فرد الله عليه بصره .

قال ابن أبى خيثمة : وأبو جعفر هذا ـ الذى حدث عنه حماد بن سلمة ـ اسمه عمير بن يزيد وهو أبو جعفر الذى يروى عنه شعبة ، ثم ذكر الحديث من طريق عثمان بن عمر عن شعبة . قلت : وهذه الطريق فيها « فشفعنى فى نفسى » مثل طريق روح بن القاسم ، وفيها زيادة أخرى وهى قوله : « وإن كانت حاجة فافعل مثل ذلك — أو قال — فعل مثل ذلك » .

وهذه قد يقال : إنها توافق قول عثمان بن حنيف ، لكن شعبة وروح بن القاسم أحفظ من حماد بن سلمة ، واختلاف الألفاظ يدل على أن مثل هذه الرواية قد تكون بالمعنى وقوله « وإن كانت حاجة فعل مثل ذلك » قد يكون مدرجا من كلام عثمان لا من كلام النبي صلى الله عليه وسلم فانه لم يقل « وان كانت لك حاجة فعلت مثل ذلك » بل قال « وان كانت حاجة فعل مثل ذلك» .

وبالجملة فهذه الزيادة لو كانت ثابتة لم يكن فيها حجة ، وانما غايتها أن يكون عثمان بن حنيف ظن أن الدعاء يدعى ببعضه دون بعض ، فإنه لم يأمره بالدعاء المشروع ؛ بل ببعضه، وظن أن هذا مشروع بعد موته صلى الله عليه وسلم، ولفظ الحديث يناقض ذلك ، فإن فى الحديث أن الأعمى سأل النبي صلى الله عليه وسلم

أن يدعو له ، وأنه علم الأعمى أن يدعو وأمره فى الدعاء أن يقول « اللهم فشفعه فى » وانما يدعى بهذا الدعاء اذا كان النبي صلى الله عليه وسلم داعيا شافعا له بخلاف من لم يكن كذلك ، فهذا يناسب شفاعته ودعاءه للناس فى محياه فى الدنيا ويوم القيامة اذا شفع لهم .

وفيه أيضا أنه قال « وشفعنى فيه » وليس المراد أنه يشفع للنبي صلى الله عليه وسلم فى حاجة للنبي صلى الله عليه وسلم - وان كنا مأمورين بالصلاة والسلام عليه ، وأمرنا أن نسأل الله له الوسيلة ، فنى صحيح البخارى عن جابر ابن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من قال اذا سمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذى وعدته . حلت له شفاعتى يوم القيامة » .

وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا علىّ ، فإن من صلى على صلاة صلى الله عليه عشراً ، ثم سلوا الله لى الوسيلة فإنها درجة فى الجنة لاتنبغى إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا ذلك العبد ، فمن سأل الله لى الوسيلة حلت عليه الشفاعة » .

وسؤال الأمة له الوسيلة هو دعاء له وهو معنى الشفاعة ، ولهذا كان الجزاء من جنس العمل ، فمن صلى عليه صلى عليه الله ، ومن سأل الله له الوسيلة المتضمنة لشفاعته شفع له صلى الله عليه وسلم ، كذلك الأعمى سأل منه الشفاعة

فأمره أن يدعو الله بقبول هذه الشفاعة وهو كالشفاعة فى الشفاعة ؛ فلهذا قال: اللهم فشفعه فى وشفعنى فيه .

وذلك أن قبول دعاء النبي صلى الله عليه وسلم فى مثل هذا هو من كرامة الرسول على ربه ، ولهذا عد هذا من آياته ودلائل نبوته ؛ فهو كشفاعته يوم القيامة فى الخلق ، ولهذا أمر طالب الدعاء أن يقول « فشفعه فى وشفعنى فيه » بخلاف قوله « وشفعنى فى نفسى » فإن هذا اللفظ لم يروه أحد إلا من هذا الطريق الغريب .

وقوله « وشفعنى فيه » رواه عن شعبة رجلان جليلان : عثمان بن عمر ، وروح بن عبادة . وشعبة أجل من روى هذا الحديث ، ومن طريق عثمان ابن عمر عن شعبة رواه الثلاثة : الترمذى والنسائى وابن ماجه : رواه الترمذى عن محمود بن غيلان عن عثمان بن عمر عن شعبة .

ورواه ابن ماجه عن أحمد بن سيار عن عثمان بن عمر ، وقد رواه أحمد فى المسند عن روح بن عبادة عن شعبة ، فكان هؤلاء أحفظ للفظ الحديث . مع أن قوله « وشفعنى فى نفسى » إن كان محفوظاً مثل ماذكرناه ، وهو أنه طلب أن يكون شفيعاً لنفسه مع دعاء النبي صلى الله عليه وسلم ولو لم يدع له النبي صلى الله عليه وسلم كان سائلا مجرداً كسائر السائلين .

ولا يسمى مثل هذا شفاعة وإنما تكون الشفاعة إذا كان هناك اثنان

يطلبان أمراً فيكون أحدهما شفيعاً للآخر بخلاف الطالب الواحد الذى لم يشفع غيره .

فهذه الزيادة فيها عدة علل : انفراد هذا بها عن من هو أ كبر وأحفظ منه وإعراض أهل السنن عنها ، واضطراب لفظها ، وأن راويها عرف له — عن روح هذا — أحاديث منكرة .

ومثل هذا يقتضى حصول الريب والشك فى كونها ثابتة ، فلا حجة فيها ، إذ الاعتبار بما رواه الصحابى لا بما فهمه إذا كان اللفظ الذى رواه لا يدل على ما فهمه بل على خلافه .

ومعلوم أن الواحد بعد موته اذا قال : اللهم فشفعه فى وشفعنى فيه — مع أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يدع له — كان هذا كلاماً باطلا ؛ مع أن عثمان ابن حنيف لم يأمره أن يسأل النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً ولا أن يقول فشفعه فىّ ، ولم يأمره بالدعاء المأثور على وجهه ، وانما أمره ببعضه ، وليس هناك من النبي صلى الله عليه وسلم شفاعة ولا ما يظن أنه شفاعة ؛ فلو قال بعد موته « فشفعه فى » لكان كلاماً لا معنى له ، ولهذا لم يأمر به عثمان .

والدعاء المأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم لم يأمر به ، والذى أمر به ليس مأثوراً عن النبي صلى الله عليه وسلم .

ومثل هذا لا تثبت به شريعة كسائر ما ينقل عن آحاد الصحابة فى جنس العبادات أو الإباحات أو الإيجابات أو التحريمات إذا لم يوافقه غيره من

الصحابة عليه ـ وكان ما يثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم يخالفه لا يوافقه ـ لم يكن فعله سنة يجب على المسلمين اتباعها ، بل غايته أن يكون ذلك مما يسوغ فيه الاجتهاد ومما تنازعت فيه الأمة فيجب رده إلى الله والرسول .

ولهذا نظائر كثيرة : مثل ما كان ابن عمر يدخل الماء فى عينيه فى الوضوء ، ويأخذ لأذنيه ماءا جديداً ، وكان أبو هريرة يغسل يديه الى العضدين فى الوضوء ويقول : من استطاع أن يطيل غرته فليفعل ، وروى عنه أنه كان يمسح عنقه ويقول هو موضع الغل . فإن هذا وإن استحبه طائفة من العلماء اتباعاً لها فقد خالفهم فى ذلك آخرون وقالوا : سائر الصحابة لم يكونوا يتوضؤون هكذا .

والوضوء الثابت عنه صلى الله عليه وسلم الذى فى الصحيحين وغيرهما من غير وجه ليس فيه أخذ ماء جديد للأذنين ، ولا غسل ما زاد على المرفقين والكعبين ، ولا مسح العنق ، ولا قال النبي صلى الله عليه وسلم : من استطاع أن يطيل غرته فليفعل . بل هـــذا من كلام أبي هريرة جاء مدرجاً فى بعض الأحاديث ، وإنما قال النبي صلى الله عليه وسلم « إنكم تأتون يوم القيامة غراً محجلين من آثار الوضوء » ، وكان صلى الله عليه وسلم يتوضأ حتى يشرع فى العضد والساق ، قال أبو هريرة : من استطاع أن يطيل غرته فليفعل ، وظن من ظن أن غسل العضد من إطالة الغرة ، وهذا لا معنى له فإن الغرة فى الوجه لا فى اليد والرجل ، وانما فى اليد والرجل الحجلة . والغرة لا يمكن اطالتها فإن الوجه

يغسل كله لا يغسل الرأس ولا غرة فى الرأس ، والحجلة لا يستحب إطالتها ، وإطالتها مثلة .

وكذلك ابن عمر كان يتحرى أن يسير مواضع سير النبي صلى الله عليه وسلم وينزل مواضع منزله ويتوضأ فى السفر حيث رآه يتوضأ ويصب فضل مائه على شجرة صب عليها ، ونحو ذلك مما استحبه طائفة من العلماء ورأوه مستحبا ، ولم يستحب ذلك جمهور العلماء ، كما لم يستحبه، ولم يفعله أكابر الصحابة كأبى بكر وعمر وعثمان وعلى وابن مسعود ومعاذ بن جبل وغيرهم ، لم يفعلوا مثل ما فعل ابن عمر . ولو رأوه مستحبا لفعلوه كما كانوا يتحرون متابعته والاقتداء به .

وذلك لأن المتابعة أن يفعل مثل ما فعل على الوجه الذى فعل ، فاذا فعل فعلا على وجه العبادة شرع لنا أن نفعله على وجه العبادة ، وإذا قصد تخصيص مكان أو زمان بالعبادة خصصناه بذلك ، كما كان يقصد أن يطوف حول الكعبة ، وأن يستلم الحجر الأسود ، وأن يصلى خلف المقام ، وكان يتحرى الصلاة عند اسطوانة مسجد المدينة ، وقصد الصعود على الصفا والمروة ، والدعاء ، والذكر هناك ، وكذلك عرفة ومزدلفة وغيرهما .

وأما ما فعله بحكم الاتفاق ولم يقصده — مثل أن ينزل بمكان ويصلى فيه لكونه نزله لا قصدا لتخصيصه به بالصلاة والنزول فيه — فاذا قصدنا تخصيص ذلك المكان بالصلاة فيه ، أو النزول لم نكن متبعين ، بل هذا من البدع التى

كان ينهى عنها عمر بن الخطاب ، كما ثبت بالإسناد الصحيح من حديث شعبة عن سليمان التيمي عن المعروف بن سويد ، قال : كان عمر بن الخطاب فى سفر فصلى الغداة ثم أتى على مكان فجعل الناس يأتونه فيقولون : صلى فيه النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال عمر : إنما هلك أهل الكتاب أنهم اتبعوا آثار أنبيائهم فاتخذوها كنائس وبيعا ، فمن عرضت له الصلاة فليصل ، وإلا فليمض .

فلما كان النبي صلى الله عليه وسلم لم يقصد تخصيصه بالصلاة فيه بل صلى فيه لأنه موضع نزوله رأى عمر أن مشاركته فى صورة الفعل من غير موافقة له فى قصده ليس متابعة ، بل تخصيص ذلك المكان بالصلاة من بدع أهل الكتاب التى هلكوا بها ، ونهى المسلمين عن التشبه بهم فى ذلك ، ففاعل ذلك متشبه بالنبي صلى الله عليه وسلم فى الصورة ومتشبه باليهود والنصارى فى القصد الذى هو عمل القلب .

وهذا هو الأصل ، فإن المتابعة فى السنة أبلغ من المتابعة فى صورة العمل ، ولهذا لما اشتبه على كثير من العلماء جلسة الاستراحة : هل فعلها استحباباً أو لحاجة عارضة تنازعوا فيها ، وكذلك نزوله بالمحصب عند الخروج من منى لما اشتبه : هل فعله لأنه كان اسمح لخروجه أو لكونه سنة ؟ تنازعوا فى ذلك .

ومن هذا وضع ابن عمر يده على مقعد النبي صلى الله عليه وسلم ، وتعريف ابن عباس بالبصرة وعمرو بن حريث بالكوفة ، فإن هذا لما لم يكن

مما يفعله سائر الصحابة ، ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم شرعه لأمته ؛ لم يمكن أن يقال هذا سنة مستحبة ؛ بل غايته أن يقال : هذا مما ساغ فيه اجتهاد الصحابة ، أو مما لا ينكر على فاعله لأنه مما يسوغ فيه الاجتهاد ، لا لأنه سنة مستحبة سنها النبي صلى الله عليه وسلم لأمته ، أو يقال فى التعريف : إنه لا بأس به أحيانا لعارض إذا لم يجعل سنة راتبة .

وهكذا يقول أئمة العلم فى هذا وأمثاله : تارة يكرهونه ، وتارة يسوغون فيه الاجتهاد ، وتارة يرخصون فيه إذا لم يتخذ سنة ، ولا يقول عالم بالسنة : إن هذه سنة مشروعة للمسلمين .

فان ذلك إنما يقال فيما شرعه رسول الله صلى عليه وسلم ، إذ ليس لغيره أن يسن ولا أن يشرع ؛ وما سنه خلفاؤه الراشدون فانما سنوه بأمره فهو من سننه ، ولا يكون فى الدين واجباً إلا ما أوجبه ، ولا حراما الا ما حرمه ، ولا مستحبا الا ما استحبه ، ولا مكروها الا ما كرهه . ولا مباحا الا ما أباحه .

وهكذا فى الإباحات ، كما استباح أبو طلحة أكل البرد وهو صائم ، واستباح حذيفة السحور بعد ظهور الضوء المنتشر حتى قيل هو النهار ، إلا أن الشمس لم تطلع . وغيرهما من الصحابة لم يقل بذلك ، فوجب الرد الى الكتاب والسنة .

وكذلك الكراهة والتحريم ، مثل كراهة عمر وابنه للطيب قبل الطواف بالبيت ، وكراهة من كره من الصحابة فسخ الحج الى التمتع ، أو التمتع مطلقاً ؛

أو رأى تقدير مسافة القصر بحد حده ، وأنه لا يقصر بدون ذلك ، أو رأى أنه ليس للمسافر أن يصوم فى السفر .

ومن ذلك قول سلمان : إن الريق نجس ، وقول ابن عمر : إن الكتابية لا يجوز نكاحها ، وتوريث معاذ ومعاوية للمسلم من الكافر ، ومنع عمر وابن مسعود للجنب أن يتيمم ، وقول على وزيد وابن عمر فى المفوّضة : إنه لا مهر لها إذا مات الزوج ، وقول على وابن عباس فى المتوفى عنها الحامل : إنها تعتد أبعدَ الأجلين ، وقول ابن عمر وغيره : إن المحرم إذا مات بطل إحرامه وفعل به ما يفعل بالحلال .

وقول ابن عمر وغيره : لا يجوز الاشتراط فى الحج ، وقول ابن عباس وغيره فى المتوفى عنها : ليس عليها لزوم المنزل ، وقول عمر وابن مسعود : إن المبتوتة لها السكنى والنفقة . وأمثال ذلك مما تنازع فيه الصحابة ، فإنه يجب فيه الرد الى الله والرسول ، ونظائر هذا كثيرة فلا يكون شريعة للأمة إلا ما شرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن قال من العلماء « إن قول الصحابى حجة » فإنما قاله اذا لم يخالفه غيره من الصحابة ولا عرف نص يخالفه ، ثم اذا اشتهر ولم ينكروه كان اقراراً على القول ، فقد يقال « هذا إجماع إقرارى » اذا عرف أنهم أقروه ولم ينكره أحد منهم ، وهم لا يقرون على باطل .

وأما اذا لم يشتهر فهذا ان عرف أن غيره لم يخالفه فقد يقال « هو حجة » .

وأما اذا عرف أنه خالفه فليس بحجة بالاتفاق ، وأما اذا لم يعرف هل وافقه غيره أو خالفه لم يجزم بأحدهما ، ومتى كانت السنة تدل على خلافه كانت الحجة فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا فيما يخالفها بلا ريب عند أهل العلم .

واذا كان كذلك فعلوم أنه اذا ثبت عن عثمان بن حنيف أو غيره أنه جعل من المشروع المستحب أن يتوسل بالنبى صلى الله عليه وسلم بعد موته من غير أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم داعياً له ولا شافعاً فيه فقد علمنا أن عمر وأكابر الصحابة لم يروا هذا مشروعاً بعد مماته كما كان يشرع فى حياته ، بل كانوا فى الاستسقاء فى حياته يتوسلون به ، فلما مات لم يتوسلوا به .

بل قال عمر فى دعائه الصحيح المشهور الثابت باتفاق أهل العلم بمحضر من المهاجرين والأنصار فى عام الرمادة المشهور لما اشتد بهم الجدب حتى حلف عمر لا يأكل سمناً حتى يخصب الناس ، ثم لما استسقى بالعباس قال : « اللهم انا كنا اذا أجدبنا نتوسل اليك بنبينا فتسقينا ، وانا نتوسل اليك بعم نبينا فاسقنا » فيسقون . وهذا دعاء أقره عليه جميع الصحابة ولم ينكره أحد مع شهرته ، وهو من أظهر الإجماعات الإقرارية .

ودعا بمثله معاوية بن أبى سفيان فى خلافته لما استسقى بالناس .

فلو كان توسلهم بالنبى صلى الله عليه وسلم بعد مماته كتوسلهم به فى حياته لقالوا : كيف نتوسل بمثل العباس ويزيد بن الأسود ونحوهما ؟ ونعدل عن التوسل بالنبى صلى الله عليه وسلم الذى هو أفضل الخلائق وهو أفضل الوسائل

وأعظمها عند الله ؟ ؛ فلما لم يقل ذلك أحد منهم ، وقد علم أنهم فى حياته إنما توسلوا بدعائه وشفاعته ، وبعد مماته توسلوا بدعاء غيره وشفاعة غيره ، علم أن المشروع عندهم التوسل بدعاء المتوسل به لا بذاته .

وحديث الأعمى حجة لعمر وعامة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، فإنه انما أمر الأعمى أن يتوسل الى الله بشفاعة النبى صلى الله عليه وسلم ودعائه لا بذاته ، وقال له فى الدعاء : « قل اللهم فشفعه فى » .

وإذا قدر أن بعض الصحابة أمر غيره أن يتوسل بذاته لا بشفاعته ولم يأمر بالدعاء المشروع بل ببعضه وترك سائره المتضمن للتوسل بشفاعته ، كان ما فعله عمر بن الخطاب هو الموافق لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان المخالف لعمر محجوجاً بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان الحديث الذى رواه عن النبى صلى الله عليه وسلم حجة عليه لا له ، والله أعلم .

وأما القسم الثالث مما يسمى « توسلا » فلا يقدر أحد أن ينقل فيه عن النبى صلى الله عليه وسلم شيئاً يحتج به أهل العلم — كما تقدم بسط الكلام على ذلك — وهو الإقسام على الله عز وجل بالأنبياء والصالحين أو السؤال بأنفسهم ، فإنه لا يقدر أحد أن ينقل فيه عن النبى صلى الله عليه وسلم شيئاً ثابتاً لا فى الإقسام أو السؤال به . ولا فى الإقسام أو السؤال بغيره من المخلوقين .

وإن كان فى العلماء من سوغه فقد ثبت عن غير واحد من العلماء أنه نهى

عنه ، فتكون مسألة نزاع كما تقدم بيانه ، فيرد ما تنازعوا فيه إلى الله ورسوله ، ويبدى كل واحد حجته كما فى سائر مسائل النزاع ، وليس هذا من مسائل العقوبات بإجماع المسلمين ، بل المعاقب على ذلك معتدٍ جاهل ظالم ، فإن القائل بهذا قد قال ما قالت العلماء ، والمنكر عليه ليس معه نقل يجب اتباعه لا عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا عن الصحابة ، وقد ثبت أنه لا يجوز القسم بغير الله ؛ لا بالأنبياء ولا بغيرهم كما سبق بسط الكلام فى تقرير ذلك .

وقد اتفق العلماء على أنه لا يجوز لأحد أن ينذر لغير الله لا لنبي ولا لغير نبي ، وأن هذا النذر شرك لا يوفى به .

وكذلك الحلف بالمخلوقات لا تنعقد به اليمين ، ولا كفارة فيه ، حتى لو حلف بالنبي صلى الله عليه وسلم لم تنعقد يمينه كما تقدم ذكره ، ولم يجب عليه كفارة عند جمهور العلماء كمالك والشافعي وأبي حنيفة وأحمد فى إحدى الروايتين ، بل نهى عن الحلف بهذه اليمين .

فاذا لم يجز أن يحلف بها الرجل ولا يقسم بها على مخلوق فكيف يقسم بها على الخالق جل جلاله ؟ .

وأما السؤال به من غير إقسام به فهذا أيضا مما منع منه غير واحد من العلماء ، والسنن الصحيحة عن النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين تدل على ذلك ، فإن هذا إنما يفعله على أنه قربة وطاعة وأنه مما يستجاب به الدعاء .

وما كان من هذا النوع فإما أن يكون واجبا وإما أن يكون مستحبا ،

وكل ما كان واجبا أو مستحبا فى العبادات والأدعية فلا بد أن يشرعه النبي صلى الله عليه وسلم لأمته ، فاذا لم يشرع هذا لأمته لم يكن واجبا ولا مستحبا ولا يكون قربة وطاعة ولا سيما لإجابة الدعاء ، وقد تقدم بسط الكلام على هذا كله .

فمن اعتقد ذلك فى هذا أو فى هذا فهو ضال وكانت بدعته من البدع السيئة وقد تبين بالأحاديث الصحيحة وما استقرىء من أحوال النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين أن هذا لم يكن مشروعا عندهم .

وأيضا فقد تبين أنه سؤال لله تعالى بسبب لا يناسب إجابة الدعاء ، وأنه كالسؤال بالكعبة والطور والكرسى والمساجد وغير ذلك من المخلوقات ، ومعلوم أن سؤال الله بالمخلوقات ليس هو مشروعا كما أن الإقسام بها ليس مشروعا بل هو منهى عنه .

فكما أنه لا يسوغ لأحد أن يحلف بمخلوق فلا يحلف على الله بمخلوق ولا يسأله بنفس مخلوق ؛ وإنما يسأل بالأسباب التى تناسب اجابة الدعاء كما تقدم تفصيله .

لكن قد روى فى جواز ذلك آثار وأقوال عن بعض أهل العلم ، ولكن ليس فى المنقول عن النبي صلى الله عليه وسلم شىء ثابت بل كلها موضوعة .

وأما النقل عن من ليس قوله حجة فبعضه ثابت وبعضه ليس بثابت ، والحديث الذى رواه أحمد وابن ماجه وفيه : « بحق السائلين عليك وبحق

بمشاى هذا ، رواه أحمد عن وكيع عن فضيل بن مرزوق عن عطية عن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: « من قال اذا خرج الى الصلاة : اللهم انى أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاى هذا فانى لم أخرجه أشراً ولا بطراً ، ولا رياء ولا سمعة ، خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك ، أسألك أن تنقذنى من النار وأن تدخلنى الجنة وأن تغفر لى ذنوبى انه لا يغفر الذنوب الا أنت ، خرج معه سبعون ألف ملك يستغفرون له وأقبل الله عليه بوجهه حتى يقضى صلاته » .

وهذا الحديث هو من رواية عطية العوفى عن أبى سعيد ، وهو ضعيف بإجماع أهل العلم ، وقد روى من طريق آخر وهو ضعيف أيضا ، ولفظه لا حجة فيه ، فان حق السائلين عليه أن يجيبهم وحق العابدين أن يثيبهم ، وهو حق أحقه الله تعالى على نفسه الكريمة بوعده الصادق باتفاق أهل العلم ، وبإيجابه على نفسه فى أحد أقوالهم ، وقد تقدم بسط الكلام على ذلك .

وهذا بمنزلة الثلاثة الذين سألوه فى الغار بأعمالهم : فانه سأله هذا ببره العظيم لوالديه ، وسأله هذا بعفته العظيمة عن الفاحشة ، وسأله هذا بأدائه العظيم للأمانة ، لأن هذه الأعمال أمر الله بها ، ووعد الجزاء لأصحابها ، فصار هذا كما حكاه عن المؤمنين بقوله : (ربنا إننا سمعنا منادياً ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار) وقال تعالى : (إنه كان فريق من عبادى يقولون : ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين) وقال تعالى : (قل أؤنبئكم بخير من ذلكم ؟ للذين اتقوا عند ربهم

جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله ، والله بصير بالعباد * الذين يقولون: ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار)

وكان ابن مسعود يقول فى السحر : اللهم دعوتنى فأجبت ، وأمرتنى فأطعت ، وهذا سحر فاغفر لى .

وأصل هذا الباب أن يقال : الإقسام على الله بشىء من المخلوقات ، أو السؤال له به ، إما أن يكون مأموراً به إيجابا أو استحبابا ، أو منهيا عنه نهى تحريم أو كراهة ، أو مباحا لا مأمورا به ولا منهيا عنه .

وإذا قيل : إن ذلك مأمور به أو مباح ، فاما أن يفرق بين مخلوق ومخلوق أو يقال : بل يشرع بالمخلوقات المعظمة أو بعضها . فمن قال ان هذا مأمور به أو مباح فى المخلوقات جميعها : لزم أن يسأل الله تعالى بشياطين الانس والجن فهذا لا يقوله مسلم .

فان قال: بل يسأل بالمخلوقات المعظمة كالمخلوقات التى أقسم بها فى كتابه، لزم من هذا أن يسأل بالليل اذا يغشى ، والنهار اذا تجلى ،والذكر والأنثى ، والشمس وضحاها ، والقمر اذا تلاها ، والنهار اذا جلاها ، والليل اذا يغشاها ، والسماء ومابناها ، والأرض وماطحاها ، ونفس وماسواها — ويسأل الله تعالى ويقسم عليه بالخنس الجوار الكنس ، والليل اذا عسعس والصبح اذا تنفس ، ويسأل بالذاريات ذرواً . فالحاملات وقرا . فالجاريات يسرا .فالمقسمات أمرا—ويسأل بالطور ، وكتاب مسطور ، فى رق منشور والبيت المعمور ، والسقف المرفوع

والبحر المسجور - ويسأل ويقسم عليه بالصافات صفا ، وسائر ما أقسم الله به فى كتابه .

فان الله يقسم بما يقسم به من مخلوقاته لأنها آياته ومخلوقاته . فهى دليل على ربو بيته وألوهيته ووحدانيته وعلمه وقدرته ومشيئته ورحمته وحكمته وعظمته وعزته ، فهو سبحانه يقسم بها لأن إقسامه بها تعظيم له سبحانه .

ونحن المخلوقون ليس لنا أن نقسم بها بالنص والاجماع . بل ذكر غير واحد الاجماع على أنه لا يقسم بشىء من المخلوقات وذكروا اجماع الصحابة على ذلك ، بل ذلك شرك منهى عنه .

ومن سأل الله بها : لزمه أن يسأله بكل ذكر وأنثى ، وبكل نفس ألهمها فجورها وتقواها ، ويسأله بالرياح ، والسحاب ، والكواكب ، والشمس والقمر ، والليل والنهار ، والتين والزيتون ، وطور سينين، ويسأله بالبلد الأمين مكة ، ويسأله حينئذ بالبيت ، والصفا والمروة ، وعرفة ، ومزدلفة ، ومنى ، وغير ذلك من المخلوقات ، ويلزم أن يسأله بالمخلوقات التى عبدت من دون الله ؛ كالشمس والقمر والكواكب والملائكة والمسيح والعزير وغير ذلك مما عبد من دون الله ومما لم يعبد من دونه .

ومعلوم أن السؤال لله بهذه المخلوقات أو الإقسام عليه بها من أعظم البدع المنكرة فى دين الإسلام ، ومما يظهر قبحه للخاص والعام .

ويلزم من ذلك أن يقسم على الله تعالى بالإقسام والعزائم التى تكتب فى

الحروز والهياكل التى تكتبها الطرقية والمعزمون ، بل ويقال : إذا جاز السؤال والإقسام على الله بها فعلى المخلوقات أولى ، فحينئذ تكون العزائم ، والإقسام التى يقسم بها على الجن مشروعة فى دين الاسلام ، وهذا الكلام يستلزم الكفر والخروج من دين الاسلام بل ومن دين الأنبياء أجمعين

وإن قال قائل : بل أنا أسأله أو أقسم عليه بمعظم دون معظم من المخلوقات ، إما الأنبياء دون غيرهم أو نبى دون غيره ، كما جوز بعضهم الحلف بذلك ، أو بالأنبياء والصالحين دون غيرهم .

قيل له : بعض المخلوقات وإن كان أفضل من بعض فكلها مشتركة فى أنه لا يجعل شىء منها نداً لله تعالى ، فلا يعبد ولا يتوكل عليه ولا يخشى ولا يتقى ولا يصام له ولا يسجد له ولا يرغب إليه ، ولا يقسم بمخلوق ، كما ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « من كان حالفا فليحلف بالله ، أو ليصمت » وقال « لا تحلفوا إلا بالله » وفى السنن عنه أنه قال « من حلف بغير الله فقد أشرك » .

فقد ثبت بالنصوص الصحيحة الصريحة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه لا يجوز الحلف بشىء من المخلوقات ، لا فرق فى ذلك بين الملائكة والأنبياء والصالحين وغيرهم ولا فرق بين نبى ونبى .

وهذا كما قد سوى الله تعالى بين جميع المخلوقات فى ذم الشرك بها وإن كانت معظمة . قال تعالى : (ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة

ثم يقول للناس كونوا عباداً لى من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون * ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً ، أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ؟) وقال تعالى : (قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا * أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ، ان عذاب ربك كان محذوراً) .

قالت طائفة من السلف : كان أقوام يدعون المسيح والعزير والملائكة ، فقال تعالى : هؤلاء الذين تدعونهم عبادى يرجون رحمتى كما ترجون رحمتى ، ويخافون عذابى كما تخافون عذابى ، ويتقربون إلىّ كما تتقربون إلى .

وقد قال تعالى : (ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه ، فأولئك هم الفائزون) ، فبين أن الطاعة لله والرسول : فإنه من يطع الرسول فقد أطاع الله ، وبين أن الخشية والتقوى لله وحده ؛ فلم يأمر أن يخشى مخلوق ولا يتقى مخلوق .

وقال تعالى : (ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله ، إنا الى الله راغبون) وقال تعالى : (فإذا فرغت فانصب ، والى ربك فارغب) .

فبين سبحانه وتعالى أنه كان ينبغى لهؤلاء أن يرضوا بما آتاهم الله ورسوله ويقولوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا الى الله راغبون ، فذكر

الرضا بما آتاه الله ورسوله لأن الرسول هو الواسطة بيننا وبين الله فى تبليغ أمره ونهيه ،وتحليله وتحريمه ، ووعده ووعيده .

فالحلال ما حلله الله ورسوله ، والحرام ماحرمه الله ورسوله ، والدين ما شرعه الله ورسوله ، ولهذا قال تعالى : (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) فليس لأحد أن يأخذ من الأموال إلا ما أحله الله ورسوله ، والأموال المشتركة له ، كمال الفيء والغنيمة والصدقات ، عليه أن يرضى بما آتاه الله ورسوله منها وهو مقدار حقه لا يطلب زيادة على ذلك .

ثم قال تعالى : (وقالوا حسبنا الله) ولم يقل « ورسوله » فإن الحسب هو الكافى ، والله وحده كاف عباده المؤمنين كما قال تعالى : (يا أيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين) أى هو وحده حسبك وحسب من اتبعك من المؤمنين . هذا هو القول الصواب الذى قاله جمهور السلف والخلف كما بين فى موضع آخر .

والمراد أن الله كاف للرسول ولمن اتبعه ، فكل من اتبع الرسول فالله كافيه وهاديه وناصره ورازقه ، ثم قال تعالى : (سيؤتينا الله من فضله ورسوله) فذكر الإيتاء لله ورسوله ، لكن وسطه بذكر الفضل فإن الفضل لله وحده بقوله : (سيؤتينا الله من فضله ورسوله) ثم قال تعالى : (إنا الى الله راغبون) فجعل الرغبة الى الله وحده دون الرسول وغيره من المخلوقات .

فقد تبين أن الله سوى بين المخلوقات فى هذه الأحكام ، لم يجعل لأحد من

المخلوقين — سواء كان نبياً أو ملكا — أن يقسم به ولا يتوكل عليه ولا يرغب اليه ولا يخشى ولا يتقى . وقال تعالى : (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله ، لا يملكون مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض ، وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير * ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) .

فقد تهدد سبحانه من دعا شيئاً من دون الله ، و بين أنهم لا ملك لهم مع الله ولا شركا فى ملكه ، وأنه ليس له عون ولا ظهير من المخلوقين ؛ فقطع تعلق القلوب بالمخلوقات : رغبة ورهبة وعبادة واستعانة ، ولم يبق الا الشفاعة وهى حق ؛ لكن قال الله تعالى (ولا تنفع الشفاعة عنده الا لمن أذن له) .

وهكذا دلت الأحاديث الصحيحة فى الشفاعة يوم القيامة ، اذا أتى الناس آدم ، وأولى العزم نوحا ، وابراهيم ، وموسى ، وعيسى بن مريم ، فيردهم كل واحد الى الذى بعده ، الى أن يأتوا المسيح فيقول لهم : اذهبوا الى محمد ، عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . قال صلى الله عليه وسلم : « فيأتونى فأذهب إلى ربى ، فإذا رأيته خررت ساجداً وأحمد ربى بمحامد يفتحها علىّ لا أحسنها الآن ، فيقال لى : أى محمد ، ارفع رأسك ، وقل يسمع ، وسل تعطه ، واشفع تشفع — قال — فيحدّ لى حداً فأدخلهم الجنة » ، وذكر تمام الخبر .

فبين المسيح أن محمداً هو الشافع المشفع ، لأنه عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ؛ وبين محمد عبدالله ورسوله أفضل الخلق وأوجه الشفعاء

وأكرمهم على الله تعالى أنه يأتي فيسجد ويحمد ، لا يبدأ بالشفاعة حتى يؤذن له ، فيقال له : ارفع رأسك ، وسل تعطه ، واشفع تشفع ، وذكر أن ربه يحد له حداً فيدخلهم الجنة .

وهذا كله يبين أن الأمر كله لله ، هو الذي يكرم الشفيع بالإذن له فى الشفاعة ، والشفيع لا يشفع إلا فيمن يأذن الله له ، ثم يحد للشفيع حداً فيدخلهم الجنة . فالأمر بمشيئته وقدرته واختياره . وأوجه الشفعاء وأفضلهم هو عنده الذى فضله على غيره واختاره واصطفاه بكمال عبوديته وطاعته وإنابته وموافقته لربه فيما يحبه ويرضاه .

وإذا كان الإقسام بغير الله والرغبة اليه وخشيته وتقواه ونحو ذلك هى من الأحكام التي اشتركت المخلوقات فيها فليس لمخلوق أن يقسم به ، ولا يتقى ولا يتوكل عليه ، وان كان أفضل المخلوقات ، ولا يستحق ذلك أحد من الملائكة والنبيين ، فضلا عن غيرهم من المشايخ والصالحين .

فسؤال الله تعالى بالمخلوقات : إن كان بما أقسم به وعظمه من المخلوقات فيسوغ السؤال بذلك كله ، وان لم يكن سائغاً لم يجز أن يسأل بشيء من ذلك ، والتفريق فى ذلك بين معظم ومعظم ؛ كتفريق من فرق [فزعم أنه] يجوز الحلف ببعض المخلوقات دون بعض ، وكما أن هذا فرق باطل فكذلك الآخر .

ولو فرق مفرق بين ما يؤمن به ، وبين ما لا يؤمن به ، قيل له فيجب الإيمان بالملائكة والنبيين ، ويؤمن بكل ما أخبر به الرسول مثل منكر ونكير ، والحور

العين، والولدان وغير ذلك ، أفيجوز أن يقسم بهذه المخلوقات لكونه يجب الإيمان بها؟ أم يجوز السؤال بها كذلك؟.

فتبين أن السؤال بالأسباب اذا لم يكن المسئول به سبباً لإجابة الدعاء فلا فرق بين السؤال بمخلوق ومخلوق، كما لا فرق بين القسم بمخلوق ومخلوق ، وكل ذلك غير جائز . فتبين أنه لايجوز ذلك كما قاله من قاله من العلماء والله أعلم .

وأما قوله تعالى : (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا) فكانت اليهود تقول للمشركين : سوف يبعث هذا النبي ونقاتلكم معه فنقتلكم ؛ لم يكونوا يقسمون على الله بذاته ، ولا يسألون به ؛ أو يقولون : اللهم ابعث هذا النبي الأمى لنتبعه ونقتل هؤلاء معه .

هذا هو النقل الثابت عند أهل التفسير وعليه يدل القرآن فإنه قال تعالى : (وكانوا من قبل يستفتحون) والاستفتاح الاستنصار ، وهو طلب الفتح والنصر ؛ فطلب الفتح والنصر به هو أن يبعث فيقاتلونهم معه ، فبهذا ينصرون ، ليس هو بإقسامهم به وسؤالهم به ، إذ لو كان كذلك لكانوا اذا سألوا أو أقسموا به نصروا ؛ ولم يكن الأمر كذلك ، بل لما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم نصر الله من آمن به وجاهد معه على من خالفه .

وما ذكره بعض المفسرين من أنهم كانوا يقسمون به أو يسألون به فهو نقل شاذ مخالف للنقول الكثيرة المستفيضة المخالفة له .

وقد ذكرنا طرفاً من ذلك فى (دلائل النبوة) وفى كتاب (الاستغاثة

الكبير). و (كتب السير) ، و(دلائل النبوة) ، و(التفسير) مشحونة بذلك .
قال أبو العالية وغيره : كان اليهود [١] يستنصروا بمحمد صلى الله عليه وسلم على مشركى العرب يقولون : اللهم ابعث هــذا النبي الذى نجده مكتوباً عندنا حتى نغلب المشركين ونقتلهم . فلما بعث الله محمداً ورأوا أنه من غيرهم كفروا به حسداً للعرب ، وهم يعلمون أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله تعالى هذه الآيات : (فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به ، فلعنة الله على الكافرين) .

وروى محمد ابن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة الأنصارى عن رجال من قومه قالوا : مما دعانا الى الإسلام - مع رحمة الله وهداه - ما كنا نسمع من رجال يهود ، وكنا أهل شرك وأصحاب أوثان ، وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس عندنا ، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور ، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا : قد تقارب زمان نبي يبعث الآن فنقتلكم معه قتل عاد وإرَم - كثيراً ما كنا نسمع ذلك منهم - فلما بعث الله محمداً رسولا من عند الله أجبناه حين دعانا الى الله وعرفنا ما كانوا يتوعدونا به ، فبادرناهم اليه فآمنا به وكفروا به ، ففينا وفيهم نزل هؤلاء الآيات التى فى البقرة : (ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ، فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين).

ولم يذكر ابن أبى حاتم وغيره ممن جمع كلام مفسرى السلف إلا هذا ، وهذا لم يذكر فيه السؤال به عن أحد من السلف ، بل ذكروا الإخبار به ، أو سؤال الله أن يبعثه ، فروى ابن أبى حاتم عن أبى رزين عن الضحاك عن

ابن عباس فى قوله تعالى : (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا) قال : يستظهرون ، يقولون : نحن نعين محمداً عليهم وليسوا كذلك ، يكذبون .

وروى عن معمر عن قتادة فى قوله تعالى : (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا) قال : كانوا يقولون : إنه سيأتى نبي (فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به) .

وروى بإسناده عن ابن إسحاق : حدثنا محمد بن أبى محمد قال أخبرنى عكرمة - أو سعيد بن جبير - عن ابن عباس أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه ، فلما بعثه الله من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه ، فقال لهم معاذ بن جبل وبشر ابن البراء بن معرور وداود بن سلمة : يا معشر يهود ، اتقوا الله وأسلموا ، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد صلى الله وسلم ونحن أهل شرك ، وتخبرونا بأنه مبعوث وتصفونه بصفته ، فقال سلام بن مشكم أخو بنى النضير : ما جاءنا بشىء نعرفه وما هو بالذى كنا نذكر لكم فانزل الله تعالى فى ذلك : (ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، فلعنة الله على الكافرين) .

وروى بإسناده عن الربيع بن أنس عن أبى العالية قال : كانت اليهود تستنصر بمحمد صلى الله عليه وسلم على مشركى العرب يقولون : اللهم ابعث هذا النبي الذى نجده مكتوبا عندنا ، حتى نعذب المشركين ونقتلهم . فلما بعث الله محمدا

ورأوا أنه من غيرهم كفروا به حسدا للعرب ، وهم يعلمون أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الله (فلما جاءهم ما ع‍ ‍نوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين).

وأما الحديث الذى يروى عن عبد الملك بن هارون بن عنترة عن أبيه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كانت يهود خيبر تقاتل غطفان فكلما التقوا هزمت يهود فعاذت بهذا الدعاء : اللهم إنا نسألك بحق محمد النبي الأمى الذى وعدتنا أن تخرجه لنا آخر الزمان إلا نصرتنا عليهم ، فكانوا إذا دعوا بهذا الدعاء هزموا غطفان . فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم كفروا به ، فأنزل الله تعالى (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به) وهذا الحديث رواه الحاكم فى مستدكه وقال : أدت الضرورة إلا إخراجه . وهذا مما أنكره عليه العلماء ، فان عبد الملك بن هارون من أضعف الناس ، وهو عند أهل العلم بالرجال متروك ، بل كذاب . وقد تقدم ما ذكره يحيى بن معين وغيره من الأئمة فى حقه .

قلت : وهذا الحديث من جملتها ، وكذلك الحديث الآخر يرويه عن أبى بكر كما تقدم .

ومما يبين ذلك أن قوله تعالى (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا) إنما نزلت باتفاق أهل التفسير والسير فى اليهود المجاورين للمدينة أولا كبنى قينقاع وقريظة والنضير ، وهم الذين كانوا يحالفون الأوس والخزرج ، وهم الذين عاهدهم النبي صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة ، ثم لما نقضوا العهد حاربهم

فحارب أولا بنى قينقاع ثم النضير - وفيهم نزلت سورة الحشر - ثم قريظة عام الخندق ، فكيف يقال نزلت فى يهود خيبر وغطفان؟ فان هذا من كذاب جاهل لم يحسن كيف يكذب ، ومما يبين ذلك أنه ذكر فيه انتصار اليهود على غطفان لما دعوا بهذا الدعاء ، وهذا مما لم ينقله أحد غير هذا الكذاب ، ولو كان هذا مما وقع لكان مما تتوفر دواعى الصادقين على نقله .

ومما ينبغى أن يعلم أن مثل هذا اللفظ لو كان مما يقتضى السؤال به ، والاقسام به على الله تعالى لم يكن مثل هذا مما يجوز أن يعتمد عليه فى الأحكام ، لأنه أولا لم يثبت ، وليس فى الآية ما يدل عليه ، ولو ثبت لم يلزم أن يكون هذا شرعا لنا ، فان الله تعالى قد أخبر عن سجود إخوة يوسف وأبويه وأخبر عن الذين غلبوا على أهل الكهف أنهم قالوا : (لنتخذن عليهم مسجدا) ونحن قد نهينا عن بناء المساجد على القبور ، ولفظ الآية إنما فيه أنهم كانوا يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به .

وهذا كقوله تعالى : (إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح) والاستفتاح طلب الفتح وهو النصر ، ومنه الحديث المأثور أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يستفتح بصعاليك المهاجرين ، أى يستنصر بهم أى بدعائهم كما قال « وهل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم ، بصلاتهم ودعائهم وإخلاصهم ؟ » .

وهذا قد يكون بأن يطلبوا من الله تعالى أن ينصرهم بالنبي المبعوث فى آخر الزمان ، بأن يعجل بعث ذلك النبي إليهم لينتصروا به عليهم ، لا لأنهم أقسموا على الله وسألوا به ، ولهذا قال تعالى (فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على

الكافرين) فلو لم ترد الآثار التي تدل على أن هذا معنى الآية لم يجز لأحد أن يحمل الآية على ذلك المعنى المتنازع فيه بلا دليل ، لأنه لا دلالة فيها عليه ، فكيف وقد جاءت الآثار بذلك ؟ .

أما ما تقدم ذكره عن اليهود من أنهم كانوا ينصرون ، فقد بينا أنه شاذ ، وليس هو من الآثار المعروفة في هذا الباب ، فإن اليهود لم يعرف أنها غلبت العرب بل كانوا مغلوبين معهم ، وكانوا يحالفون العرب فيحالف كل فريق فريقا كما كانت قريظة حلفاء الأوس ، وكانت النضير حلفاء الخزرج .

وأما كون اليهود كانوا ينتصرون على العرب فهذا لا يعرف بل المعروف خلافه ، والله تعالى قد أخبر بما يدل على ذلك ، فقال تعالى : (ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس ، وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) .

فاليهود — من حين ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس — لم يكونوا بمجردهم ينتصرون لا على العرب ولا غيرهم ، وإنما كانوا يقاتلون مع حلفائهم قبل الإسلام ، والذلة ضربت عليهم من حين بعث المسيح عليه السلام فكذبوه . قال تعالى : (يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة) وقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى بن مريم

للحواريين : من أنصارى إلى الله ؟ قال الحواريون : نحن أنصار الله . فآمنت طائفة من بنى إسرائيل وكفرت طائفة ، فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين) وكانوا قد قتلوا يحي بن زكريا وغيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . قال تعالى : (وضربت عليهم المسكنة وباءوا بغضب من الله ؛ ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) .

فاذا لم يكن الصحابة كعمر بن الخطاب وغيره ، فى حياته صلى الله عليه وسلم وبعد موته ، يقسمون بذاته ؛ بل إنما كانوا يتوسلون بطاعته أو بشفاعته ، فكيف يقال فى دعاء المخلوقين الغائبين والموتى وسؤالهم من الأنبياء والملائكة وغيرهم ؛ وقد قال تعالى : (قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا * أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً) .

قالت طائفة من السلف : كان أقوام يدعون الملائكة والأنبياء كالمسيح وعزير وغيرهما ، فنهى الله عن ذلك ، وأخبر تعالى أن هؤلاء يرجون رحمة الله ، ويخافون عذابه ، ويتقربون إليه ، وانهم لا يملكون كشف الضر عن الداعين ، ولا تحويله عنهم . وقد قال تعالى : (ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونو عباداً لى من دون الله ، ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون * ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً ، أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون) .

ولهذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم أن يتخذ قبره مسجداً وأن يتخذ عيداً ، وقال في مرض موته : « لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » يحذر ما صنعوا أخرجاه في الصحيحين . وقال : « اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد . اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » رواه مالك في موطأه ، وقال : « لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم ، إنما أنا عبد ، فقولوا : عبد الله ورسوله » متفق عليه .

وقال : « لا تقولوا : ماشاء الله وشاء محمد . بل ماشاء الله ثم شاء محمد » . وقال له بعض الأعراب : ما شاء الله وشئت فقال : « أجعلتني لله نداً ؟ بل ما شاء الله وحده » . وقد قال الله تعالى له : (قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ماشاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء) وقال تعالى : (قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً) وقال تعالى : (إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء) . وقال تعالى : (ليس لك من الأمر شيء) . وهذا تحقيق التوحيد مع أنه صلى الله عليه وسلم أكرم الخلق على الله ، وأعلاهم منزلة عند الله .

وقد روى الطبراني في معجمه الكبير أن منافقاً كان يؤذى المؤمنين ، فقال أبو بكر : قوموا نستغيث برسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا المنافق . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « إنه لا يستغاث بي وانما يستغاث بالله » .

وفي صحيح مسلم في آخره أنه قال قبل أن يموت بخمس « إن من كان

قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإنى أنهاكم عن ذلك » . وفى صحيح مسلم أيضاً وغيره أنه قال : « لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها » .

وفى الصحيحين من حديث أبى سعيد وأبى هريرة — وله طرق متعددة عن غيرهما — أنه قال : « لا تشد الرحال إلا الى ثلاثة مساجد : مسجدى هذا ، والمسجد الحرام ، والمسجد الأقصى » . وسئل مالك عن رجل نذر أن يأتى قبر النبي صلى الله عليه وسلم فقال مالك : ان كان أراد القبر فلا يأته ، وان أراد المسجد فليأته . ثم ذكر الحديث « لا تشد الرّحال إلا الى ثلاثة مساجد » ذكره القاضى إسماعيل فى مبسوطه .

ولو حلف حالف بحق المخلوقين لم تنعقد يمينه ، ولا فرق فى ذلك بين الأنبياء والملائكة وغيرهم ، ولله تبارك وتعالى حق لا يشركه فيه أحد لا الأنبياء ولا غيرهم ، وللأنبياء حق ، وللمؤمنين حق ، ولبعضهم على بعض حق .

فحقه تبارك وتعالى أن يعبدوه لا يشركوا به كما تقدم فى حديث معاذ ، ومن عبادته تعالى أن يخلصوا له الدين ، ويتوكلوا عليه ، ويرغبوا إليه ، ولا يجعلوا لله نداً : لا فى محبته ولا خشيته ولا دعائه ولا الاستعانة به ، كما فى الصحيحين أنه قال صلى الله عليه وسلم : « من مات وهو يدعو ندّاً من دون الله دخل النار » وسئل : أى الذنب أعظم ؟ قال « أن تجعل لله نداً وهو خلقك » . وقيل له : ما شاء الله وشئت . فقال : أجعلتنى لله نداً ! بل ما شاء الله وحده .

وقد قال تعالى : (إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) وقال تعالى : (فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون)، (وقال الله لاتتخذوا إلهين اثنين انمـا هو اله واحد فإياى فارهبون) ، : (فإياى فاعبـدون) وقال تعالى : (فإذا فرغت فانصب، والى ربك فارغب) وقال تعالى فى فاتحة الكتاب التى هي أم القرآن (إياك نعبد واياك نستعين) وقال تعالى : (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله) وقال تعالى : (فلا تخشوا الناس واخشون) وقال تعالى : (الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً الا الله) .

ولهذا لمـا كان المشركون يخوفون ابراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه قال تعالى : (وحاجه قومه ، قال أتحاجونى فى الله وقد هدان ؟ ولا أخاف ما تشركون به الا أن يشاء ربى شيئاً ، وسع ربى كل شيء علماً أفلا تتذكرون ؟ * وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخـــافون أنكم أشركتم بالله مالم ينزل به عليكم سلطاناً ؟ فأى الفريقين أحق بالأمن ان كنتم تعلمون ؟ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) .

وفى الصحيحين عن ابن مسـعود قال : لمـا نزلت هذه الآية (الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم) شق ذلك على أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وقالوا : أينا لم يظلم نفسه ؟ فقال لهم النبى صلى الله عليه وسلم « انما ذاك الشرك كما قال العبد الصالح » : (يا بنى لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم) .

وقال تعالى : (ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون) .

فجعل الطاعة لله والرسول ، فإنه من يطع الرسول فقد أطاع الله . وجعل الخشية والتقوى لله وحده ، فلا يخشى الا الله ، ولا يتقى إلا الله . وقال تعالى: (فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلا) . وقال تعالى : (فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين) .

وقال تعالى : (ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله ، إنا الى الله راغبون) . فجعل سبحانه الإيتاء لله والرسول فى أول الكلام وآخره كقوله تعالى :(وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) مع جعله الفضل لله وحده ، والرغبة الى الله وحده .

وهو تعالى وحده حسبهم لا شريك له فى ذلك . وروى البخارى عن ابن عباس فى قوله (حسبنا الله ونعم الوكيل) قال: قالها ابراهيم حين ألقى فى النار وقالها محمد حين (قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل) وقال تعالى : (يا أيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين) .

ومعنى ذلك عند جماهير السلف والخلف أن الله وحده حسبك وحسب من اتبعك من المؤمنين ، كما بسط ذلك بالأدلة ، وذلك أن الرسل عليهم الصلاة والسلام هم الوسائط بيننا وبين الله فى أمره ونهيه ووعده ووعيده ، فالحلال ما أحله الله ورسوله ، والحرام ما حرمه الله ورسوله ، والدين ما شرعه الله ورسوله .

فعلينا أن نحب الله ورسوله ونطيع الله ورسوله ونرضى الله ورسوله، قال تعالى: (والله ورسوله أحق أن يرضوه ان كانوا مؤمنين) وقال تعالى: (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول) وقال تعالى: (من يطع الرسول فقد أطاع الله) وقال تعالى: (قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره).

وفى الصحيحين عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب اليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه الا لله، ومن كان يكره أن يرجع فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى فى النار» وقد قال تعالى (انا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً * لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا).

فالإيمان بالله والرسول، والتعزير والتوقير للرسول، وتعزيره نصره ومنعه، والتسبيح بكرة وأصيلا لله وحده، فإن ذلك من العبادة لله، والعبادة هى لله وحده: فلا يصلى الا لله ولا يصام الا لله ولا يحج الا الى بيت الله، ولا تشد الرحال الا الى المساجد الثلاثة، لكون هذه المساجد بناها أنبياء الله بإذن الله، ولا ينذر الا لله، ولا يحلف الا بالله، ولا يدعى إلا الله، ولا يستغاث الا بالله.

وأما ماخلقه الله سبحانه من الحيوان، والنبات، والمطر، والسحاب،

وسائر المخلوقات فلم يجعل غيره من العباد واسطة فى ذلك الخلق ، كما جعل الرسل واسطة فى التبليغ ، بل يخلق ما يشاء بما يشاء من الأسباب ، وليس فى المخلوقات شيء يستقل بإبداع شيء ، بل لا بد للسبب من أسباب أخر تعاونه ، ولا بد من دفع المعارض عنه ، وذلك لا يقدر عليه إلا الله وحده ، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، بخلاف الرسالة فإن الرسول وحده كان واسطة فى تبليغ رسالته إلى عباده .

وأما جعل الهدى فى قلوب العباد فهو إلى الله تعالى لا إلى الرسول كما قال الله تعالى : (إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء) وقال تعالى : (إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدى من يضل) . وكذلك دعاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام واستغفارهم وشفاعتهم هو سبب ينفع إذا جعل الله تعالى المحل قابلا له ، وإلا فلو استغفر النبي للكفار والمنافقين لم يغفر لهم ، قال الله تعالى : (سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم ، لن يغفر الله لهم).

وأما الرسل فقد تبين أنهم هم الوسائط بيننا وبين الله عز وجل فى أمره ونهيه ووعده ووعيده وخبره ، فعلينا أن نصدقهم فى كل ما أخبروا به ، ونطيعهم فيما أوجبوا وأمروا ، وعلينا أن نصدق بجميع أنبياء الله عز وجل ، لا نفرق بين أحد منهم ، ومن سب واحدا منهم كان كافرا مرتداً مباح الدم .

وإذا تكلمنا فيما يستحقه الله تبارك وتعالى من التوحيد بينا أن الأنبياء وغيرهم من المخلوقين لا يستحقون ما يستحقه الله تبارك وتعالى من خصائص : فلا يشرك بهم ولا يتوكل عليهم ، ولا يستغاث بهم كما يستغاث بالله ، ولا يقسم

على الله بهم ، ولا يتوسل بذواتهم ، وإنما يتوسل بالإيمان بهم ، وبمحبتهم ، وطاعتهم ، وموالاتهم ، وتعزيرهم ، وتوقيرهم ، ومعاداة من عاداهم ، وطاعتهم فيما أمروا ، وتصديقهم فيما أخبروا ، وتحليل ما حللوه ، وتحريم ما حرموه .

والتوسل بذلك على وجهين :

(أحدهما) أن يتوسل بذلك الى اجابة الدعاء واعطاء السؤال ، كحديث الثلاثة الذين أووا الى الغار ، فانهم توسلوا بأعمالهم الصالحة ليجيب دعاءهم ويفرج كربتهم ، وقد تقدم بيان ذلك .

(والثانى) التوسل بذلك الى حصول ثواب الله وجنته ورضوانه ، فان الأعمال الصالحة التى أمر بها الرسول صلى الله عليه وسلم هى الوسيلة التامة الى سعادة الدنيا والآخرة ، ومثل هذا كقول المؤمنين : (ربنا اننا سمعنا منادياً ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فـآمنا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار) فإنهم قدموا ذكر الايمان قبل الدعاء ، ومثل ذلك ما حكاه الله سبحانه عن المؤمنين فى قوله تعالى : (انه كان فريق من عبادى يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين) وأمثال ذلك كثير .

وكذلك التوسل بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم وشفاعته فانه يكون على وجهين :ـ

(أحدهما) أن يطلب منه الدعاء والشفاعة فيدعو ويشفع ، كما كان يطلب منه فى حياته ، وكما يطلب منه يوم القيامة ، حين يأتون آدم ونوحا ثم الخليل ثم

موسى الكليم ثم عيسى ، ثم يأتون محمدا صلوات الله وسلامه عليه وعليهم فيطلبون منه الشفاعة .

(والوجه الثانى) أن يكون التوسل مع ذلك بأن يسأل الله تعالى بشفاعته ودعائه ، كما فى حديث الأعمى المتقدم بيانه وذكره فانه طلب منه الدعاء والشفاعة فدعا له الرسول وشفع فيه، وأمره أن يدعو الله فيقول «اللهم انى أسألك وأتوجه اليك به ، اللهم فشفعه فى » فأمره أن يسأل الله تعالى قبول شفاعته ؛ بخلاف من يتوسل بدعاء الرسول وشفاعة الرسول ـ والرسول لم يدع له ولم يشفع فيه ـ فهذا توسل بما لم يوجد ، وانما يتوسل بدعائه وشفاعته من دعا له وشفع فيه .

ومن هذا الباب قول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وقت الاستسقاء كما تقدم ، فان عمر والمسلمين توسلوا بدعاء العباس وسألوا الله تعالى مع دعاء العباس ، فانهم استشفعوا جميعا ، ولم يكن العباس وحده هو الذى دعا لهم ، فصار التوسل بطاعته ، والتوسل بشفاعته كل منهما يكون مع دعاء المتوسل وسؤاله ، ولا يكون بدون ذلك .

فهذه أربعة أنواع كلها مشروعة لا ينازع فى واحد منها أحد من أهل العلم والإيمان .

ودين الإسلام مبنى على أصلين ، وهما : تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله : وأول ذلك أن لا تجعل مع الله الها آخر ، فلا تحب مخلوقا كما تحب الله ، ولا ترجوه كما ترجو الله ، ولا تخشاه كما تخشى الله ، ومن سوى

بين المخلوق والخالق فى شيء من ذلك فقد عدل بالله ، وهو من الذين بربهم يعدلون ، وقد جعل مع الله الها آخر ، وان كان مع ذلك يعتقد أن الله وحده خلق السموات والأرض .

فان مشركى العرب كانوا مقرين بأن الله وحده خلق السموات والأرض ، كما قال تعالى : (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) وكانوا مع ذلك مشركين يجعلون مع الله آلهة أخرى ، قال تعالى : (أإنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ، قل لا أشهد) وقال تعالى : (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله) فصاروا مشركين لأنهم أحبوهم كحبه ، لا أنهم قالوا ان آلهتهم خلقوا كخلقه . كما قال تعالى : (أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه ، فتشابه الخلق عليهم) .

وهذا استفهام انكار بمعنى النفى ، أى ما جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه ، فانهم مقرون أن آلهتهم لم يخلقوا كخلقه. وانما كانوا يجعلونهم شفعاء ووسائط قال تعالى: (ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله . قل اتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض؟ سبحانه وتعالى عما يشركون) وقال صاحب يس : (وما لى لا أعبد الذى فطرنى واليه ترجعون * أأتخذ من دونه آلهة ان يردن الرحمن بضر لا تغن عنى شفاعتهم شيئا ولا ينقذون * انى اذا لفى ضلال مبين * انى آمنت بربكم فاسمعون) .

(الأصل الثانى) أن نعبده بما شرع على ألسن رسله ، لا نعبده الا بواجب أو مستحب ، والمباح اذا قصد به الطاعة دخل فى ذلك .

والدعاء من جملة العبادات ، فمن دعا المخلوقين من الموتى والغائبين واستغاث بهم — مع أن هذا أمر لم يأمر به الله ولا رسوله أمر ايجاب ولا استحباب — كان مبتدعا فى الدين ، مشركا برب العالمين ، متبعا غير سبيل المؤمنين . ومن سئل الله تعالى بالمخلوقين ، أو أقسم عليه بالمخلوقين كان مبتدعا بدعة ما أنزل الله بها من سلطان ، فان ذم من خالفه وسعى فى عقوبته كان ظالما جاهلا معتديا .

وان حكم بذلك فقد حكم بغير ما أنزل الله ، وكان حكمه منقوضا باجماع المسلمين ، وكان الى أن يستتاب من هذا الحكم ويعاقب عليه أحوج منه الى أن ينفذ له هذا الحكم ويعان عليه ، وهذا كله مجمع عليه بين المسلمين ، ليس فيه خلاف لا بين الأئمة الأربعة ولا غيرهم .

وقد بسط الكلام على هذه الأمور فى مجلدات ، من جملتها مصنف ذكرنا فيه قواعد تتعلق بحكم الحكام وما يجوز لهم الحكم فيه وما لا يجوز . وهو مؤلف مفرد يتعلق بأحكام هذا الباب لا يحسن ايراد شيء من فصوله ها هنا ؛ لإفراد الكلام فى هذا الموضع على قواعد التوحيد ومتعلقاته ، وسيأتى ايراد ما اختصر منه ، وحررت فصوله فى ضمن أوراق مفردة يقف عليها المتأمل لمزيد الفائدة ومسيس الحاجة الى معرفة هذا الأمر المهم . وبالله التوفيق .

وكنت وأنا بالديار المصرية فى سنة احدى عشر وسبعمائة قد استفتيت عن

التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم ، فكتبت فى ذلك جوابا مبسوطا وقد أحببت إيراده هنا لما فى ذلك من مزيد الفائدة. فإن هذه القواعد - المتعلقة بتقرير التوحيد وحسم مادة الشرك والغلو - كلما تنوع بيانها ووضحت عباراتها كان ذلك نورا على نور . والله المستعان .

وصورة السؤال :

المسئول من السادة العلماء أئمة الدين أن يبينوا ما يجوز وما لا يجوز من الاستشفاع والتوسل بالأنبياء والصالحين .

وصورة الجواب :

الحمد لله رب العالمين . أجمع المسلمون على أن النبي صلى الله عليه وسلم يشفع للخلق يوم القيامة بعد أن يسأله الناس ذلك ، وبعد أن يأذن الله له فى الشفاعة . ثم إن أهل السنة والجماعة متفقون على ما اتفق عليه الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين واستفاضت به السنن من أنه صلى الله عليه وسلم يشفع لأهل الكبائر من أمته ، ويشفع أيضا لعموم الخلق .

فله صلى الله عليه وسلم شفاعات يختص بها لا يشركه فيها أحد ، وشفاعات يشركه فيها غيره من الأنبياء والصالحين ، لكن ما له فيها أفضل مما لغيره ، فانه صلى الله عليه وسلم أفضل الخلق وأكرمهم على ربه عز وجل ، وله من الفضائل التى ميزه الله بها على سائر النبيين ما يضيق هذا الموضع عن بسطه ، ومن ذلك « المقام

المحمود» الذى يغبطه به الأولون والآخرون ،وأحاديث الشفاعة كثيرة متواترة ، منها فى الصحيحين أحاديث متعددة ، وفى السنن والمسانيد مما يكثر عدده.

وأما الوعيدية من الخوارج والمعتزلة فزعموا أن الشفاعة إنما هى للمؤمنين خاصة فى رفع بعض الدرجات ، وبعضهم أنكر الشفاعة مطلقاً.

واجمع أهل العلم على أن الصحابة كانوا يستشفعون به ويتوسلون به فى حياته بحضرته ، كما ثبت فى صحيح البخارى عن أنس بن مالك أن عمر بن الخطاب كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب فقال « اللهم انا كنا إذا أجدبنا نتوسل اليك بنبينا فتسقينا ، وانا نتوسل اليك بعم نبينا فاسقنا » فيسقون.

وفى البخارى أيضاً عن ابن عمر أنه قال: ربما ذكرت قول الشاعر - وأنا أنظر إلى وجه النبى صلى الله عليه وسلم يستسقى ، فما ينزل حتى يجيش كل ميزاب -

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

والتوسل بالنبى صلى الله عليه وسلم الذى ذكره عمر بن الخطاب قد جاء مفسراً فى سائر أحاديث الاستسقاء ، وهو من جنس الاستشفاع به ، وهو أن يطلب منه الدعاء والشفاعة ، ويطلب من الله أن يقبل دعاءه وشفاعته ، ونحن نقدمه بين أيدينا شافعاً وسائلا لنا ، بأبى هو وأمى صلى الله عليه وسلم.

وكذلك معاوية بن أبى سفيان — لما أجدب الناس بالشام — إستسقى بيزيد بن الأسود الجرشى فقال : « اللهم إنا نستشفع — ونتوسل — بخيارنا . يا يزيد ! ارفع يديك » فرفع يديه ودعا ، ودعا الناس حتى سقوا.

ولهذا قال العلماء : يستحب أن يستسقى بأهل الدين والصلاح ، وإذا كانوا من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو أحسن .

وهذا الاستشفاع والتوسل حقيقته التوسل بدعائه ؛ فانه كان يدعو للمتوسل به المستشفع به والناس يدعون معه ، كما أن المسلمين لما أجدبوا على عهد النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليه أعرابى فقال : يارسول الله هلكت الأموال ، وانقطعت السبل ، فادع الله يغثنا . فرفع النبي صلى الله عليه وسلم يديه وقال : « اللهم أغثنا ، اللهم أغثنا ، اللهم أغثنا » وما فى السماء قزعة ؛ فنشأت سحابة من جهة البحر فمطروا أسبوعا لايرون فيه الشمس ؛ حتى دخل عليهم الأعرابى — أو غيره — فقال : يارسول الله انقطعت السبل ، وتهدم البنيان ، فادع الله يكشفها عنا . فرفع يديه وقال « اللهم حوالينا ولا علينا ، اللهم على الآكام والظراب ومنابت الشجر وبطون الأودية » فانجابت عن المدينة كما ينجاب الثوب . والحديث مشهور فى الصحيحين وغيرهما .

وفى حديث آخر فى سنن أبى داود وغيره أن رجلا قال له : انا نستشفع بك على الله ونستشفع بالله عليك . فسبح رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى رؤى ذلك فى وجوه أصحابه وقال « ويحك أتدرى ما الله ؟ إن الله لا يستشفع به على أحد من خلقه ، شأن الله أعظم من ذلك » .

وهذا يبين أن معنى الاستشفاع بالشخص ـ فى كلام النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ـ هو استشفاع بدعائه وشفاعته ، ليس هو السؤال بذاته ؛ فإنه لو كان هذا

السؤال بذاته لكان سؤال الخلق بالله تعالى أولى من سؤال الله بالخلق ، ولكن لما كان معناه هو الأول ، أنكر النبي صلى الله عليه وسلم قوله : « نستشفع بالله عليك » ولم ينكر قوله نستشفع بك على الله ؛ لأن الشفيع يسأل المشفوع إليه أن يقضى حاجة الطالب ، والله تعالى لا يسأل أحداً من عباده أن يقضى حوائج خلقه ، وإن كان بعض الشعراء ذكر استشفاعه بالله تعالى فى مثل قوله : —

شفيعى إليك الله لا رب غيره   وليس الى رد الشفيع سبيل

فهذا كلام منكر لم يتكلم به عالم .

وكذلك بعض الاتحادية ذكر أنه استشفع بالله سبحانه إلى النبي صلى الله عليه وسلم وكلاهما خطأ وضلال ؛ بل هو سبحانه المسئول المدعو الذى يسأله كل من فى السموات والأرض ؛ ولكن هو تبارك وتعالى يأمر عباده فيطيعونه وكل من وجبت طاعته من المخلوقين فإنما وجبت لأن ذلك طاعة لله تعالى ، فالرسل يبلغون عن الله أمره ؛ فمن أطاعهم فقد أطاع الله ، ومن بايعهم فقد بايع الله . قال تعالى : (وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله) وقال تعالى : (من يطع الرسول فقد أطاع الله) .

وأولو الأمر من أهل العلم وأهل الإمارة انما تجب طاعتهم اذا أمروا بطاعة الله ورسوله . قال صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح : « على المرء المسلم السمع والطاعة فى عسره ويسره ومنشطه ومكرهه ، مالم يؤمر بمعصية الله ، فإذا أمر بمعصية الله فلا سمع ولا طاعة » وقال صلى الله عليه وسلم «لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق » .

وأما الشافع فسـائل لاتجب طاعته فى الشفاعة وان كان عظيما ، وفى الحديث الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل بَرِيرة أن تمسك زوجها ولا تفارقه لما أعتقت ، وخيرها النبي صلى الله عليه وسلم فاختارت فراقه ، وكان زوجها يحبها فجعل يبكى ، فسألها النبي صلى الله عليه وسلم أن تمسكه فقالت أتأمرنى ؟ فقال « لا ! انما أنا شافع » . وانما قالت « أتأمرنى ؟ » وقال : « انما أنا شافع » لما استقر عند المسلمين أن طاعة أمره واجبة بخلاف شفاعته ، فإنه لا يجب قبول شفاعته ، ولهذا لم يلمها النبي صلى الله عليه وسلم على ترك قبول شفاعته ، فشفاعة غيره من الخلق أولى أن لايجب قبولها .

والخالق جل جلاله أمره أعلى وأجل من أن يكون شافعاً الى مخلوق ، بل هو سبحانه أعلى شأناً من أن يشفع أحد عنده الا باذنه . قال تعالى : (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه ، بل عباد مكرمون * لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون * يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ، وهم من خشيته مشفقون * ومن يقل منهم إنى اله من دونه فذلك نجزيه جهنم ، كذلك نجزى الظالمين) .

ودل الحديث المتقدم على أن الرسول صلى الله عليه وسلم يستشفع به الى الله عز وجل : أى يطلب منه أن يسأل ربه الشفاعة فى الدنيا والآخرة ؛ فأما فى الآخرة فيطلب منه الخلق الشفاعة فى أن يقضى الله بينهم ، وفى أن يدخلوا الجنة ، ويشفع فى أهل الكبائر من أمته ، ويشفع فى بعض من يستحق النار أن لا يدخلها ، ويشفع فى بعض من دخلها أن يخرج منها .

ولا نزاع بين جماهير الأمة أنه يجوز أن يشفع لأهل الطاعة المستحقين للثواب .

ولكن كثيراً من أهل البدع والخوارج والمعتزلة أنكروا شفاعته لأهل الكبائر ، فقالوا : لا يشفع لأهل الكبائر ، بناء على أن أهل الكبائر عندهم لا يغفر الله لهم ولا يخرجهم من النار بعد أن يدخلوها لا بشفاعة ولا غيرها ، ومذهب الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين وسائر أهل السنة والجماعة أنه صلى الله عليه وسلم يشفع فى أهل الكبائر ، وأنه لا يخلد فى النار من أهل الإيمان أحد ؛ بل يخرج من النار من فى قلبه مثقال حبة من إيمان أو مثقال ذرة من إيمان ، لكن هذا الاستسقاء والاستشفاع والتوسل به وبغيره كان يكون فى حياته ، بمعنى أنهم يطلبون منه الدعاء فيدعو لهم ، فكان توسلهم بدعائه ، والاستشفاع به طلب شفاعته ، والشفاعة دعاء .

فأما التوسل بذاته فى حضوره أو مغيبه أو بعد موته — مثل الإقسام بذاته أو بغيره من الأنبياء أو السؤال بنفس ذواتهم لا بدعائهم — فليس هذا مشهوراً عند الصحابة والتابعين ، بل عمر بن الخطاب ومعاوية بن أبى سفيان ومن بحضرتهما من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين لهم بإحسان لما أجدبوا استسقوا وتوسلوا واستشفعوا بمن كان حياً كالعباس وكيزيد بن الأسود ، ولم يتوسلوا ولم يستشفعوا ولم يستسقوا فى هذه الحال بالنبى صلى الله عليه وسلم لا عند قبره ولا غير قبره ، بل عدلوا الى البدل كالعباس

وكيزيد ، بل كانوا يصلون عليه فى دعائهم ، وقد قال عمر : اللهم انا كنا نتوسل اليك بنبينا فتسقينا ، وانا نتوسل اليك بعم نبينا فاسقنا .

فجعلوا هذا بدلا عن ذلك لما تعذر أن يتوسلوا به على الوجه المشروع الذى كانوا يفعلونه . وقد كان من الممكن أن يأتوا الى قبره فيتوسلوا به ويقولوا فى دعائهم فى الصحراء بالجاه ونحو ذلك من الألفاظ التى تتضمن القسم بمخلوق على الله عز وجل أو السؤال به ؛ فيقولون : نسألك أو نقسم عليك بنبيك أو بجاه نبيك ، ونحو ذلك مما يفعله بعض الناس .

وروى بعض الجهال عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : إذا سألتم الله فاسألوه بجاهى ، فإن جاهى عند الله عظيم ؛ وهذا الحديث كذب ليس فى شىء من كتب المسلمين التى يعتمد عليها أهل الحديث ، ولا ذكره أحد من أهل العلم بالحديث ، مع أن جاهه عند الله تعالى أعظم من جاه جميع الأنبياء والمرسلين ، وقد أخبرنا سبحانه عن موسى وعيسى عليهما السلام أنهما وجيهان عند الله ، فقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً) وقال تعالى : (اذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيهاً فى الدنيا والآخرة ومن المقربين) .

فاذا كان موسى وعيسى وجيهين عند الله عز وجل ؛ فكيف بسيد ولد آدم صاحب المقام المحمود الذى يغبطه به الأولون والآخرون ؛ وصاحب الكوثر

والحوض المورود الذى آنيته عدد نجوم السماء ، وماؤه أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل ، ومن شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدا؟

وهو صاحب الشفاعة يوم القيامة حين يتأخر عنها آدم ، وأولو العزم — نوح ، وابراهيم ، وموسى ، وعيسى — صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، ويتقدم هو اليها ، وهو صاحب اللواء ، آدم ومن دونه تحت لوائه ، وهو سيد ولد آدم وأكرمهم على ربه عز وجل ، وهو امام الأنبياء اذا اجتمعوا ، وخطيبهم اذ وفدوا . ذو الجاه العظيم صلى الله عليه وسلم وعلى آله .

ولكن جاه المخلوق عند الخالق تعالى ليس كجاه المخلوق عند المخلوق ، فانه لا يشفع عنده أحد الا باذنه : (ان كل من فى السموات والأرض الا آتى الرحمن عبدا * لقد أحصاهم وعدهم عدا) وقال تعالى : (لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون ، ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم اليه جميعا * فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله ، وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابا أليما ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيرا) .

والمخلوق يشفع عند المخلوق بغير اذنه فهو شريك له فى حصول المطلوب ، والله تعالى لا شريك له ، كما قال سبحانه : (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير * ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) .

وقد استفاضت الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن اتخاذ القبور مساجد، ولعن من يفعل ذلك، ونهى عن اتخاذ قبره عيدا، وذلك لأن أول ما حدث الشرك فى بنى آدم كان فى قوم نوح.

قال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام. وثبت ذلك فى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أن نوحا أول رسول بعثه الله الى أهل الأرض، وقد قال الله تعالى عن قومه انهم قالوا: (لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودآ ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا وقد أضلوا كثيرا).

قال غير واحد من السلف: هؤلاء كانوا قوما صالحين فى قوم نوح، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم، فلما طال عليهم الأمد عبدوهم؛ وقد ذكر البخارى فى صحيحه هذا عن ابن عباس، وذكر أن هذه الآلهة صارت إلى العرب، وسمى قبائل العرب الذين كانت فيهم هذه الأصنام.

فلما علمت الصحابة رضوان الله عليهم أن النبي صلى الله عليه وسلم حسم مادة الشرك بالنهى عن اتخاذ القبور مساجد - وان كان المصلى يصلى لله عز وجل، كما نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس لئلا يشابه المصلين للشمس؛ وان كان المصلى انما يصلى لله تعالى، وكان الذى يقصد الدعاء بالميت أو عند قبره أقرب الى الشرك من الذى لا يقصد الا الصلاة لله عز وجل — لم يكونوا يفعلون ذلك.

وكذلك علم الصحابة أن التوسل به انما هو التوسل بالإيمان به وطاعته

ومحبته وموالاته ، أو التوسل بدعائه وشفاعته ، فلهذا لم يكونوا يتوسلون بذاته مجردة عن هذا وهذا .

فلما لم يفعل الصحابة رضوان الله عليهم شيئا من ذلك ، ولا دعوا بمثل هذه الأدعية — وهم أعلم منا وأعلم بما يحب الله ورسوله ، وأعلم بما أمر الله به رسوله من الأدعية ، وما هو أقرب الى الإجابة منا ، بل توسلوا بالعباس وغيره ممن ليس مثل النبي صلى الله عليه وسلم ـ دل عدولهم عن التوسل بالأفضل الى التوسل بالمفضول أن التوسل المشروع بالافضل لم يكن ممكنا .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : « اللهم لا تجعل قبرى وثنا يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » رواه مالك فى موطأه ورواه غيره ، وفى سنن أبى داود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا تتخذوا قبرى عيدا ، وصلوا على حيثما كنتم فان صلاتكم تبلغنى » وفى الصحيحين أنه قال فى مرض موته «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» يحذر ما فعلوا ، قالت عائشة : ولولا ذلك لأبرز قبره ، ولكن كره أن يتخذ مسجدا .

وفى صحيح مسلم عن جندب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال قبل أن يموت بخمس « إنى ابرأ إلى الله أن يكون لى منكم خليل ، ولو كنت متخذا من أمتى خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، فان الله قد اتخذنى خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا ، إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فانى أنهاكم عن ذلك » وفى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه

قال : « لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى بن مريم ، فانما أنا عبد فقولوا : عبد الله ورسوله » .

وقد روى الترمذى حديثا صحيحاً عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه علم رجلا أن يدعو فيقول: «اللهم إنى أسألك وأتوسل إليك بنبيك محمد نبي الرحمة ، يا محمد يا رسول الله ! إنى أتوسل بك إلى ربى فى حاجتى ليقضيها لى ، اللهم شفعه فى » . وروى النسائى نحو هذا الدعاء .

وفى الترمذى وابن ماجه عن عثمان بن حنيف ان رجلا ضريراً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ادع الله أن يعافينى فقال : إن شئت دعوت ، وان شئت صبرت ، فهو خير لك . فقال: فادعه . فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء « اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة ، يا رسول الله ! يا محمد ! إنى توجهت بك الى ربى فى حاجتى هذه لتقضى ، اللهم فشفعه فى » قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .

ورواه النسائى عن عثمان بن حنيف ولفظه أن رجلا أعمى قال : يا رسول الله ! ادع الله أن يكشف لى عن بصرى . قال « فانطلق فتوضأ ثم صل ركعتين ثم قل : اللهم إنى أسألك وأتوجه اليك بنبيك محمد نبي الرحمة ، يامحمد ! انى أتوجه بك الى ربى أن يكشف عن بصرى ، اللهم فشفعه فى » قال فرجع وقد كشف الله عن بصره .

وقال الإمام أحمد فى مسنده : حدثنا روح حدثنا شعبة عن عمير بن يزيد

الخطمى المدينى قال : سمعت عمارة بن خزيمة بن ثابت يحدث عن عثمان بن حنيف أن رجلا ضريراً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يانبى الله ! ادع الله أن يعافينى فقال « إن شئت أخرت ذلك فهو خير لآخرتك ، وان شئت دعوت لك » قال : لا ! بل ادع الله لى ، فأمره أن يتوضأ ، وأن يصلى ركعتين ، وان يدعو بهذا الدعاء : « اللهم انى أسألك وأتوجه اليك بنبيك محمد نبي الرحمة ، يا محمد إنى أتوجه بك الى ربى فى حاجتى هذه فتقضى ، اللهم فشفعنى فيه وشفعه فى » . قال ففعل الرجل فبرأ .

فهذا الحديث فيه التوسل به الى الله فى الدعاء .

فمن الناس من يقول : هذا يقتضى جواز التوسل به مطلقاً حيا وميتاً . وهذا يحتج به من يتوسل بذاته بعد موته وفى مغيبه ، ويظن هؤلاء أن توسل الأعمى والصحابة فى حياته كان بمعنى الإقسام به على الله أو بمعنى أنهم سألوا الله بذاته أن يقضى حوائجهم ، ويظنون أن التوسل به لايحتاج الى أن يدعو هو لهم، ولا الى أن يطيعوه ، فسواء عند هؤلاء دعا الرسول لهم أو لم يدع ، الجميع عندهم توسل به ، وسواء أطاعوه أو لم يطيعوه، ويظنون أن الله تعالى يقضى حاجة هذا الذى توسل به بزعمهم ولم يدع له الرسول ، كما يقضى حاجة هذا الذى توسل بدعائه ودعاله الرسول صلى الله عليه وسلم ، اذ كلاهما متوسل به عندهم ، ويظنون أن كل من سأل الله تعالى بالنبي صلى الله عليه وسلم فقد توسل به كما توسل به ذلك الأعمى ، وان ما أمر به الأعمى مشروع لهم . وقول هؤلاء باطل شرعا وقدرا ، فلا هم موافقون لشرع الله ، ولا ما يقولونه مطابق لخلق الله .

ومن الناس من يقولون : هذه قضية عين يثبت الحكم فى نظائرها التى تشبهها فى مناط الحكم ، لا يثبت الحكم بها فيما هو مخالف لها لا مماثل لها ، والفرق ثابت شرعا وقدراً بين من دعا له النبى صلى الله عليه وسلم وبين من لم يدع له ، ولا يجوز أن يجعل أحدهما كالآخر .

وهذا الأعمى شفع له النبى صلى الله عليه وسلم فلهذا قال فى دعائه « اللهم فشفعه فى » . فعلم أنه شفيع فيه ، ولفظه : « ان شئت صبرت وان شئت دعوت لك » فقال : ادع لى ؛ فهو طلب من النبي صلى الله عليه وسلم ان يدعو له ، فأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يصلى ويدعو هو أيضاً لنفسه ويقول فى دعائه « اللهم فشفعه فى » فدل ذلك على أن معنى قوله : « أسألك وأتوجه اليك بنبيك محمد » أى بدعائه وشفاعته كما قال عمر « اللهم انا كنا اذا أجدبنا توسلنا اليك بنبينا فتسقينا » .

فالحديثان معناهما واحد ، فهو صلى الله عليه وسلم علم رجلا أن يتوسل به فى حياته ، كما ذكر عمر أنهم كانوا يتوسلون به اذا أجدبوا ، ثم انهم بعد موته انما كانوا يتوسلون بغيره بدلا عنه .

فلو كان التوسل به حياً وميتاً سواء ، والمتوسل به الذى دعا له الرسول ، كمن لم يدع له الرسول ، لم يعدلوا عن التوسل به — وهو أفضل الخلق وأكرمهم على ربه ، وأقربهم اليه وسيلة — الى أن يتوسلوا بغيره ممن ليس مثله .

وكذلك لو كان أعمى توسل به ولم يدع له الرسول بمنزلة ذلك الأعمى ، لكان عميان الصحابة أو بعضهم يفعلون مثل ما فعل الأعمى ، فعدو لهم عن هذا إلى هذا — مع أنهم السابقون الأولون المهاجرون والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ، فإنهم أعلم منا بالله ورسوله ، وبحقوق الله ورسوله ، وما يشرع من الدعاء وينفع ، وما لم يشرع ولا ينفع ، وما يكون أنفع من غيره ، وهم فى وقت ضرورة ومخمصة وجدب يطلبون تفريج الكربات ، وتيسير العسير ، وإنزال الغيث بكل طريق ممكن — دليل على أن المشروع ما سلكوه دون ما تركوه .

ولهذا ذكر الفقهاء فى كتبهم فى الاستسقاء مافعلوه دون ما تركوه ، وذلك أن التوسل به حياً هو الطلب لدعائه وشفاعته وهو من جنس مسألته أن يدعو لهم ، وهذا مشروع ؛ فما زال المسلمون يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حياته أن يدعو لهم .

وأما بعد موته ، فلم يكن الصحابة يطلبون منه الدعاء ، لا عند قبره ولا عند غير قبره ، كما يفعله كثير من الناس عند قبور الصالحين ؛ يسأل أحدهم الميت حاجته ، أو يقسم على الله به ونحو ذلك .

وإن كان قد روى فى ذلك حكايات عن بعض المتأخرين ؛ بل طلب الدعاء مشروع من كل مؤمن لكل مؤمن ، حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر لما استأذنه فى العمرة : « لا تنسنا يا أخى من دعائك » — إن صح

الحديث — وحتى أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يطلب من أويس القرنى أن يستغفر للطالب وإن كان الطالب أفضل من أويس بكثير[1] .

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول : ، ثم صلوا علىّ فإنه من صلى على مرة صلى الله عليه عشراً ثم سلوا الله لى الوسيلة فإنها درجة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا ذلك العبد ، فمن سأل الله لى الوسيلة حلت عليه شفاعتى يوم القيامة » مع أن طلبه من أمته الدعاء ليس هو طلب حاجة من المخلوق ، بل هو تعليم لأمته ما ينتفعون به فى دينهم ، وبسبب ذلك التعليم والعمل بما علمهم يعظم الله أجره :

فإنا اذا صلينا عليه مرة صلى الله علينا عشرا ، واذا سألنا الله له الوسيلة ، حلت علينا شفاعته يوم القيامة ، وكل ثواب يحصل لنا على أعمالنا فله مثل أجرنا من غير أن ينقص من أجرنا شيء ؛ فإنه صلى الله عليه وسلم قال : « من دعا الى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه من غير أن ينقص ذلك من أجورهم شيئاً » وهو الذى دعا أمته الى كل خير ، وكل خير تعمله أمته له مثل أجورهم من غير أن ينقص من أجورهم شيء .

ولهذا لم يكن الصحابة والسلف يهدون اليه ثواب أعمالهم ولا يحجون عنه

---

(١) عبارة الرسالة المفردة « حتى أنه أمر عمر أن يطلب من اويس القرني أن يستغفر له مع أن عمر رضي الله عنه افضل من اويس بكثير وقد أمر أمته أن يسألوا الله له الوسيلة وأن يصلوا عليه » .

ولا يتصدقون ولا يقرءون القرآن ويهدون له ، لأن كل ما يعمله المسلمون من صلاة وصيام وحج وصدقة وقراءة له صلى الله عليه وسلم مثل أجورهم من غير أن ينقص من أجورهم شيء ؛ بخلاف الوالدين ، فليس كل ما عمله المسلم من الخير يكون لوالديه مثل أجره ، ولهذا يهدى الثواب لوالديه وغيرهما .

ومعلوم أن الرسول صلى الله عليه وسلم مطيع لربه عز وجل فى قوله تعالى : (فإذا فرغت فانصب ، والى ربك فارغب) فهو صلى الله عليه وسلم لا يرغب الى غير الله ، وقد ثبت عنه فى الصحيح أنه قال : « يدخل من أمتى الجنة سبعون ألفاً بغير حساب ، هم الذين لا يسترقون ، ولا يكتوون ، ولا يتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون » .

فهؤلاء من أمته وقد مدحهم بأنهم لا يسترقون ، والاسترقاء أن يطلب من غيره أن يرقيه ، والرقية من نوع الدعاء ، وكان هو صلى الله عليه وسلم يرقى نفسه وغيره ، ولا يطلب من أحد أن يَرقيه ، ورواية من روى فى هذا : « لا يُرقون » ضعيفة غلط ؛ فهذا مما يبين حقيقه أمره لأمته بالدعاء أنه ليس من باب سؤال المخلوق للمخلوق الذى غيره أفضل منه ؛ فإن من لا يسأل الناس — بل لا يسأل إلا الله — أفضل ممن يسأل الناس ، ومحمد صلى الله عليه وسلم سيد ولد آدم .

ودعاء الغائب للغائب ، أعظم إجابة من دعاء الحاضر ، لأنه أكمل إخلاصاً وأبعد عن الشرك ، فكيف يشبه دعاء من يدعو لغيره بلا سؤال منه ، الى دعاء

من يدعو الله بسؤاله وهو حاضر ؟ وفى الحديث : « أعظم الدعاء إجابة دعاء غائب لغائب » وفى صحيح مسلم عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما من رجل يدعو لأخيه بظهر الغيب بدعوة الا وكل الله به ملكا كلما دعا لأخيه بدعوة قال الملك الموكل به : آمين ولك بمثله[1] » .

وذلك أن المخلوق يطلب من المخلوق ما يقدر المخلوق عليه ، والمخلوق قادر على دعاء الله ومسألته ، فلهذا كان طلب الدعاء جائزا ، كما يطلب منه الاعانة بما يقدر عليه والأفعال التى يقدر عليها .

فاما ما لا يقدر عليه إلا الله تعالى ، فلا يجوز أن يطلب إلا من الله سبحانه ، لا يطلب ذلك لا من الملائكة ، ولا من الأنبياء ، ولا من غيرهم ، ولا يجوز أن يقال لغير الله : اغفر لى ، واسقنا الغيث ، وانصرنا على القوم الكافرين ، أو اهد قلوبنا ، ونحو ذلك ، ولهذا روى الطبرانى فى معجمه أنه كان فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم منافق يؤذى المؤمنين ، فقال الصديق : قوموا بنا نستغيث برسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا المنافق ، فجاءوا اليه فقال « إنه لا يستغاث بى ، وإنما يستغاث بالله » وهذا فى الإستعانة مثل ذلك .

فاما ما يقدر عليه البشر ، فليس من هذا الباب ، وقد قال سبحانه :

---

(١) وفي الرسالة المفردة زيادة وهي مابين القوسين [فالطالب للدعاء من غيره نوعان : أحدهما أن يكون سؤاله على وجه الحاجة اليه فهو بمنزلة ان يسأل الغائب قضاء حوائجه ، والثاني أن يطلب منه الدعاء لينتفع الداعى بدعائه له وينتفع هو فينتفع به هذا ، وهذا بذلك الدعاء كمن يطلب من المخلوق] .

(إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم) وفى دعاء موسى عليه السلام « اللهم لك الحمد . واليك المشتكى . واليك المستعان . وبك المستغاث ، وعليك التكلان ؛ ولا حول ولا قوة إلا بك » وقال أبو يزيد البسطامى : استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة الغريق بالغريق .

وقال أبو عبد الله القرشى : استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة المسجون بالمسجون ، وقال تعالى : (قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا * أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ، إن عذاب ربك كان محذوراً) .

قال طائفة من السلف : كان أقوام يدعون الملائكة والأنبياء فقال الله تعالى : هؤلاء الذين تدعونهم هم عبادى كما أنتم عبادى ، يرجون رحمتى كما ترجون رحمتى ، ويخافون عذابى كما تخافون عذابى ويتقربون الى كما تتقربون الى فنهى سبحانه عن دعاء الملائكة والأنبياء ، مع اخباره لنا أن الملائكة يدعون لنا ويستغفرون ، ومع هذا فليس لنا أن نطلب ذلك منهم .

وكذلك الأنبياء والصالحون ، وان كانوا أحياء فى قبورهم . وان قدر أنهم يدعون للأحياء وان وردت به آثار فليس لاحد أن يطلب منهم ذلك ، ولم يفعل ذلك أحد من السلف ، لان ذلك ذريعة الى الشرك بهم وعبادتهم من دون الله تعالى ؛ بخلاف الطلب من أحدهم فى حياته ، فانه لا يفضى الى الشرك ؛ ولان ما تفعله الملائكة ويفعله الانبياء والصالحون بعد الموت هو بالامر الكونى

فلا يؤثر فيه سؤال السائلين ، بخلاف سؤال أحدهم فى حياته فانه يشرع اجابة السائل ، وبعد الموت انقطع التكليف عنهم .

وقال تعالى : (ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لى من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون * ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً ، أيأمركم بالكفر بعد اذ أنتم مسلمون) .

فبين سبحانه أن من اتخذ الملائكة والنبيين أربابا فهو كافر ، وقال تعالى : (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الارض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم ظهير * ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) وقال تعالى : (من ذا الذى يشفع عنده إلا باذنه) وقال تعالى : (ما من شفيع إلا من بعد إذنه) وقال تعالى : (ما لكم من دونه من ولى ولا شفيع) وقال تعالى : (ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ، ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون) وقال تعالى عن صاحب يس : (وما لى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون * أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عنى شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون * إنى إذا لفى ضلال مبين * إنى آمنت بربكم فاسمعون) وقال تعالى : (ولا تنفع الشفاعة عنده الا لمن أذن له) وقال تعالى : (يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا) وقال تعالى : (ولا يشفعون الا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون) .

فالشفاعة نوعان :ـ

أحدهما : الشفاعة التى نفاها الله تعالى كالتى أثبتها المشركون ، ومن ضاهاهم من جهال هذه الأمة ، وضلالهم ؛ وهى شرك .

والثانى : أن يشفع الشفيع بإذن الله . وهذه التى أثبتها الله تعالى لعباده الصالحين ، ولهذا كان سيد الشفعاء اذا طلب منه الخلق الشفاعة يوم القيامة يأتى ويسجد . قال: «فأحمد ربى بمحامد يفتحها على لا أحسنها الآن ، فيقال : أى محمد ارفع رأسك وقل يسمع ، وسل تعطه ، واشفع تشفع » فاذا أذن له فى الشفاعة شفع صلى الله عليه وسلم لمن أراد الله أن يشفع فيه .

قال أهل هذا القول : ولا يلزم من جواز التوسل والاستشفاع به — بمعنى أن يكون هو داعياً للمتوسل به — أن يشرع ذلك فى مغيبه ، وبعد موته ؛ مع أنه هو لم يدع للمتوسل به ، بل المتوسل به أقسم به أو سأل بذاته ، مع كون الصحابة فرقوا بين الأمرين ؛ وذلك لأنه فى حياته يدعو هو لمن توسل به ، ودعاؤه هو لله سبحانه أفضل دعاء الخلق ، فهو أفضل الخلق وأكرمهم على الله ، فدعاؤه لمن دعا له وشفاعته له أفضل دعاء مخلوق لمخلوق ، فكيف يقاس هذا بمن لم يدع له الرسول ، ولم يشفع له؟ ومن سوى بين من دعا له الرسول ، وبين من لم يدع له الرسول ، وجعل هذا التوسل كهذا التوسل ، فهو من أضل الناس .

وأيضاً فانه ليس فى طلب الدعاء منه ودعائه هو والتوسل بدعائه ضرر ،

بل هو خير بلا شر ، وليس فى ذلك محذور ولا مفسدة ، فان أحداً من الأنبياء عليهم السلام لم يعبد فى حياته بحضور فانه ينهى من يعبده ويشرك به ولو كان شركا أصغر ، كما نهى النبي صلى الله عليه وسلم من سجد له عن السجود له ، وكما قال «لا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد ، ولكن قولوا : ماشاء الله ثم شاء محمد» وأمثال ذلك .

وأما بعد موته ، فيخاف الفتنة والإشراك به كما أشرك بالمسيح ، والعزير ، وغيرهما عند قبورهم ، . ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم « لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى بن مريم فانما أنا عبد ، فقولوا : عبد الله ورسوله » أخرجاه فى الصحيحين وقال « اللهم لا تجعل قبرى وثناً يعبد » وقال « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » يحذر ما فعلوا .

وبالجملة فعنا أصلان عظيمان ، أحدهما : أن لا نعبد إلا الله . والثانى : أن لا نعبده إلا بما شرع ، لا نعبده بعبادة مبتدعة .

وهذان الأصلان هما تحقيق « شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله » كما قال تعالى (ليبلوكم أيكم أحسن عملا) .

قال الفضيل بن عياض : أخلصه وأصوبه . قالوا : يا أبا على ما أخلصه وأصوبه ؟ قال : ان العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صوابا لم يقبل ، وإذا كان صوابا ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً . والخالص ان يكون لله ، والصواب أن يكون على السنة . وذلك تحقيق قوله تعالى : (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ، ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) .

وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يقول فى دعائه : اللهم اجعل عملى كله صالحا ، واجعله لوجهك خالصاً ، ولا تجعل لأحــــد فيه شيئاً . وقال تعالى : (أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ؟) .

وفى الصحيحين عن عائشة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » وفى لفظ فى الصحيح « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد » وفى الصحيح وغيره أيضاً يقول الله تعالى : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملا أشرك فيه غيرى فأنا منه برىء ، وهو كله للذى أشرك » .

ولهذا قال الفقهاء : العبادات مبناها على التوقيف كما فى الصحيحين عن عمر ابن الخطاب أنه قبـل الحجر الأسود وقال « والله إنى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك لمـا قبلتك » والله سبحانه أمرنا باتباع الرسـول وطاعته . وموالاته ومحبته . وأن يكون الله ورسوله أحبَّ الينا ممـا سواهما ، وضمن لنا بطاعته ومحبته محبـة الله وكرامته . فقال تعالى : (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم) وقال تعالى : (وان تطيعوه تهتدوا) وقال تعالى : (ومن يطع الله ورسـوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وذلك الفوز العظيم) ، وأمثال ذلك فى القرآن كثير .

ولا ينبغى لأحد أن يخرج فى هذا عما مضت به السنة ، وجاءت به الشريعة

ودل عليه الكتاب والسنة ، وكان عليه سلف الامة ، وما علمه قال به ، وما لم يعلمه أمسك عنه ، ولا يقفو ماليس به علم ، ولا يقول على الله مالم يعلم ، فإن الله تعالى قد حرم ذلك كله .

وقد جاء فى الاحاديث النبوية ذكر ماسأل الله تعالى به ، كقوله صلى الله عليه وسلم « اللهم انى أسألك بأن لك الحمد ، لا اله الا أنت المنان بديع السموات والارض ياذا الجلال والإكرام ، يا حي ، يا قيوم » رواه أبو داود وغيره ، وفى لفظ : « اللهم إنى أسألك بأنى أشهد أنك أنت الله لا إله الا أنت الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد » رواه أبو داود والنسائى وابن ماجه .

وقد اتفق العلماء على أنه لا تنعقد اليمين بغير الله تعالى ، وهو الحلف بالمخلوقات ؛ فلو حلف بالكعبة ، أو بالملائكة ؛ أو بالانبياء ، أو بأحد من الشيوخ ، أو بالملوك لم تنعقد يمينه ؛ ولا يشرع له ذلك ؛ بل ينهى عنه ، إما نهى تحريم ؛ واما نهى تنزيه . فإن للعلماء فى ذلك قولين . والصحيح أنه نهى تحريم . ففى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من كان حالفاً فليحلف بالله ، أو ليصمت » وفى الترمذى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « من حلف بغير الله فقد أشرك » ولم يقل أحد من العلماء المتقدمين انه تنعقد اليمين بأحد من الانبياء الا فى نبينا صلى الله عليه وسلم ؛ فإن عن أحمد روايتين فى أنه تنعقد اليمين به ، وقد طرد بعض أصحابه ـ كابن عقيل ـ الخلاف فى سائر الانبياء وهذا ضعيف .

وأصل القول بانعقاد اليمين بالنبي ضعيف شاذ ولم يقل به أحد من العلماء

فيما نعلم ، والذى عليه الجمهور كمالك والشافعى وأبى حنيفة أنه لا تنعقد اليمين به كإحدى الروايتين عن أحمد ، وهذا هو الصحيح .

وكذلك الاستعاذة بالمخلوقات ، بل إنما يستعاذ بالخالق تعالى وأسمائه وصفاته ، ولهذا احتج السلف — كأحمد وغيره — على أن كلام الله غير مخلوق فيما احتجوا به بقول النبى صلى الله عليه وسلم : « أعوذ بكلمات الله التامات » قالوا : فقد استعاذ بها ، ولا يستعاذ بمخلوق .

وفى الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا بأس بالرقى ما لم تكن شركا » فنهى عن الرقى التى فيها شرك ، كالتى فيها استعاذة بالجن كما قال تعالى : (وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً) .

ولهذا نهى العلماء عن التعازيم ، والإقسام التى يستعملها بعض الناس فى حق المصروع وغيره ، التى تتضمن الشرك ؛ بل نهوا عن كل ما لا يعرف معناه من ذلك خشية أن يكون فيه شرك ، بخلاف ما كان من الرقى المشروعة ، فإنه جائز . فإذا لا يجوز أن يقسم لا قسما مطلقاً ، ولا قسما على غيره إلا بالله عز وجل ، ولا يستعيذ إلا بالله عز وجل .

والسائل لله بغير الله إما أن يكون مقسما عليه ، واما أن يكون طالباً بذلك السبب : كما توسل الثلاثة فى الغار بأعمالهم ؛ وكما يتوسل بدعاء الانبياء والصالحين .

فإن كان إقساماً على الله بغيره فهذا لا يجوز .

وإن كان سؤالا بسبب يقتضى المطلوب كالسؤال بالأعمال التى فيها طاعة الله ورسوله ، مثل السؤال بالإيمان بالرسول ومحبته ، وموالاته ونحو ذلك فهذا جائز.

وان كان سؤالا بمجرد ذات الأنبياء والصالحين فهذا غير مشروع ، وقد نهى عنه غير واحد من العلماء وقالوا : إنه لا يجوز ، ورخص فيه بعضهم والأول أرجح كما تقدم ، وهو سؤال بسبب لا يقتضى حصول المطلوب ، بخلاف من كان طالباً بالسبب المقتضى لحصول المطلوب ، كالطلب منه سبحانه بدعاء الصالحين ، وبالأعمال الصالحة ، فهذا جائز ؛ لأن دعاء الصالحين سبب لحصول مطلوبنا : الذى دعوا به ، وكذلك الأعمال الصالحة ، سبب لثواب الله لنا ، واذا توسلنا بدعائهم وأعمالنا كنا متوسلين اليه تعالى بوسيلة ، كما قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا اليه الوسيلة) والوسيلة هى الاعمال الصالحة . وقال تعالى : (أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة) .

وأما اذا لم نتوسل اليه سبحانه بدعائهم ، ولا بأعمالنا ، ولكن توسلنا بنفس ذواتهم لم يكن نفس ذواتهم سبباً يقتضى إجابة دعائنا ، فكنا متوسلين بغير وسيلة ولهذا لم يكن هذا منقولا عن النبى صلى الله عليه وسلم نقلا صحيحاً ، ولا مشهوراً عن السلف .

وقد نقل فى (منسك المروذى) عن أحمد دعاء فيه سؤال بالنبى صلى الله عليه وسلم ، وهذا قد يخرج على احدى الروايتين عنه فى جواز القسم به ،

وأكثر العلماء على النهى فى الأمرين ، ولا ريب أن لهم عند الله الجاه العظيم ـ كما قال تعالى فى حق موسى وعيسى عليهما السلام ، وقد تقدم ذكر ذلك ـ لكن ما لهم عند الله من المنازل والدرجات أمر يعود نفعه اليهم ، ونحن ننتفع من ذلك باتباعنا لهم ومحبتنا لهم ؛ فإذا توسلنا الى الله تعالى بإيماننا بنبيه ومحبته وموالاته واتباع سنته فهذا من أعظم الوسائل . وأما التوسل بنفس ذاته مع عدم التوسل بالإيمان به وطاعته فلا يجوز أن يكون وسيلة ، فالمتوسل بالمخلوق اذا لم يتوسل بالإيمان بالمتوسل به ولا بطاعته فبأى شيء يتوسل ؟.

والإنسان إذا توسل إلى غيره بوسيلة فإما أن يطلب من الوسيلة الشفاعة له عند ذلك ، مثل أن يقال لأبى الرجل أو صديقه أو من يكرم عليه : إشفع لنا عنده ، وهذا جائز .

وإما أن يقسم عليه ، كما يقول بحياة ولدك فلان ، وبتربة أبيك فلان وبحرمة شيخك فلان ونحو ذلك والإقسام على الله تعالى بالمخلوقين لا يجوز ، ولا يجوز الإقسام على مخلوق بمخلوق .

وإما أن يسأل بسبب يقتضى المطلوب ، كما قال الله تعالى : (واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام) وسيأتى بيان ذلك .

وقد تبين أن الإقسام على الله سبحانه بغيره لا يجوز ، ولا يجوز أن يقسم بمخلوق أصلا ، وأما التوسل اليه بشفاعة المأذون لهم فى الشفاعة فجائز ، والاعمى كان قد طلب من النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعو له كما طلب الصحابة منه

الاستسقاء ، وقوله « أتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة » أى بدعائه وشفاعته لى ، ولهذا تمام الحديث « اللهم فشفعه فى » . فالذى فى الحديث متفق على جوازه ، وليس هو مما نحن فيه ، وقد قال تعالى (واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام) .

فعلى قراءة الجمهور بالنصب : إنما يسألون بالله وحده ، لا بالرحم ، وتساؤلهم بالله تعالى يتضمن إقسام بعضهم على بعض بالله ، وتعاهدهم بالله .

وأما على قراءة الخفض ، فقد قال طائفة من السلف : هو قولهم أسألك بالله وبالرحم ، وهذا إخبار عن سؤالهم ، وقد يقال انه ليس بدليل على جوازه ، فان كان دليلا على جوازه ، فمعنى قوله أسألك بالرحم ليس إقساما بالرحم — والقسم هنا لا يسوغ — لكن بسبب الرحم ، أى لان الرحم توجب لاصحابها بعضهم على بعض حقوقا ، كسؤال الثلاثة لله تعالى بأعمالهم الصالحة ، وكسؤالنا بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم وشفاعته .

ومن هذا الباب ما روى عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب أن ابن أخيه عبد الله بن جعفر كان إذا سأله بحق جعفر أعطاه ، وليس هذا من باب الإقسام فإن الإقسام بغير جعفر أعظم ، بل من باب حق الرحم ، لان حق الله إنما وجب بسبب جعفر ، وجعفر حقه على علىّ .

ومن هذا الباب : الحديث الذى رواه ابن ماجه عن أبى سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم فى دعاء الخارج إلى الصلاة « اللهم إنى أسألك بحق السائلين عليك ، وبحق ممشاى هذا ، فانى لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا رياء ولا سمعة ،

ولكن خرجت اتقاء سخطك ، وابتغاء مرضاتك. أسألك أن تنقذنى من النار ، وأن تغفر لى ذنوبى ، فانه لا يغفر الذنوب الا أنت » . وهذا الحديث فى اسناده عطية العوفى وفيه ضعف ، فان كان من كلام النبي صلى الله عليه وسلم فهو من هذا الباب لوجهين :ـ

(أحدهما) لان فيه السؤال لله تعالى بحق السائلين ، وبحق الماشين فى طاعته ، وحق السائلين أن يجيبهم ، وحق الماشين أن يثيبهم ، وهذا حق أوجبه الله تعالى ، وليس للمخلوق أن يوجب على الخالق تعالى شيئا . ومنه قوله تعالى : (كتب ربكم على نفسه الرحمة) وقوله تعالى : (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) وقوله تعالى (وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله) .

وفى الصحيح فى حديث معاذ « حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ، وحق العباد على الله إذا فعلوا ذلك أن لا يعذبهم » .

وفى الصحيح عن أبى ذر عن النبى صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى أنه قال « يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما . فلا تظالموا » .

وإذا كان حق السائلين والعابدين له هو الإجابة والإثابة ، بذلك فذاك سؤال الله بأفعاله ، كالإستعاذة بنحو ذلك فى قوله صلى الله عليه وسلم «أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك ،

أنت كما أثنيت على نفسك » فالاستعاذة بمعافاته التى هى فعله ، كالسؤال بإثابته التى هى فعـــله .

وروى الطبرانى فى (كتاب الدعاء) عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الله يقول : « ياعبدى إنمـا هى أربع : واحدة لى ، وواحدة لك ، وواحدة بينى وبينك ، وواحدة بينك وبين خلقى ؛ فالتى لى أن تعبدنى لا تشرك بى شيئاً ، والتى هى لك أجزيك بهـا أحوج ماتـكون اليه ، والتى بينى وبينك منك الدعاء ومنى الإجابة ، والتى بينك وبين خلقى فأت الى الناس ماتحب أن يأتوه اليك » .

وتقسيمه فى الحديث الى قوله : واحدة لى ، وواحدة لك ، هو مثل تقسيمه فى حديث الفاتحة ، حيث يقول الله تعالى : « قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين ؛ نصفها لى ، ونصفها لعبدى ، ، ولعبدى ما سأل ، والعبد يعود عليه نفع النصفين ، والله تعالى يحب النصفين ؛ لـكن هو سبحانه يحب أن يعبد ؛ ومايعطيه العبد من الإعانة ، والهداية هو وسيـــلة إلى ذلك فانمـا يحبه لـكونه طريقا إلى عبادته ، والعبد يطلب ما يحتاج إليه أولا ؛ وهو محتاج إلى الإعانة على العبادة ، والهداية إلى الصراط المستقيم ؛ وبذلك يصل إلى العبادة ، إلى غير ذلك مما يطول الـكلام فيما يتعلق بذلكَ وليس هذا موضعه ، وان كنا خرجنا عن المراد .

(الوجه الثانى) أن الدعاء له سبحانه وتعالى ، والعمل له سبب لحصول مقصود العبد ، فهو كالتوسل بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم والصالحين من أمته ، وقد تقدم أن الدعاء بالنبي صلى الله عليه وسلم والصالح إما أن يكون إقساما به ،

أو سبباً به ، فإن كان قوله « بحق السائلين عليك » إقساما فلا يقسم على الله إلا به وإن كان سبباً فهو سبب بما جعله هو سبحانه سبباً ، وهو دعاؤه وعبادته . فهذ كله يشبه بعضه بعضا ، وليس فى شىء من ذلك دعاء له بمخلوق من غير دعاء منه ، ولا عمل صالح منا .

وإذا قال السائل: أسألك بحق الملائكة ، أو بحق الأنبياء ، وحق الصالحين؛ ولا يقول لغيره أقسمت عليك بحق هؤلاء ـ فإذا لم يجز له أن يحلف به ، ولا يقسم على مخلوق به ، فكيف يقسم على الخالق به ؟ وإن كان لا يقسم به وإنما يتسبب به ، فليس فى مجرد ذوات هؤلاء سبب يوجب تحصيل مقصوده ، ولكن لا بد من سبب منه ، كالإيمان بالملائكة والأنبياء ، أو منهم كدعائهم . ولكن كثيراً من الناس تعودوا ذلك كما تعودوا الحلف بهم ، حتى يقول أحدهم : وحقك على الله ، وحق هذه الشيبة على الله .

وإذا قال القائل : أسألك بحق فلان ، أو بجاهه : أى أسألك بإيمانى به ، ومحبتى له ، وهذا من أعظم الوسائل . قيل : من قصد هذا المعنى ، فهو معنى صحيح لكن ليس هذا مقصود عامة هؤلاء ، فمن قال : أسألك بإيمانى بك وبرسولك ونحو ذلك ، أو بإيمانى برسولك ومحبتى له ونحو ذلك ، فقد أحسن فى ذلك كما قال تعالى فى دعاء المؤمنين : (ربنا إننا سمعنا منادياً ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيآتنا وتوفنا مع الأبرار) وقال تعالى : (الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار) وقال تعال : (إنه كان فريق من عبادى يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وانت

خير الراحمين) وقال تعالى : (ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين) .

وكان ابن مسعود يقول : اللهم أمرتنى فأطعت ، ودعوتنى فأجبت ، وهذا سحر فاغفر لى . ومن هذا الباب حديث الثلاثة الذين أصابهم المطر ، فأووا إلى الغار ، وانطبقت عليهم الصخرة ، ثم دعوا الله سبحانه بأعمالهم الصالحة ، ففرج عنهم وهو ما ثبت فى الصحيحين .

وقال أبو بكر بن أبى الدنيا : حدثنا خالد بن خراش العجلانى واسماعيل بن ابراهيم ، قالا حدثنا صالح المرى عن ثابت عن أنس قال : دخلنا على رجل من الأنصار وهو مريض ثقيل ، فلم نبرح حتى قبض ، فبسطنا عليه ثوبه ، وله أم عجوز كبيرة عند رأسه ، فالتفت اليها بعضنا وقال : يا هذه احتسبى مصيبتك عند الله . قالت : وما ذاك ، مات ابنى ؟ قلنا : نعم . قالت : أحق ما تقولون ؟ قلنا : نعم . فمدت يديها الى الله فقالت : اللهم إنك تعلم أنى أسلمت وهاجرت إلى رسولك رجاء أن تعقبنى عند كل شدة فرجا ، فلا تحمل على هذه المصيبة اليوم . قال : فكشفت الثوب عن وجهه ، فما برحنا حتى طعمنا معه ! .

وروى فى كتاب الحلية لأبى نعيم أن داود قال : بحق آبائى عليك ، ابراهيم واسحاق ويعقوب . فأوحى الله تعالى اليه : ياداود ! وأى حق لآبائك على ؟ وهذا وإن لم يكن من الأدلة الشرعية فالإسرائيليات يعتضد بها ، ولا يعتمد عليها .

وقد مضت السنة أن الحى يطلب منه الدعاء كما يطلب منه سائر ما يقدر عليه .

وأما المخلوق الغائب والميت ، فلا يطلب منه شىء . يحقق هذا الأمر أن التوسل به والتوجه به لفظ فيه إجمال واشتراك بحسب الاصطلاح ، فمعناه فى لغة الصحابة أن يطلب منه الدعاء والشفاعة ، فيكونون متوسلين ومتوجهين بدعائه وشفاعته ، ودعاؤه وشفاعته صلى الله عليه وسلم من أعظم الوسائل عند الله عز وجل .

وأما فى لغة كثير من الناس فمعناه ان يسأل الله تعالى ويقسم عليه بذاته ، والله تعالى لا يقسم عليه بشىء من المخلوقات ، بل لا يقسم بها بحال ، فلا يقال أقسمت عليك يارب بملائكتك ، ولا بكعبتك ، ولا بعبادك الصالحين ، كما لا يجوز أن يقسم الرجل بهذه الأشياء ، بل إنما يقسم بالله تعالى بأسمائه وصفاته ، ولهذا كان السنة أن يسأل الله تعالى بأسمائه وصفاته فيقول « اسألك بأن لك الحمد ، لا اله الا انت المنان ، بديع السموات والأرض ياذا الجلال والإكرام ، ياحى يا قيوم ، واسألك بأنك انت الله الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد واسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك » الحديث كما جاءت به السنة .

وأما ان يسأل الله ويقسم عليه بمخلوقاته فهذا لا أصل له فى دين الاسلام : وكذلك قوله «اللهم انى اسألك بمعاقد العز من عرشك ، ومنتهى الرحمة من كتابك وباسمك الأعظم ، وجدك الأعلى ، وبكلماتك التامات » .

مع أن هذا الدعاء الثالث فى جواز الدعاء به قولان للعلماء ، قال الشيخ أبو الحسن القدورى فى كتابه المسمى بشرح الكرخى : قال بشر بن الوليد سمعت أبا يوسف قال : قال أبو حنيفة لا ينبغى لأحد أن يدعو الله إلا به ، وأكره أن يقول « بمعاقد العز من عرشك » أو « بحق خلقك » . وهو قول أبى يوسف قال أبو يوسف : « معقد العز من عرشه » هو الله ، فلا أكره هذا وأكره أن يقول : « بحق أنبيائك ورسلك ، وبحق البيت والمشعر الحرام » ، قال القدورى : المسألة بخلقه لا تجوز ، لأنه لا حق للمخلوق على الخالق ، فلا يجوز — يعنى وفاقا — وهذا من أبى حنيفة وأبى يوسف وغيرهما يقتضى المنع أن يسأل الله بغيره .

فان قيل : الرب سبحانه وتعالى يقسم بما شاء من مخلوقاته ، وليس لنا أن نقسم عليه إلا به . فهلا قيل : يجوز أن يقسم عليه بمخلوقاته ، وأن لا يقسم على مخلوق الا بالخالق تعالى ؟ قيل لان اقسامه بمخلوقاته من باب مدحه والثناء عليه وذكر آياته ، واقسامنا نحن بذلك شرك اذا أقسمنا به لحض غيرنا أو لمنعه أو تصديق خبر أو تكذيبه .

ومن قال لغيره : أسألك بكذا . فاما أن يكون مقسما فهذا لا يجوز بغير الله تعالى ، والكفارة فى هذا على المقسم لا على المقسم عليه ، كما صرح بذلك أئمة الفقهاء.وانلم يكن مقسما فهو من باب السؤال، فهذا لا كفارة فيه على واحد منهما.

فتبين أن السائل لله بخلقه إما أن يكون حالفا بمخلوق ، وذلك لا يجوز . وإما أن يكون سائلا به ، وقد تقدم تفصيل ذلك . وإذا قال « بالله افعل كذا »

فلا كفارة فيه على واحد منهما. وإذا قال « أقسمت عليك بالله لتفعلن » أو « والله لتفعلن » فلم يبر قسمه لزمت الكفارة الحالف .

والذى يدعو بصيغة السؤال فهو من باب السؤال به ، وأما إذا أقسم على الله تعالى مثل أن يقول : أقسمت عليك يارب لتفعلن كذا ، كما كان يفعل البراء بن مالك وغيره من السلف، فقد ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « رب أشعث أغبر ذى طمرين مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره » وفى الصحيح أنه قال ، لما قال أنس بن النضر : والذى بعثك بالحق لا تكسر ثنية الربيع ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم « يا أنس » كتاب الله القصاص » فعفا القوم ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم « إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره » وهذا من باب الحلف بالله لتفعلن هذا الأمر ، فهو إقسام عليه تعالى به وليس إقساما عليه بمخلوق .

وينبغى للخلق أن يدعوا بالأدعية الشرعية التى جاء بها الكتاب والسنة ، فان ذلك لا ريب فى فضله وحسنه ، وأنه الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

وقد تقدم أن ما يذكره بعض العامة من قوله صلى الله عليه وسلم: « إذا كانت لكم حاجة فاسألوا الله بجاهى » حديث باطل لم يروه أحد من أهل العلم ، ولا هو فى شىء من كتب الحديث ، وانما المشروع الصلاة عليه فى كل دعاء .

ولهذا لما ذكر العلماء الدعاء فى الاستسقاء وغيره ذكروا الصلاة عليه ، لم يذكروا فيما شرع للمسلمين فى هذه الحال التوسل به ، كما لم يذكر أحد من العلماء

دعاء غير الله والاستعانة المطلقة بغيره فى حال من الأحوال ؛ وان كان بينهما فرق ؛ فان دعاء غير الله كفر ، ولهذا لم ينقل دعاء أحد من الموتى والغائبين — لا الأنبياء ولا غيرهم — عن أحد من السلف وأئمة العلم ، وانما ذكره بعض المتأخرين ممن ليس من أئمة العلم المجتهدين ، بخلاف قولهم : أسألك بجاه نبينا أو بحقه ، فان هذا مما نقل عن بعض المتقدمين فعله ، ولم يكن مشهورا بينهم ، ولا فيه سنة عن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ بل السنة تدل على النهى عنه كما نقل ذلك عن أبى حنيفة وأبى يوسف وغيرهما .

ورأيت فى فتاوى الفقيه أبى محمد بن عبد السلام قال : لا يجوز أن يتوسل إلى الله بأحد من خلقه إلا برسول الله صلى الله عليه وسلم إن صح حديث الأعمى : فلم يعرف صحته ـ ثم رأيت عن أبى حنيفة ، وأبى يوسف وغيرهما من العلماء ، أنهم قالوا : لا يجوز الإقسام على الله بأحد من الأنبياء ، ورأيت فى كلام الإمام أحمد أنه فى النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لكن قد يخرج على إحدى الروايتين عنه فى جواز الحلف به ـ وقد تقدم أن هذا الحديث لا يدل الا على التوسل بدعائه ، ليس من باب الإقسام بالمخلوق على الله تعالى ، ولا من باب السؤال بذات الرسول كما تقدم . والذين يتوسلون بذاته لقبول الدعاء عدلوا عما أمروا به وشرع لهم — وهو من أنفع الامور لهم — الى ما ليس كذلك ، فإن الصلاة عليه من أعظم الوسائل التى بها يستجاب الدعاء وقد أمر الله بها .

والصلاة عليه فى الدعاء هو الذى دل عليه الكتاب والسنة والإجماع ، قال الله تعالى : (ان الله وملائكته يصلون على النبي ، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) .

وفى الصحيح عنه أنه قال . « من صلى علىّ مرة صلى الله عليه عشراً » وعن فضالة بن عبيد صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا يدعو فى صلاته لم يحمد الله ، ولم يصل على النبى صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « عجل هذا ! » ثم دعاه فقال له أو لغيره : « اذا صلى أحدكم فليبدأ بحمد ربه ثم يصلى على النبى ثم يدعو بعده بما شاء » رواه أحمد وأبو داود ـ وهذا لفظه ـ والترمذى والنسائى وقال الترمذى حديث صحيح.

وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « اذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا على ، فإنه من صلى على صلاة صلى الله عليه عشراً ثم سلوا الله لى الوسيلة فإنها درجة فى الجنة لا تنبغى الا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل الله لى الوسيلة حلت عليه الشفاعة » .

وفى سنن أبى داود والنسائى عنه أن رجلا قال : يا رسول الله إن المؤذنين يفضلوننا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قل كما يقولون . فإذا انتهيت سل تعطه » وفى المسند عن جابر بن عبد الله قال « من قال حين ينادى المنادى : اللهم رب هذه الدعوة القائمة والصلاة النافعة صل على محمد وارض عنه رضاء لا سخط بعده ، استجاب الله له دعوته » .

وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الدعاء لا يرد بين الأذان والإقامة » رواه أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى وقال الترمذى : حديث حسن .

وعن سهل بن سعد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ساعتان تفتح فيهما أبواب السماء قلما ترد على داع دعوته : عند حضور النداء ، والصف فى سبيل الله » رواه أبو داود .

وفى المسند والترمذى وغيرهما عن الطفيل بن أبى بن كعب عن أبيه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذهب ربع الليل قام فقال « يا أيها الناس اذكروا الله ، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة . جاء الموت بما فيه » .

قال أبىّ : قلت يارسول الله إنى أكثر الصلاة عليك فكم أجعل لك من صلاتى ؟ قال « ماشئت » قلت ، الربع ؟ قال : ماشئت ، وإن زدت فهو خير لك » قلت : النصف ؟ قال « ماشئت ، وان زدت فهو خير لك » قلت : الثلثين ؟ قال « ما شئت ، وان زدت فهو خير لك » قلت : أجعل لك صلاتى كلها ؟ قال « إذاً يكفيك الله ما أهمك من أمر دنياك وآخرتك » وفى لفظ « إذاً تكفى همك ، ويغفر ذنبك » .

وقول السائل : أجعل لك من صلاتى ؟ يعنى من دعائى ؛ فإن الصلاة فى اللغة هى الدعاء . قال تعالى : (وصلّ عليهم إن صلاتك سكن لهم) .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم « اللهم صل على آل أبى أوفى » وقالت : امرأة : صل علىّ يارسول الله وعلى زوجى ، فقال « صلى الله عليك وعلى زوجك » .

فيكون مقصود السائل أى يارسول الله ان لى دعاء أدعو به أستجلب به

الخير ، وأستدفع به الشر ، فكم أجعل لك من الدعاء ، قال : « ماشئت » فلما انتهى الى قوله : اجعل لك صلاتى كلها ؟ قال « اذاً تكفى همك ويغفر ذنبك » . وفى الرواية الأخرى « اذاً يكفيك الله ما أهمك من أمر دنياك وآخرتك » ، وهذا غاية ما يدعو به الإنسان من جلب الخيرات ودفع المضرات ؛ فإن الدعاء فيه تحصيل المطلوب ، واندفاع المرهوب ، كما بسط ذلك فى مواضعه .

وقد ذكر علماء الإسلام وأئمة الدين الأدعية الشرعية ، وأعرضوا عن الأدعية البدعية ، فينبغى اتباع ذلك . والمراتب فى هذا الباب ثلاث :ـ

(إحداها) أن يدعو غير الله وهو ميت أو غائب ، سواء كان من الانبياء والصالحين أو غيرهم فيقول : يا سيدى فلان أغثنى ، أو أنا أستجير بك ، أو أستغيث بك ، أو انصرنى على عدوى . ونحو ذلك فهذا هو الشرك بالله . والمستغيث بالمخلوقات قد يقضى الشيطان حاجته أو بعضها وقد يتمثل له فى صورة الذى استغاث به فيظن أن ذلك كرامة لمن استغاث به ؛ وانما هو شيطان دخله واغواه لما اشرك بالله ، كما يتكلم الشيطان فى الاصنام وفى المصروع وغير ذلك ومثل هذا واقع كثيرا فى زماننا وغيره وأعرف من ذلك ما يطول وصفه فى قوم استغاثوا بى أو بغيرى ، وذكروا أنه أتى شخص على صورتى أو صورة غيرى وقضى حوائجهم فظنوا أن ذلك من بركة الاستغاثة (بى) أو بغيرى ! وإنما هو شيطان أضلهم وأغواهم وهذا هو أصل عبادة الاصنام واتخاذ الشركاء مع الله تعالى فى الصدر الاول من القرون الماضية كما ثبت ذلك فهذا أشرك بالله نعوذ بالله من ذلك .

وأعظم من ذلك أن يقول : اغفر لى وتب على ، كما يفعله طائفة من الجهال المشركين .

وأعظم من ذلك أن يسجد لقبره ويصلى إليه ويرى الصلاة أفضل من استقبال القبلة ، حتى يقول بعضهم : هذه قبلة الخواص والكعبة قبلة العوام .

وأعظم من ذلك أن يرى السفر إليه من جنس الحج ، حتى يقول إن السفر اليه مرات يعدل حجة ، وغلاتهم يقولون : الزيارة اليه مرة أفضل من حج البيت مرات متعددة . ونحو ذلك ، فهذا شرك بهم ، وان كان يقع كثير من الناس فى بعضه .

(الثانية) أن يقال للميت أو الغائب من الانبياء والصالحين : ادع الله لى ، أو ادع لنا ربك ، أو اسأل الله لنا كما تقول النصارى لمريم وغيرها ـ فهذا أيضاً لا يستريب عالم أنه غير جائز،وأنه من البدع التى لم يفعلها أحد من سلف الامة ؛ وان كان السلام على أهل القبور جائزا ومخاطبتهم جائزة كما كان النبى صلى الله عليه وسلم يعلم أصحابه اذا زاروا القبور أن يقول قائلهم « السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ، وانا ان شاء الله بكم لاحقون . يغفر الله لنا ولكم نسأل الله لنا ولكم العافية . اللهم لا تحرمنا أجرهم ، ولا تفتنا بعدهم ، واغفر لنا ولهم » .

وروى أبو عمر بن عبد البر عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال: « ما من رجل يمر بقبر الرجل كان يعرفه فى الدنيا فيسلم عليه الا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام » .

وفى سنن أبى داود عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما من مسلم يسلم على إلا رد الله على روحى حتى أرد عليه السلام » لكن ليس من المشروع أن يطلب من الأموات لا دعاء ولا غيره . وفى موطأ مالك أن ابن عمر كان يقول : « السلام عليك يا رسول الله ، السلام عليك يا أبا بكر، السلام عليك يا أبة » ثم ينصرف .

وعن عبد الله بن دينار قال : رأيت عبد الله بن عمر يقف على قبر النبى صلى الله عليه وسلم فيصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، ويدعو لأبى بكر وعمر . وكذلك أنس بن مالك وغيره نقل عنهم أنهم كانوا يسلمون على النبى صلى الله عليه وسلم ، فاذا أرادوا الدعاء استقبلوا القبلة يدعون الله تعالى ، لا يدعون مستقبلى الحجرة ، وإن كان قد وقع فى بعض ذلك طوائف من الفقهاء والصوفية والعامة من لا اعتبار بهم ، فلم يذهب إلى ذلك امام متبع فى قوله ، ولا من له فى الامة لسان صدق عام .

ومذهب الأئمة الاربعة — مالك وأبى حنيفة والشافعى وأحمد — وغيرهم من أئمة الإسلام أن الرجل اذا سلم على النبى صلى الله عليه وسلم وأراد أن يدعو لنفسه فانه يستقبل القبلة . واختلفوا فى وقت السلام عليه فقال الثلاثة — مالك والشافعى وأحمد — : يستقبل الحجرة ويسلم عليه من تلقاء وجهه ، وقال أبو حنيفة : لا يستقبل الحجرة وقت السلام ، كما لا يستقبلها وقت الدعاء باتفاقهم .

ثم فى مذهبه قولان :ـ

قيل يستدبر الحجرة وقيل يجعلها عن يساره .

فهذا نزاعهم فى وقت السلام ، وأما فى وقت الدعاء فلم يتنازعوا فى أنه إنما يستقبل القبلة لا الحجرة [1] .

والحكاية التى تذكر عن مالك أنه قال للمنصور لما سأله عن استقبال الحجرة فأمره بذلك وقال : « هو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم » : كذب على مالك ليس لها إسناد معروف وهو خلاف الثابت المنقول عنه بأسانيد الثقات فى كتب أصحابه ، كما ذكره اسماعيل بن إسحاق القاضى وغيره ، مثل ما ذكروا عنه أنه سئل عن أقوام يطيلون القيام مستقبلى الحجرة يدعون لانفسهم ، فأنكر مالك ذلك ، وذكر أنه من البدع ، التى لم يفعلها الصحابة والتابعون لهم بإحسان ، وقال : لا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها .

ولا ريب أن الأمر كما قاله مالك ، فإن الآثار المتواترة عن الصحابة والتابعين تبين أن هذا لم يكن من عملهم وعادتهم ، ولو كان استقبال الحجرة عند الدعاء مشروعاً لكانوا هم أعلم بذلك ، وكانوا أسبق اليه ممن بعدهم والداعى يدعو الله وحده . وقد نهى عن استقبال الحجرة عند دعائه لله تعالى ، كما نهى عن استقبال الحجرة عند الصلاة لله تعالى كما ثبت فى صحيح مسلم وغيره عن أبى مرثد

---

(١) في الرسالة المفردة : بل قد تنازع العلماء فى السلام على النبي صلى الله عليه وسلم : فقال أبو حنيفة يستقبل القبلة ، ويستدبر القبر . وقال مالك والشافعي : بل يستقبل القبر ، وعند الدعاء يستقبل القبلة ، ويستدبر القبر ، ويجعل القبر عن يساره ، أو يمينه ، وهو الصحيح ، إذ لا محذور في ذلك .

الغنوىّ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا اليها» .

فلا يجوز أن يصلى الى شىء من القبور، لا قبور الأنبياء ولا غيرهم، لهذا الحديث الصحيح .

ولا خلاف بين المسلمين أنه لا يشرع أن يقصد الصلاة الى القبر، بل هذا من البدع المحدثة، وكذلك قصد شىء من القبور، لاسيما قبور الانبياء والصالحين عند الدعاء، فإذا لم يجز قصد استقباله عند الدعاء لله تعالى فدعاء الميت نفسه أولى أن لا يجوز، كما أنه لا يجوز أن يصلى مستقبله فلأن لا يجوز الصلاة له بطريق الاولى .

فعلم أنه لا يجوز أن يسأل الميت شيئاً : لا يطلب منه أن يدعو الله له ولا غير ذلك، ولا يجوز أن يشكى اليه شىء من مصائب الدنيا والدين ؛ ولو جاز أن يشكى اليه ذلك فى حياته، فإن ذلك فى حياته لا يفضى الى الشرك وهذا يفضى الى الشرك، لأنه فى حياته مكلف أن يجيب سؤال من سأله لما له فى ذلك من الأجر والثواب، وبعد الموت ليس مكلفاً، بل ما يفعله من ذكر لله تعالى ودعاء ونحو ذلك — كما أن موسى يصلى فى قبره ؛ وكما صلى الأنبياء خلف النبي صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج ببيت المقدس، وتسبيح أهل الجنة والملائكة — فهم يمتعون بذلك، وهم يفعلون ذلك بحسب ما يسره الله لهم ويقدره لهم . ليس هو من باب التكليف الذى يمتحن به العباد .

وحينئذ . فسؤال السائل للميت لا يؤثر فى ذلك شيئاً ؛ بل ماجعله الله فاعلا له هو يفعله وإن لم يسأله العبد ؛ كما يفعل الملائكة ما يؤمرون به، وهم انما

يطيعون أمر ربهم لا يطيعون أمر مخلوق ، كما قال سبحانه وتعالى : (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون * لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون) فهم لا يعملون الا بأمره سبحانه وتعالى .

ولا يلزم من جواز الشيء فى حياته جوازه بعد موته ، فإن بيته كانت الصلاة فيه مشروعة . وكان يجوز أن يجعل مسجداً . ولما دفن فيه حرم أن يتخذ مسجداً ؛ كما فى الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » يحذر ما فعلوا . ولولا ذلك لأبرز قبره ولكن كره أن يتخذ مسجداً .

وفى صحيح مسلم وغيره عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فإنى أنهاكم عن ذلك » . وقد كان صلى الله عليه وسلم فى حياته يصلى خلفه ، وذلك من أفضل الأعمال ، ولا يجوز بعد موته أن يصلى الرجل خلف قبره ، وكذلك فى حياته يطلب منه أن يأمر ، وأن يفتى وأن يقضى ، ولا يجوز أن يطلب ذلك منه بعد موته . وأمثال ذلك كثير .

وقد كره مالك وغيره أن يقول الرجل : زرت قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن هذا اللفظ لم يرد . والأحاديث المروية فى زيارة قبره كلها ضعيفة بل كذب . وهذا اللفظ صار مشتركا فى عرف المتأخرين يراد به (الزيارة البدعية) : التى فى معنى الشرك ؛ كالذى يزور القبر ليسأله أو يسأل الله به ، أو يسأل الله عنده .

و (الزيارة الشرعية) : هى أن يزوره لله تعالى : للدعاء له ، والسلام عليه كما يصلى على جنازته .

فهذا الثانى هو المشروع ، ولكن كثير من الناس لا يقصد بالزيارة إلا المعنى الأول ، فكره مالك أن يقول : زرت قبره ، لما فيه من إيهام المعنى الفاسد الذى يقصده أهل البدع والشرك .

(الثالثة) أن يقال : أسألك بفلان ، أو بجاه فلان عندك ونحو ذلك الذى تقدم عن أبى حنيفة وأبى يوسف وغيرهما أنه منهى عنه .

وتقدم أيضاً أن هذا ليس بمشهور عن الصحابة ، بل عدلوا عنه الى التوسل بدعاء العباس وغيره .

وقد تبين ما فى لفظ « التوسل » من الاشتراك بين ما كانت الصحابة تفعله وبين مالم يكونوا يفعلونه ، فإن لفظ التوسل والتوجه فى عرف الصحابة ولغتهم هو التوسل والتوجه بدعائه وشفاعته .

ولهذا يجوز أن يتوسل ويتوجه بدعاء كل مؤمن ، وان كان بعض الناس من المشايخ المتبوعين يحتج بما يرويه عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال : « اذا اعيتكم الأمور فعليكم بأهل القبور » « او فاستعينوا بأهل القبور » فهذا الحديث كذب مفترى على النبى صلى الله عليه وسلم بإجماع العارفين بحديثه ، لم يروه أحد من العلماء بذلك ، ولا يوجد فى شىء من كتب الحديث المعتمدة .

وقد قال تعالى : (وتوكل على الحى الذى لا يموت وسبح بحمده ، وكفى به بذنوب عباده خبيراً) وهـذا مما يعلم بالاضطرار من دين الاسلام أنه غير مشروع ، وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عما هو أقرب من ذلك ـ عن اتخاذ القبور مساجد ونحو ذلك ـ ولعن أهله تحذيراً من التشبه بهم ، فان ذلك أصل عبادة الأوثان . كما قال تعالى : (وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً * ولا يغوث ويعوق ونسراً) .

فان هؤلاء كانوا قوماً صالحين فى قوم نوح . فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ، ثم صوروهم ، ثم اتخذوا الأصنام على صورهم ، كما تقدم ذكر ذلك عن ابن عباس وغيره من علماء السلف . فمن فهم معنى قوله : (إياك نعبد وإياك نستعين) عرف أنه لا يعين على العبادة الإعانة المطلقة الا الله وحده وأنه يستعان بالمخلوق فيما يقدر عليه ، وكذلك الاستغاثة لا تكون الا بالله ، والتوكل لا يكون الا عليه (وما النصر الا من عند الله) فالنصر المطلق — وهو خلق مايغلب به العدو — لا يقدر عليه الا الله ، وفى هذا القدر كفاية لمن هداه الله ، والله أعلم .

وهذا الذى نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم من هذا الشرك هو كذلك فى شرائع غيره من الأنبياء : ففى التوراة أن موسى عليه السلام نهى بنى اسرائيل عن دعاء الأموات وغير ذلك من الشرك ، وذكر أن ذلك من أسباب عقوبة الله لمن فعله ، وذلك أن دين الأنبياء عليهم السلام واحد وإن تنوعت شرائعهم ، كما فى الصحيح عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إنا معشر الأنبياء ديننا واحد » .

وقد قال تعالى : (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى : ان أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم اليه) وقال تعالى : (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إنى بما تعملون عليم * وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون * فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً ، كل حزب بما لديهم فرحون) وقال تعالى : (فأقم وجهك للدين حنيفاً ، فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون * منيبين اليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين * من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون) وهذا هو دين الإسلام الذى لا يقبل الله دينا غيره من الأولين والآخرين ، كما قد بسط الكلام عليه فى غير هذا الموضع .

فصـــــل

واذا تبين ما أمر الله به ورسوله ، وما نهى الله عنه ورسوله — فى حق أشرف الخلق وأكرمهم على الله عز وجـــل ، وسيد ولد آدم وخاتم الرسل والنبيين ، وأفضل الأولين والآخرين ، وأرفع الشفعاء منزلة وأعظمهم جاها عند الله تبارك وتعالى — تبين أن من دونه من الأنبياء والصالحين أولى بأن لا يشرك به ، ولا يتخذ قبره وثناً يعبد ، ولا يدعى من دون الله لا فى حياته ولا فى مماته .

ولا يجوز لأحد أن يستغيث بأحد من المشايخ الغائبين ، ولا الميتين : مثل أن يقول : ياسيدى فلانا أغثنى ، وانصرنى ، وادفع عنى ، أو أنا فى حسبك ، ونحو ذلك ؛ بل كل هذا من الشرك الذى حرم الله ورسوله ، وتحريمه مما يعلم بالاضطرار من دين الاسلام ، وهؤلاء المستغيثون بالغائبين والميتين عند قبورهم وغير قبورهم — لما كانوا من جنس عباد الأوثان — صار الشيطان يضلهم ويغويهم ، كما يضل عباد الأوثان ويغويهم ، فتتصور الشياطين فى صورة ذلك المستغاث به ، وتخاطبهم بأشياء على سبيل المكاشفة ، كما تخاطب الشياطين الكهان ، وبعض ذلك صدق ، لكن لا بد أن يكون فى ذلك ما هو كذب بل الكذب أغلب عليه من الصدق .

وقد تقضى الشياطين بعض حاجاتهم ، وتدفع عنهم بعض مايكرهونه ، فيظن أحدهم أن الشيخ هو الذى جاء من الغيب حتى فعل ذلك ، أو يظن أن الله تعالى صور ملكا ـ على صورته ـ فعل ذلك ، ويقول أحدهم : هذا سر الشيخ وحاله ! وانما هو الشيطان تمثل على صورته ليضل المشرك به المستغيث به ، كما تدخل الشياطين فى الأصنام وتكلم عابديها وتقضى بعض حوائجهم ، كما كان ذلك فى أصنام مشركى العرب ، وهو اليوم موجود فى المشركين من الترك والهند وغيرهم ، وأعرف من ذلك وقائع كثيرة فى أقوام استغاثوا بى ، وبغيرى فى حال غيبتنا عنهم ، فرأونى أو ذاك الآخر الذى استغاثوا به قد جئنا فى الهواء ودفعنا عنهم ، ولما حدثونى بذلك بينت لهم أن ذلك انما هو شيطان تصور بصورتى وصورة غيرى من الشيوخ الذين استغاثوا بهم ليظنوا أن ذلك كرامات للشيخ فتقوى عزائمهم فى الاستغاثة بالشيوخ الغائبين والميتين ، وهذا من أكبر الأسباب التى بها أشرك المشركون وعبدة الأوثان .

وكذلك المستغيثون من النصارى بشيوخهم الذين يسمونهم العلامس يرون أيضاً من يأتى على صورة ذلك الشيخ النصرانى الذى استغاثوا به فيقضى بعض حوائجهم .

وهؤلاء الذين يستغيثون بالأموات من الأنبياء ، والصالحين ، والشيوخ ، وأهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم غاية أحدهم أن يجرى له بعض هذه الأمور ، أو يحكى لهم بعض هذه الأمور ، فيظن أن ذلك كرامة ، وخرق عادة بسبب هذا العمل . ومن هؤلاء من يأتى الى قبر الشيخ

الذى يشرك به ويستغيث به فينزل عليه من الهواء طعام ، أو نفقة أو سلاح ، أو غير ذلك مما يطلبه فيظن ذلك كرامة لشيخه ، وإنما ذلك كله من الشياطين . وهذا من أعظم الاسباب التى عبدت بها الأوثان .

وقد قال الخليل عليه السلام : (واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام * رب إنهن أضللن كثيراً من الناس) كما قال نوح عليه السلام ، ومعلوم أن الحجر لا يضل كثيراً من الناس إلا بسبب اقتضى ضلالهم ، ولم يكن أحد من عباد الأصنام يعتقد أنها خلقت السماوات والارض ، بل إنما كانوا يتخذونها شفعاء ووسائط لأسباب :

منهم من صورها على صور الأنبياء والصالحين .

ومنهم : من جعلها تماثيل وطلاسم للكواكب والشمس والقمر .

ومنهم من جعلها لاجل الجن .

ومنهم : من جعلها لاجل الملائكة . فالمعبود لهم فى قصدهم : انما هو الملائكة والانبياء والصالحون أو الشمس ، أو القمر . وهم فى نفس الامر يعبدون الشياطين : فهى التى تقصد من الإنس أن يعبدوها وتظهر لهم ما يدعوهم إلى ذلك ، كما قال تعالى : (ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون * قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون) .

واذا كان العابد ممن لا يستحل عبادة الشياطين أوهموه أنه إنما يدعو

الانبياء والصالحين والملائكة وغيرهم ممن يحسن العابد ظنه به ، وأما إن كان ممن لا يحرم عبادة الجن عرفوه أنهم الجن .

وقد يطلب الشيطان المتمثل له فى صورة الإنسان أن يسجد له أوأن يفعل به الفاحشة أو أن يأكل الميتة ويشرب الخمر ، أو أن يقرب لهم الميتة ، وأكثرهم لا يعرفون ذلك ، بل يظنون أن من يخاطبهم إما ملائكة واما رجال من الجن يسمونهم رجال الغيب ، ويظنون أن رجال الغيب أولياء الله غائبون عن أبصار الناس ، وأولئك جن تمثلت بصور الإنس ، أو رؤيت فى غير صور الإنس ، وقال تعالى : (وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً) كان الإنس اذا نزل أحدهم بواد يخاف أهله قال : أعوذ بعظيم هذا الوادى من سفهائه ، وكانت الإنس تستعيذ بالجن فصار ذلك سبباً لطغيان الجن ، وقالت : الإنس تستعيذ بنا !

وكذلك الرقى ، والعزائم الاعجمية : هى تتضمن أسماء رجال من الجن يدعون ، ويستغاث بهم ويقسم عليهم بمن يعظمونه فتطيعهم الشياطين بسبب ذلك فى بعض الامور . وهذا من جنس السحر والشرك قال تعالى : (واتبعوا ماتتلوا الشياطين على ملك سليمان ، وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت ، وما يعلمان من أحد حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر ، فيتعلمون منهما مايفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد الا باذن الله ، ويتعلمون ما يضرهم ولا

ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ما له فى الآخرة من خلاق ؛ ولبئس ما شرو به أنفسهم لو كانوا يعلمون).

وكثير من هؤلاء يطير فى الهواء وتكون الشياطين قد حملته وتذهب به إلى مكة وغيرها ، ويكون مع ذلك زنديقا يجحد الصلاة وغيرها مما فرض الله ورسوله ، ويستحل المحارم التى حرمها الله ورسوله ، وإنما يقترن به أولئك الشياطين لما فيه من الكفر والفسوق والعصيان ، حتى إذا آمن بالله ورسوله وتاب والتزم طاعة الله ورسوله ، فارقته تلك الشياطين ، وذهبت تلك الأحوال الشيطانية من الاخبارات والتأثيرات ؛ وأنا أعرف من هؤلاء عددا كثيرا بالشام ومصر والحجاز واليمن ، وأما الجزيرة والعراق وخراسان والروم ففيها من هذا الجنس أكثر مما بالشام وغيرها ، وبلاد الكفار من المشركين وأهل الكتاب أعظم .

وإنما ظهرت هذه الأحوال الشيطانية التى أسبابها الكفر والفسوق والعصيان بحسب ظهور أسبابها ، فحيث قوى الإيمان والتوحيد ونور الفرقان والإيمان وظهرت آثار النبوة والرسالة ضعفت هذه الاحوال الشيطانية ، وحيث ظهر الكفر والفسوق والعصيان قويت هذه الاحوال الشيطانية ، والشخص الواحد الذى يجتمع فيه هذا وهذا الذى تكون فيه مادة تمده للايمان ومادة تمده للنفاق يكون فيه من هذا الحال وهذا الحال .

والمشركون الذين لم يدخلوا فى الاسلام مثل البخشية والطونية والبدى

ونحو ذلك من علماء المشركين وشيوخهم الذين يكونون للكفار من الترك والهند والخطا وغيرهم تكون الاحوال الشيطانية فيهم أكثر ، ويصعد أحدهم فى الهواء ويحدثهم بأمور غائبة ، ويبقى الدف الذى يغنى لهم به يمشى فى الهواء ، ويضرب رأس أحدهم اذا خرج عن طريقهم ، ولا يرون أحدا يضرب له ، ويطوف الإناء الذى يشربون منه عليهم ولا يرون من يحمله ، ويكون أحدهم فى مكان فمن نزل منهم عنده ضيفه طعاما يكفيهم . ويأتيهم بألوان مختلفة . وذلك من الشياطين تأتيه من تلك المدينة القريبة منه أو من غيرها تسرقه وتأتى به . وهذه الأمور كثيرة عند من يكون مشركا أو ناقص الإيمان من الترك وغيرهم ، وعند التتار من هذا أنواع كثيرة .

وأما الداخلون فى الإسلام اذا لم يحققوا التوحيد واتباع الرسول ، بل دعوا الشيوخ الغائبين واستغاثوا بهم ، فلهم من الاحوال الشيطانية نصيب بحسب ما فيهم مما يرضى الشيطان . ومن هؤلاء قوم فيهم عبادة ودين مع نوع جهل ، يحمل أحدهم فيوقف بعرفات مع الحجاج من غير أن يحرم اذا حاذى المواقيت ولا يبيت بمزدلفة ، ولا يطوف طواف الإضافة ، ويظن أنه حصل له بذلك عمل صالح وكرامة عظيمة من كرامات الاولياء ، ولا يعلم أن هـذا من تلاعب الشيطان به .

فان مثل هذا الحج ليس مشروعا ولا يجوز باتفاق علماء المسلمين ، ومن ظن أن هذا عبادة وكرامة لأولياء الله فهو ضال جاهل .

ولهذا لم يكن أحد من الانبياء والصحابة يفعل بهم مثل هذا ، فانهم أجل

قدرا من ذلك ، وقد جرت هذه القضية لبعض من حمـــل هو وطائفة معه من الاسكندرية إلى عرفة ، فرأى ملائكة تنزل وتكتب أسماء الحجاج فقال : هل كتبتمونى ؟ قالوا أنت : لم تحج كما حج النـاس ، أنت لم تتعب ولم تحرم ولم يحصل لك من الحج الذى يثاب الناس عليه ما حصل للحجاج . وكان بعض الشيوخ قد طلب منه بعض هؤلاء أن يحج معهم فى الهواء فقال لهم : هذا الحج لا يسقط به الفرض عنكم لأنكم لم تحجوا كما أمر الله ورسوله .

ودين الاسلام مبنى على أصلين : على أن يعبد الله وحده لا يشرك به شىء ، وعلى أن يعبد بما شرعه على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم ، وهـذان هما حقيقة قولنا : « أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمـدا عبده ورسوله » . فالإله هو الذى تألهه القلوب عبادة واستعانة ومحبة وتعظيما وخوفا ورجاء واجلالا واكراما . والله عز وجل له حق لا يشركه فيه غيره فلا يعبد إلا الله ، ولا يدعى إلا الله ، ولا يخاف الا الله ، ولا يطاع الا الله .

والرسول صلى الله عليه وسلم هو المبلغ عن الله تعالى أمره ونهيه وتحليله وتحريمه ، فالحلال ما حلله ، والحرام ما حرمه ، والدين ما شرعه ؛ والرسول صلى الله عليه وسلم واسطة بين الله وبين خلقه فى تبليغ أمره ونهيه ، ووعده ووعيده ، وتحليله وتحريمه ، وسائر ما بلغه من كلامه .

وأما فى إجابة الدعاء ، وكشف البلاء ، والهداية والإغناء ، فالله تعالى هو الذى يسمع كلامهم ويرى مكانهم ويعلم سرهم ونجواهم ؛ وهو سبحانه قادر على

إنزال النعم ، وإزالة الضر والسقم ، من غير احتياج منه الى أن يعرفه أحد أحوال عباده ، أو يعينه على قضاء حوائجهم .

والأسباب التى بهـا يحصل ذلك هو خلقها ويسرها . فهو مسبب الأسباب وهو الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . (يسأله من فى السموات والأرض ، كل يوم هو فى شأن) فأهل السموات يسألونه ، وأهل الارض يسألونه ، وهو سبحانه لا يشغله سمع كلام هذا عن سمع كلام هذا ، ولا يغلطه اختلاف أصواتهم ولغاتهم ، بل يسمع ضجيج الاصوات، باختلاف اللغات ، على تفنن الحاجات، ولا يبرمه إلحاح الملحين، بل يحب الالحاح فى الدعاء .

وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم اذا سألوا النبى صلى الله عليه وسلم عن الأحكام أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإجابتهم كما قال تعالى : (يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج) : (ويسألونك ماذا ينفقون ، قل العفو) : (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ، قل قتال فيه كبير) الى غير ذلك من مسائلهم .

فلما سألوه عنه سبحانه وتعالى قال : (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان) فلم يقل سبحانه « فقل » بل قال تعالى : (فإنى قريب أجيب دعوة الداع) .

فهو قريب من عباده كما قال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث لما كانوا يرفعون أصواتهم بالذكر والدعاء فقال : « أيها الناس اربعوا على أنفسكم

فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا ، إنما تدعون سميعاً قريبا ، ان الذى تدعونه أقرب الى أحدكم من عنق راحلته » .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « اذا قام أحدكم الى صلاته فلا يبصقن قبل وجهه فان الله قبل وجهه ، ولا عن يمينه فان عن يمينه ملكا ، ولكن عن يساره أو تحت قدمه » وهذا الحديث فى الصحيح من غير وجه .

وهو سبحانه فوق سماواته على عرشه بائن من خلقه ليس فى مخلوقاته شيء من ذاته ولا فى ذاته شيء من مخلوقاته . وهو سبحانه غنى عن العرش وعن سائر المخلوقات لا يفتقر الى شيء من مخلوقاته ، بل هو الحامل بقدرته العرش وحملة العرش .

وقد جعل تعالى العالم طبقات ، ولم يجعل أعلاه مفتقرا الى أسفله ، فالسماء لا تفتقر إلى الهواء والهواء لا يفتقر إلى الأرض ، فالعلى الأعلى رب السموات والأرض وما بينهما الذى وصف نفسه بقوله تعالى : (وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه ، سبحانه وتعالى عما يشركون) أجل وأعظم وأغنى وأعلى من أن يفتقر إلى شيء بحمل أو غير حمل ، بل هو الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد ، الذى كل ما سواه مفتقر اليه ، وهو مستغن عن كل ما سواه .

وهذه الأمور مبسوطة فى غير هذا الموضع ، قد بين فيه التوحيد الذى بعث الله به رسوله قولا وعملا ، فالتوحيد القولى مثل سورة الإخلاص (قل هو الله أحد) والتوحيد العملى (قل يا أيها الكافرون) ولهذا كان النبي

صلى الله عليه وسلم يقرأ بهاتين السورتين فى ركعتى الفجر وركعتى الطواف وغير ذلك .

وقد كان أيضاً يقرأ فى ركعتى الفجر وركعتى الطواف : (قولوا : آمنا بالله وما أنزل إلينا) الآية . وفى الركعة الثانية بقوله تعالى : (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) .

فإن هاتين الآيتين ؛ فيهما دين الإسلام ، وفيهما الإيمان القولى والعملى ، فقوله تعالى (آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل الى إبراهيم واسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط) الى آخرها يتضمن الإيمان القولى والإسلام . وقوله : (قل : يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم) ـ الآية الى آخرها — يتضمن الإسلام والإيمان العملى ، فأعظم نعمة أنعمها الله على عباده الإسلام والإيمان ، وهما فى هاتين الآيتين ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

فهذا آخر السؤال والجواب الذى أحببت ايراده هنا بألفاظه ؛ لما اشتمل عليه من المقاصد المهمة ، والقواعد النافعة فى هذا الباب ، مع الاختصار . فإن التوحيد هو سر القرآن ، ولب الإيمان ، وتنويع العبارة بوجوه الدلالات من أهم الأمور وأنفعها للعباد ، فى مصالح المعاش والمعاد ، والله أعلم .

قال شيخ الاسلام

في قول القائل : أسألك بحق السائلين عليك وما في معناه ؟ .

الجواب : أما قول القائل أسألك بحق السائلين عليك : فإنه قد روى في حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم رواه ابن ماجه ؛ لكن لا يقوم باسناده حجة ؛ وان صح هذا عن النبي صلى الله عليه وسلم كان معناه : أن حق السائلين على الله أن يجيبهم ، وحق العابدين له أن يثيبهم ، وهو كتب ذلك على نفسه . كما قال : (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان) . فهذا سؤال الله بما أوجبه على نفسه كقول القائلين : (ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك) .وكدعاء الثلاثة : الذين أووا الى الغار لما سألوه بأعمالهم الصالحة ، التى وعدهم أن يثيبهم عليها . اه

ولما كان الشيخ في قاعة الترسيم

دخل الى عنده ثلاثة رهبان من الصعيد فناظرهم ، وأقام عليهم الحجة بأنهم كفار ، وما هم على الذى كان عليه إبراهيم والمسيح .

فقالوا له : نحن نعمل مثل ما تعملون : أنتم تقولون بالسيدة نفيسة ، ونحن نقول بالسيدة مريم ، وقد أجمعنا نحن وأنتم على أن المسيح ومريم أفضل من الحسين ومن نفيسة ، وأنتم تستغيثون بالصالحين الذين قبلكم ونحن كذلك ، فقال لهم وأى من فعل ذلك ففيه شبه منكم ، وهذا ما هو دين ابراهيم الذى كان عليه ، فإن الدين الذى كان عليه ابراهيم عليه السلام : أن لا نعبد الا الله وحده لا شريك له ، ولا ند له ، ولا صاحبة له ولا ولد له ، ولا نشرك معه ملكا ، ولا شمساً ولا قمراً ولا كوكباً ، ولا نشرك معه نبياً من الأنبياء ولا صالحاً : (ان كل من فى السموات والأرض الا آت الرحمن عبداً) .

وأن الامور التى لايقدر عليها غير الله لا تطلب من غيره ، مثل انزال المطر وانبات النبات ، وتفريج الكربات والهدى من الضلالات ، وغفران الذنوب، فإنه لا يقدر أحد من جميع الخلق على ذلك ولا يقدر عليه الا الله .

والانبياء عليهم الصلاة والسلام : نؤمن بهم ونعظمهم ونوقرهم ونتبعهم

ونصدقهم فى جميع ما جاءوا به،ونطيعهم. كما قال نوح، وصالح ، وهود ،وشعيب : (أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون) فجعلوا العبادة والتقوى لله وحده ، والطاعة لهم ، فإن طاعتهم من طاعة الله . فلو كفر أحد بنبي من الانبياء وآمن بالجميع ما ينفعه ايمانه حتى يؤمن بذلك النبي ، وكذلك لو آمن بجميع الكتب وكفر بكتاب كان كافراً حتى يؤمن بذلك الكتاب، وكذلك الملائكة واليوم الآخر فلما سمعوا ذلك منه قالوا : الدين الذى ذكرته خير من الدين الذى نحن وهؤلاء عليه . ثم انصرفوا من عنده .

سئل - رحمه الله -

عمن يبوس الأرض دائما هل يأثم ؟ وعمن يفعل ذلك لسبب أخـذ رزق وهو مكره كذلك ؟.

فأجاب : أما تقبيل الأرض ، ورفع الرأس ، ونحـو ذلك ممـا فيه السجود ، ممـا يفعل قـدام بعض الشيوخ وبعض الملوك : فلا يجوز ؛ بل لا يجوز الانحناء كالركوع أيضا ، كما قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : الرجل منا يلقى أخاه أينحنى له ؟ قال : « لا » ولما رجع معاذ من الشام سجد للنبي صلى الله عليه وسلم . فقال : « ما هذا يا معـاذ ؟» قال يا رسول الله رأيتهم فى الشـام يسجدون لاساقفتهم ، ويذكرون ذلك عن أنبيأهم . فقال : « كذبوا عليهم لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لاحد لامرت المرأة أن تسجد لزوجها من أجل حقه عليها يا معاذ انه لا ينبغى السجود الا لله » .

وأما فعل ذلك تديناً وتقرباً فهذا من أعظم المنكرات ، ومن اعتقد مثل هذا قربة ، وتديناً فهو ضال مفتر ، بل يبين له أن هذا ليس بدين ولا قربة ، فإن أصر على ذلك استتيب فإن تاب والاقتل .

وأما اذا أكره الرجل على ذلك ، بحيث لو لم يفعله لأفضى الى ضربه

أو حبسه ، أو أخذ ماله أو قطع رزقه الذى يستحقه من بيت المال ونحو ذلك من الضرر ، فإنه يجوز عند أكثر العلماء ، فإن الإكراه عند أكثرهم يبيح الفعل المحرم كشرب الخمر ونحوه ، وهو المشهور عن أحمد وغيره ، ولكن عليه مع ذلك أن يكرهه بقلبه ، ويحرص على الامتناع منه بحسب الإمكان ، ومن علم الله منه الصدق أعانه الله تعالى ، وقد يعافى ببركة صدقه من الامر بذلك ! . وذهب طائفة الى أنه لا يبيح الا الاقوال دون الافعال : ويروى ذلك عن ابن عباس ونحوه ، قالوا انما التقية باللسان ، وهو الرواية الاخرى عن أحمد .

وأما فعل ذلك لاجل فضول الرياسة والمال فلا ، واذا أكره على مثل ذلك ونوى بقلبه أن هذا الخضوع لله تعالى : كان حسناً ، مثل أن يكره كلمة الكفر وينوى معنى جائزاً والله أعلم .

وسئل الإمام العالم العامل الربانى ، والحبر النورانى ؛ أبو العباس :

أحمد بن تيمية – رحمه الله تعالى :–

عن « النهوض والقيام الذى يعتاده الناس ، من الاكرام عند قدوم شخص معين معتبر ، هل يجوز أم لا ؟ وإذا كان يغلب على ظن المتقاعد عن ذلك أن القادم يخجل ، أو يتأذى باطناً ، وربما أدى ذلك إلى بغض وعداوة ومقت ، وأيضاً المصادفات فى المحافل وغيرها ، وتحريك الرقاب إلى جهة الأرض والانخفاض ، هل يجوز ذلك أم يحرم ؟ فإن فعل ذلك الرجل عادة وطبعاً ليس فيه له قصد ، هل يحرم عليه ام لا يجوز ذلك فى حق الأشراف والعلماء ، وفيمن يرى مطمئناً بذلك دائماً هل يأثم على ذلك أم لا ؟ وإذا قال سجدت لله هل يصح ذلك أم لا ؟ .

فأجاب :–

الحمد لله رب العالمين . لم تكن عادة السلف على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين : أن يعتادوا القيام كلما يرونه عليه السلام ؛ كما يفعله كثير من الناس ؛ بل قد قال أنس بن مالك : لم يكن شخص أحب اليهم من النبي صلى الله عليه وسلم ، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له ، لما يعلمون من كراهته

لذلك ؛ ولكن ربما قاموا للقادم من مغيبه تلقياً له ، كما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قام لعكرمة ، وقال للأنصار لما قدم سعد بن معاذ : « قوموا إلى سيدكم » وكان قد قدم ليحكم فى بنى قريظة لأنهم نزلوا على حكمه .

والذى ينبغى للناس : أن يعتادوا اتباع السلف على ما كانوا عليه على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنهم خير القرون ، وخير الكلام كلام الله ، وخير الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم ، فلا يعدل أحد عن هدى خير الورى ، وهدى خير القرون إلى ما هو دونه . وينبغى للمطاع أن لا يقر ذلك مع أصحابه ، بحيث إذا رأوه لم يقوموا له إلا فى اللقاء المعتاد .

وأما القيام لمن يقدم من سفر ونحو ذلك تلقياً له فحسن .

وإذا كان من عادة الناس اكرام الجائى بالقيام ولو ترك لا اعتقد أن ذلك لترك حقه أو قصد خفضه ولم يعلم العادة الموافقة للسنة فالأصلح أن يقام له ، لأن ذلك أصلح لذات البين ، وإزالة التباغض والشحناء ؛ وأما من عرف عادة القوم الموافقة للسنة : فليس فى ترك ذلك إيذاء له ، وليس هـذا القيام المذكور فى قوله صلى الله عليه وسلم : « من سره أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار » فإن ذلك أن يقوموا له وهو قاعد ، ليس هو أن يقوموا لمجيئه إذاجاء ؛ ولهذا فرقوا بين أن يقال قمت اليه وقمت له ، والقائم للقادم ساواه فى القيام ، بخلاف القائم للقاعد .

وقد ثبت فى صحيح مسلم : أن النبي صلى الله عليه وسلم لما صلى بهم قاعداً

فى مرضه صلوا قياماً أمرهم بالقعود . وقال : لا تعظمونى كما يعظم الاعاجم بعضها بعضاً ، وقد نهاهم عن القيام فى الصلاة وهو قاعد ، لئلا يتشبه بالاعاجم الذين يقومون لعظمائهم وهم قعود .

وجماع ذلك كله الذى يصلح اتباع عادات السلف وأخلاقهم ، والاجتهاد عليه بحسب الامكان . فمن لم يعتقد ذلك ولم يعرف أنه العادة وكان فى ترك معاملته بما اعتاد من الناس من الاحترام مفسدة راجحة : فإنه يدفع أعظم الفسادين بالتزام أدناهما كما يجب فعل أعظم الصلاحين بتفويت أدناهما .

فصـــــل

وأما الإنحناء عند التحية : فينهى عنه ، كما فى الترمذى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنهم سألوه عن الرجل يلق أخاه ينحنى له ؟ قال : « لا » ولأن الركوع والسجود لا يجوز فعله الا لله عز وجل ؛ وان كان هذا على وجه التحية فى غير شريعتنا ، كما فى قصة يوسف : (وخروا له سجداً وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل) وفى شريعتنا لا يصلح السجود الا لله ، بل قد تقدم نهيه عن القيام كما يفعله الأعاجم بعضها لبعض ، فكيف بالركوع والسجود ؟ وكذلك ماهو ركوع ناقص يدخل فى النهى عنه .

وقال شيخ الاسلام :

فصـــــل

كان المشركون يعبدون أنفسهم وأولادهم لغير الله ؛ فيسمون بعضهم عبد الكعبة ، كما كان اسم عبد الرحمن بن عوف ، وبعضهم عبد شمس كما كان اسم أبي هريرة ، واسم عبد شمس بن عبـد مناف ، وبعضهم عبد اللات ،وبعضهم عبدالعزى وبعضهم عبد مناة وغير ذلك مما يضيفون فيه التعبيد الى غير الله ، من شمس أو وثن أو بشر أو غير ذلك مما قد يشرك بالله .

ونظير تسمية النصارى عبد المسيح . فغير النبي صلى الله عليه وسلم ذلك وعبدهم لله وحده ، فسمى جماعات من أصحابه : عبد الله وعبد الرحمن ، كما سمى عبد الرحمن بن عوف ونحو هـذا ، وكما سمى أبا معاوية وكان اسمه عبد العزى فسماه عبد الرحمن ، وكان اسم مولاه قيوم فسماه عبد القيوم .

ونحو هـذا من بعض الوجوه ما يقع فى الغـالية من الرافضة ومشابهيهم الغالين فى المشائخ ، فيقال هذا غلام الشيخ يونس أو للشيخ يونس أو غلام ابن

الرفاعي أو الحريري ونحو ذلك مما يقوم فيه للبشر نوع تأله، كما قد يقوم في نفوس النصارى من المسيح ، وفي نفوس المشركين من آلهتهم رجاء وخشية ، وقد يتوبون لهم، كما كان المشركون يتوبون لبعض الآلهة ، والنصارى للمسيح أو لبعض القديسين .

وشريعة الإسلام الذى هو الدين الخالص لله وحده : تعبيد الخلق لربهم كما سنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتغيير الأسماء الشركية الى الاسماء الإسلامية، والاسماء الكفرية الى الأسماء الايمانية ، وعامة ماسمى به النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله وعبد الرحمن . كما قال تعالى :(قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ماتدعوا فله الأسماء الحسنى) فإن هذين الإسمين هما أصل بقية أسماء الله تعالى .

وكان شيخ الإسلام الهروى قد سمى أهل بلده بعامة أسماء الله الحسنى ، وكذلك أهل بيتنا : غلب على أسمائهم التعبيد لله ، كعبد الله ؛ وعبد الرحمن ؛ وعبد الغنى ؛ والسلام ؛ والقاهر ؛ واللطيف ؛ والحكيم ؛ والعزيز ؛ والرحيم ؛ والمحسن ؛ والأحد ؛ والواحد ؛ والقادر ؛ والكريم ؛ والملك ؛ والحق . وقد ثبت فى صحيح مسلم عن نافع عن عبد الله بن عمر : أن النبي صلى الله علية وسلم قال : « أحب الأسماء الى الله عبد الله وعبد الرحمن وأصدقها حارث وهمام وأقبحها حرب ومرة » وكان من شعار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم معه فى الحروب :يا بنى عبد الرحمن ! يا بنى عبد الله! يا بنى

عبيد الله ! كما قالوا ذلك يوم بدر ، وحنين ، والفتح ، والطائف ، فكان شعار المهاجرين يا بنى عبد الرحمن ! وشعار الخزرج يا بنى عبد الله ! وشعار الأوس يا بنى عبيد الله ! ». .

{ آخر ما وجد الآن من كتاب توحيد الإلهية }

ويليه كتاب توحيد الربوبية

فهرس المجلد الاول

مقدمة الكتاب

الصفحة | الموضوع

الصفحة　　　　　　　　　　　　الموضوع

الصفحة	الموضوع
٦٥	بعض من انحرف عن الصراط المستقيم . نعت النبي فى القرآن بالعبودية وتحقيق الرسول لمعناها .
٦٦	الغلو وقع فى بعض ضلال الشيعة وجهال المتصوفة .
٦٧ ــ ٦٨	حقوق الأنبياء على الخلق .
٦٩ ــ ٧١	حق الله .
٧١ ــ ٧٦	أصناف العبادات .
٧٦ ــ ٧٧	الشهادتان أول الواجبات . الفرق بين المشروع والممنوع . الخارج عن الشريعة لا يفرق بينهما .
٧٨ ــ ٧٩	فصل فى ان لا يسأل العبد إلاالله . ما يسوغ ان يسأل العبد من غيره
٨٠ ــ ٨٥	« فصل » العبادات مبناها على الشرع والاتباع .
٨١ ــ ٨٢	لا يجب الوفاء بالنذر لغير الله . النذر لا يجلب منفعه .
٨٢ ــ ٨٣	ما تفعله الشياطين لأوليائها . كرامات الأولياء .
٨٣	ما يلزم الحاج .
٨٦ ــ ٨٧	فصل فى جماع الحسنات والسيئات . اخلاص الدين لله أصل العدل . الشرك أعظم الظلم .
٨٧	تفسير: (قل أمر ربى بالقسط) .
٨٨ ــ ٩٦	اعلم رحمك الله ان الشرك بالله أعظم ذنب .
٨٨ ــ ٨٩	الله هو المستحق للعبادة لذاته وغيره لا يصلح أن يكون إلها .

الصفحة　　　　　　　　　　الموضوع

الصفحة الموضوع

فهرس التوسل والوسيلة
١٤٢ - ٣٦٨

الصفحة	الموضوع

الصفحة الموضوع

الصفحة	الموضوع
٢٣١	قول مالك: ليس يلزم من دخل المسجد وخرج ـ من أهل المدينة ـ الوقوف بالقبر فإنما ذلك للغرباء .
٢٣٢	حديث : « اللهم لا تجعل قبرى وثنا يعبد » وكراهة مالك إطالة القيام عند السلام .
٢٣٤	أحاديث زيارة القبر الشريف كلها ضعيفة .
٢٣٤	حكم السفر لزيارة القبور .
٢٣٦	الزيارة الشرعية ، والزيارة البدعية (وانظر ص ٣٠٢) .
٢٣٦	الحديث الصحيح : « ما بين (بيتى) ومنبرى روضة من رياض الجنة » .
٢٣٦	لو كان نص الحديث « ما بين قبرى ومنبرى » ما تنازعوا فى موضع دفنه .
٢٣٧	من قصد قبور الصالحين للصلاة والدعاء عندها فقد قصد نفس الحرام الذى سد الله ورسوله ذريعته ، وهذا بخلاف السلام المشروع (وانظر ص ١٦٦ ، ١٦٧) .
٢٣٨	حديث : « صلوا على حيثما كنتم فإن صلاتكم تبلغنى » .
٢٣٩	بقية نقد الحكاية المكذوبة على مالك .
٢٤١	لو كان طلب دعائه وشفاعته عند قبره مشروعا لكان الصحابة أعلم بذلك وأسبق إليه .
٢٤٣	لغة الصحابة التى كان يخاطبهم بها النبى صلى الله عليه وسلم وعادتهم فى الكلام (وانظر ص ١٤٣ ، ٢٤٣ ، ٣٤٤) .
٢٤٣	مغالطات الإسماعيلية وملاحدة المتكلمة والمتصوفة فى اختراع المصطلحات .

الصفحة الموضوع

الصفحة الموضوع



